NRLS

دراسات استراتيجية

مركز روح آفا للدراسات الإستراتيجية

مجلة فصلية تصدر من مركز روح آفا للدراسات الاستراتيجية - العددان 9-10 صيف و خريف 2022

■ التطرف بين الثورة و التسلط

■ الاصولية الشيعية

■ بحر قزوين إلى أين ؟

رئيس التحرير : طـه خليل

المحررون:

د.أحمد سينو - نذير صالح

التصميم: آزاد محمد - احمد ملا

تتم كافة المراسلات باسم رئاسة التحرير على البريد الالكتروني التالي:

nrls@nrlsrojava.com

لزيارة الموقع الالكتروني:

www.nrls.net

منشورات مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية NRLS

حقوق الطبع والنشر محفوظة

العددان 9-10 صيف وخريف 2022

كلمة العدد

في هذا العدد المزدوج من مجلتنا دراسات استراتيجية، أخترنا موضوعا قديما جديدا، الا وهوالإرهاب والتطرف ليكون المحور الأساس في العدد، فالتطرف في الشرق الأوسط وشمال افريقيا بات لا يهدد فقط وجود مجموعات بشرية بل ويتجه نحوفناء كيانات ومجتمعات برمتها، وبالطبع هذا التطرف وهذا الإرهاب ارتبط مباشرة بالدين الإسلامي، فبدلا من إعادة قراءة تعاليم هذا الدين، وربطه بالمستجدات العالمية والتطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، تم باتفاق معلن وغير معلن في ما بين العديد من الدول والمجموعات لاستلهام كل ما يدعوللعنف فيه وتطبيقه كإيديولوجية معاصرة على المجتمعات.

بالطبع لهذا التطرف – الإرهاب جذور دينية واجتماعية قديمة، بعضها يعود لما قبل ظهور الأديان وبعضها رسختها التعاليم الدينية بغض النظر عن النبي الذي جاء أكان محمدا ام موسى ام عيسى وإذ قامت " الدولة " القومية اوالبورجوازية في أوروبا بوضع حد للتدخل الديني في الشأن السياسي العام، فانه في بلادنا هناك من يحاول احياء تعاليم مضى عليها قرون من قبل العديد من الأطراف ولكل طرف مصالحه واستراتيجياته في إحياء هذه الايدلوجيا.

لا شك ان هذا الشيء ظهر جليا بعد ما سمي بثورات الربيع العربي، حيث كانت الدول العربية القومية ومنذ تأسيسها لم تستطع ان تخلق اوتوجد بديلا للعقيدة الدينية التي ظلت في نفوس المواطنين كجمر تحت رماد الأيديولوجيا القومية التي أوجدها بعض " مفكري " القومية العربية كميشيل عفلق والارسوزي وغيرهم، ولهذا ما ان ارتخت القبضة الأيديولوجية البعثية والأمنية عن رقاب شعوبها لا سيما في العراق وسوريا، حتى كان البديل القديم جاهزا، وهوالإسلام، وراحت المجموعات تتسع وتمتلك السلاح، وراحت فتاوى القتل تنتشر كالنار في هشيم البؤس العربي.

من هنا كان لا بد لنا في كل عدد من مجلتنا، (وهذا العدد بشكل خاص) إلا ان نحاول تقديم تصورات تاريخية وفكرية عن هذا الموضوع.

نرجوان نكون قد وفقنا الى حد ما، نأمل ان نصل معا لفكر انساني جامع ذات يوم، فكر يحترم الآخر لكونه مختلفا عنا، ولا لأنه يشبهنا.

رئيس التحرير

.

التطرف بين الثورة والتسلط

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

مقدّمة

مع الصعود والأفول السريع لنجم تنظيم داعش في منطقة الشرق الأوسط أصبحت ظاهرة التطرّف محطّ اهتمام الكثير من المفكّرين والباحثين والسياسيين حول العالم، وتحوّلت لدى البعض إلى شكل من أشكال الشرّ المخيف، وأصبح مصطلحاً ملازماً للتنظيمات التي تعيث قتلاً وتدميراً في العالم، حتى أنّه تحوّل إلى مصطلح تتداوله الأنظمة الاستبدادية لتشويه صورة الحركات الثورية والتنظيمات المنتفضة ضدّها. يُعتبَر التطرّف ظاهرة إنسانية تتولّد في ذهنية الفرد كردّة فعل حذرة تجاه ظواهر اجتماعية وثقافية وسياسية لا يستطيع استيعابها أوغير قادر على التحكّم بها، سواء أكانت هذه الظواهر تحمل له خيراً أوشرّاً، لذلك يمكن إدراجها في إطار نزعتي الدفاع عن النفس وتحقيق الذات.

استناداً إلى معايشة الواقع في سياق الأزمة التي تعاني منها سوريا ووضوح العوامل المسبّبة لها، وبالاطّلاع على العديد من المراجع عن أحداثٍ تاريخية وآراء مفكّرين اهتمّوا بمختلف مفاهيم التطرّف؛ سيتم في هذه الدراسة تقييم ظاهرة التطرّف والبحث في اتّجاهاته الثورية والتسلّطية كإشكالية بحاجة إلى التفسير، من خلال تصنيفها كوسيلة للدفاع الذاتي، وكوسيلة لتمكين التسلّط، وتحديد العوامل التي تولّدها وتؤجّجها في الأبعاد النفسية والثقافية والسياسية والاقتصادية وغيرها؛ لذلك سيتمّ اعتماد المنهج الوصفي- التحليلي والاستعانة بالمنهجين المقارن والاستقرائي، ومحاولة الإسقاط النسبي للتجربة العالمية مع التطرّف على المجتمعات السورية.

التطرّف كظاهرة.

لقد برز مصطلح التطرّف والإرهاب مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وشاع استعماله وكثرت الدراسات السياسية والأمنية حوله، وفي فترة التسعينيات ومطلع القرن الحادي والعشرين صدرت آلاف المقالات والأبحاث حول موضوعه في محاولات لتحليله وفقاً لمنظورات متنوّعة ومختلفة لم تستطع بلورة رؤية علمية موحّدة لهذه الظاهرة يوضّح ماهيتها بشكل موضوعي، لذا يوجد اختلاف في منظوراته وخلاف حول تعريفه، قد يعود هذا الاختلاف إلى تعدّد من تعاطَوا مفهومه وإلى تنوّع الثقافات ووجهات النظر التي تناولته، إلّا أنّ هناك اتفاقًا نسبيًّا على أسباب بروزه والمتمثلة بفشل أنظمة الحكم في حلّ مشاكل المجتمعات الاقتصادية والسياسية، وما ينجم عنها من تداعيات على العلاقات الاجتماعية والصحة النفسية للأفراد يخلق صدعاً ثقافياً يتسبّب توسّعه ببروز منفذٍ لتحرّر طاقة التطرّف المقترن بالعنف، والانفجار كعصيان على سلطة النظام السياسي القائم، وبالطبع لن

يستطيع المجتمع حماية ثقافته من كامل شظايا هذا الانفجار؛ وبما أنّ التطرّف هووسيلة وليس غاية في خضمّ الثورة فإنّ إصرار القادة المتطرّفين على أدلجة النظام السياسي الحاكم بتطرّفهم أي بجعلها وسيلة وغاية سرعان ما يتسبّب بحرف الثورة عن مسارها، والتسبّب التدريجي بكارثة سياسية واجتماعية وثقافية أخرى قد تفرض انطلاق عصيان آخر. يُلاحَظ نسبياً من خلال رصد مسارات الثورات التي اندلعت منذ آلاف السنين أنّ كل ثورة فكرية على نظام سياسي- اجتماعي استبدادي قائم غالباً ما تؤدّي لاحقاً إلى نشوء نظام سياسي آخر يفرض استبداده، الأمر الذي يفتح الباب لثورة فكرية أخرى عليها وهكذا دواليك، ونماذج ما تمّ بحثه كثيرة، كالحركات الطائفية والمذهبية التي شهدتها الديانات التوحيدية والأيديولوجيات الليبرالية والشيوعية والفاشية وغيرها؛ لذلك يبدومن المفيد وللحفاظ على القيم المعنوية لأيّة ثورة منع الأدلجة المتطرّفة للنظام السياسي الجديد بأفكار هذه الثورة؛ فتقديس أفكار الثورة وتحويلها إلى ديانة يعني تدخّلها في أدقّ تفاصيل حياة الفرد والمجتمع وتصبح أكثر قابلية للاستغلال من قبل الانتهازيين؛ فمثلاً الليبرالية تأثّرت بالنزعة الفكرية الثورية تجاه التزمّت الديني للكنيسة، وكانت محصورة كمفهوم في الاقتصاد إلى أن تمّ تعميمها بشكل متزمّت على السياسة والمجتمع والثقافة، الأمر الذي تسبّب ببروز مشاكل اجتماعية كبيرة؛ منها ما تُسمّى بالثورة الجنسية، وبروز ظاهرة المثلية، وتنامي منظّمات الجريمة المنظّمة، والبراغماتية التي شكّلت طاقة مغذّية للهيمنة على إرادة الشعوب الأخرى، إلى جانب التفكّك العائلي وتصدّع العلاقات الاجتماعية وغير ذلك، والأمر نفسه ينطلي بشكل آخر على الدين كثورة في المجال الروحاني، والشيوعية كثورة اقتصادية- اجتماعية، والديمقراطية كثورة سياسية...إلخ؛ إنّ خروج الأيديولوجيات عن أطرها البراديغمية الرئيسية وتطبيقها بشكل متطرّف على المجتمع بالتأكيد ستكون لها تداعياتها السلبية، فالمجتمع له سيكولوجية خاصة به وبراديغما خاصة به وأمزجة مختلفة لأفراده تتطوّر طبيعياً بتفاعلها مع البيئة المحيطة، وتلوينه قسراً بأيّ من تلك الأيديولوجيات سيأتي بنتائج غير مرغوبة في الكثير من الأحيان؛ كما ويستحيل إخضاع الطبيعة الاجتماعية لمعادلات علمية كما يرى المفكّر أوجلان[1] حيث يعتبرها ثقافة بذاتها ويصعب ضبط التطوّر الذهني لمجموع أفرادها، فهي برأيه حصيلة تطوّر تدريجي دام ملايين السنين وثمرة عالم عقلي وعاطفي مذهل؛ لذا فالمجتمع له ثقافة وميثاق مستقل، ويعدّ ترجمة عن كون الإنسان كائنًا اجتماعيًا بطبعه، كونه يستجيب لغريزة الإنسان في الدفاع الذاتي، وكلّ فرد طموح لا يجد أمنه الإنساني في مجتمع يقوده المتسلّطون، سينشقّ عنه إمّا بالهجرة أوبالتمرّد والانشقاق باعتناق التطرّف السلفي كردّ فعل، وهذا ما يؤكّد عليه الباحث (مصطفى حجازي)[2] حيث يقول "... تشيع السلفية بشقّيها (الرضوخ للتقاليد والأعراف، والاحتماء بالماضي وأمجاده) من الناحية النفسية بمقدار درجة القهر التي تمارس على إنسان العالم المتخلّف، وبمقدار إحساسه بالعجز والضعف والغلبة على أمره إزاء غوائل الطبيعة وعنت المتسلّطين، وهي لذلك أوالية دفاعية إزاء تحدّيات لا قِبَل له بها...فعندما يتعرّض إنسان العالم الثالث لغزومتسلّط لا يستطيع مجابهته وإيقاف اجتياح

[1] عبد الله أوجالان؛ مانيفستوالحضارة الديمقراطية (القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية؛ دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكيّ الإبادة الثقافية) / المجلد الخامس؛ ترجمة: زاخوشيار؛ الطبعة الثانية pdf/2014؛ بلا ناشر؛ ص57.

[2] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص103.

أرضه وكيانه وتراثه ورزقه، تبرز السلفية بوضوح كوسيلة حماية من خلال الانكفاء على الذات والرجوع إلى الماضي التليد..."، علماً أنّ الجماهير تحتفظ بانطباعات الماضي في شكل بقايا وآثار ذاكرية لاشعورية، تماماً كما يحتفظ به الفرد ويتسبّب ببروز حالة من الكبت، ويمكن للأحداث المؤثّرة في البيئة المحيطة أن تتسبّب بخلق انطباعات وعوارض تعمل على إيقاظ النوازع الدفينة في كيان الإنسان، وإضعاف قوة التركيز النفسي المضادة لبروز هذه النوازع بحسب التحليل النفسي([3])؛ من ناحية أخرى يعتبر الكثير من المفكرين الغربيين الليبرالية ضمانة لضبط التطرّف الديني والقومي في مجتمعاتهم، إلّا أنّ التعصّب في الليبرالية يؤسّس واقعاً متطرّفاً وشاذّاً عن الديمقراطية، فمثلاً لدى سؤال سيدة فرنسية كانت تعيش في محيط ليبرالي تام اعتنقت الإسلام وانضمّت إلى تنظيم داعش عن سبب فعلها، فكان مغزى جوابها أنّها كانت تفتقد إلى حماية المجتمع في المنطقة التي كانت تعيش فيها، حيث تعاطي المخدرات والتحرّش الجنسي واللامبالاة الاجتماعية، ووجدت في الإسلام منفذاً لها للخروج من بيئتها التعيسة والشعور بالدفء الاجتماعي، وتطوّر اعجابها بتجربتها في الانضمام لتنظيم داعش باعتباره صورة مثالية متطرّفة مناقضة لهذا الواقع، والتي وجدت فيه الراحة ورغبت بعولمته، ولكن ما يُحيّر في الأمر هولامبالاتها تجاه الانتهاكات الفظيعة التي ارتكبها التنظيم بحق المدنيين والأسرى وأصحاب المعتقدات([4]) الأخرى، الأمر الذي يجعل مستوى الصحّة النفسية مطروحاً لتفسير هذه الحالة، ونفس الأمر وبشكل مناظر نجد العشرات من حالات نجاح المبدعين المسلمين الذين يشتهرون بمجرّد خروجهم من بيئاتهم المتطرّفة والاستقرار في المجتمعات الليبرالية؛ وتزامناً مع حالة تلك السيدة نجد تنامي التيار المحافظ المتطرّف في البلدان الليبرالية. يبدوتطرّف ما يسمى باليمين المحافظ ردّ فعل أكيد تجاه الليبرالية، الذي يلغي المواثيق والروابط الثقافية، الاجتماعية والروحانية للفرد مع مجتمعه وماضيه؛ لذا تبدولليبرالية الطرف الذي يضعف من التطرّف، إلّا أنّ التطرّف في الليبرالية يمكن أن يخلق تداعيات لا تقلّ خطورة عن تداعيات التطرّف الديني، يبدوأنّ هناك حاجة إلى موازنة عقلية ووجدانية لهما.

من خلال رصد ظاهرة التطرّف في الأحداث التي جرت منذ المراحل التاريخية القديمة إلى تاريخنا المعاصر نجد صنفين من التطرّف؛ التطرّف المقترن بكلّ من الذهنية الذاتية المحافظة تجاه الهوية الإثنو- ثقافية وبالمقاومة والثورة ضد الأنظمة الاستعبادية، الاستبدادية والاستعمارية؛ والتطرّف المقترن بكلّ من ثقافة الكراهية والعقلية التآمرية وردّة الفعل المتوحّشة تجاه المخالف أوالمناقض للمعتقد؛ لذلك لا يمكن صياغة رؤية موضوعية شاملة للتطرّف ما لم يتمّ الأخذ بالحسبان

[3] سيغموند فرويد؛ موسى والتوحيد؛ ترجمة: جورج طرابيشي؛ الطبعة الرابعة- 1986م؛ الناشر: دار الطليعة للطباعة والنشر/ بيروت. ص131.

[4] المعتقد: تنظيم معين لتصورات المرء، وأفكاره، ومعلوماته، حول شيء محدد، كما يشتمل على العمليات المعرفية، والرأي، والإيمان... هناك معتقدات وجودية حول طبيعة المجتمعات ومعتقدات سببية تفسر الفروق بين الطبقات الاجتماعية ومعتقدات تقييمية بين ما هوجيد وما هوسيء ومعتقدات آمرة ناهية...
د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م. ص33.

هذين الصنفين كما يؤكّد عليه أحد الباحثين[5] بأنّه "... يتعيّن علينا التفريق بين الحركات التحرّرية التي تجتذب المتعصّبين والحركات التعصّبية الخالصة التي لا تضم سوى أناس مجروحين نفسياً، ويسعون لفرض الإرهاب لأجل الإرهاب، لإرهاب الآخر لجعله يعيش ما يعانونه هم أنفسهم...".
هذه الظاهرة تعدّ بشكل عام بمثابة الطاقة المعنوية المؤثّرة في عقيدة القتال لدى معظم الشعوب، وفي تحديد المبادئ التي تحدّد مسار العلاقات بين المجموعات البشرية، كما وتشكّل الرابطة التي تضمن تماسك الجماعة واستمرار وجودها، وسبباً لما تتعرّض له في حياتها الآنية والمستقبلية من ضنك ورخاء. في تاريخنا المعاصر أصبح مصطلح التطرّف مرادفاً للإرهاب الذي توصَف به الأعمال العنيفة التي تمارسها كلٌّ من التنظيمات الإسلامية المتشدّدة والتنظيمات القومية العنصرية (اليمين المتطرّف)، حيث يتمّ اتّهام التطرّف بكونه المحفّز الرئيسي على السلوك العنيف المؤدّي إلى القتل، فالأفكار المتطرّفة تولّد مشاعر متطرّفة تتحوّل إلى طاقة مفجّرة للعنف في حال قدح أحدهم شرارة فيها، وهذا ما يدفع إلى التريّث وإعادة النظر في هذا المصطلح، ففي الواقع هناك ملايين المتطرّفين من ثقافات مختلفة ومتنوّعة حول العالم، إلّا أنّهم لا يعتمدون العنف بشكل تلقائي لفرض وجهة نظرهم، حيث هناك ثقة عمياء وغرور بما يتمّ الاعتقاد به بالتزامن مع نظرة دونية تجاه أصحاب المعتقدات الأخرى، ودائماً ما يكونون في حالة الدفاع عن النفس في إثبات صوابية معتقدهم، إلّا أنّه هناك دائماً عوامل تسبّب الاضطراب لحالة الاستقرار النسبي القائمة، تتمثّل بشكل خاص بشخصيات محرّضة ذات عقلية ديماغوجية، ونفسية باراناوية، ونظرة سيكوباتية تجاه الآخرين المخالفين لمعتقدها، كلّ شخصية ذات طموحات سلطوية متقنة لفن الخطابة وتمتلك ذكاءً اجتماعياً نسبياً، يوهم صاحبها من حوله بكونه الناصح الأمين والحكيم الجليل، والعالم بخفايا المتآمرين على الجماعة، وهوالقائد المكلّف بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ويجد في كلٍّ من تجنيد المقاتلين والعنف أفضل وسيلة وأسهل طريقة للوصول إلى مآربه وفرض هيمنته المعنوية على الأتباع، ومن خلال رصد نشاط الجماعات المتطرّفة نجد أنّها تتبع لتعزيز جاذبيتها ووسائل إقناعها الخطب الدينية والمظاهر والطقوس والألقاب المتأسطرة المرتبطة بها، والتي تعمل من خلالها على إلهاء الفرد المستهدَف عن مشاكله وحياته العامة، بتحميل الآخرين من سلطة أوجماعات أوحتى ثقافات أخرى مسؤولية البؤس الذي يعيشه هوومجتمعه واستحضار الجانب المشرق من التاريخ، واعتبار العقيدة والعنف هما السبيل إلى كلٍّ من الخلاص الدنيوي من البؤس والفوز بالجنّة؛ تُعتبَر شخصية زعيم طائفة الحشاشين[6] (الحسن بن الصباح) الذي ظهر حوالي القرن الحادي عشر حالة مكثّفة لهؤلاء القادة، فالظلم الذي كان يمارسه أتباع سلاطين السلاجقة على عامّة الشعب خلق توتّراً في المناخ السياسي العام لديهم، وأفكاره الدينية ذات الصبغة الثورية والمتزامنة مع خضوع المؤسّسة الدينية الرسمية لهيمنة السلطة جذبت الكثير من الأتباع المخلصين؛ واتّخذ من عمليات الاغتيال بالخنجر المسموم استراتيجية للانتقام لتحقيق نوع من توازن الرعب مع مَنْ يعتبرهم أعداء له، سواء من أتباع مؤسّسات السلطة أومن الإقطاعيين الرافضين لهيمنته. لقد

[5] اندريه هاينال وآخرون؛ سيكولوجية التعصب؛ ترجمة: د. خليل أحمد خليل؛ الطبعة الأولى 1990؛ الناشر: دار الساقي/ لندن؛ ص44.

[6] برنارد لويس؛ الحشاشون/ فرقة ثورية في تاريخ الإسلام؛ ترجمة: محمد العزب موسى؛ الطبعة الثانية 2006م؛ الناشر: مكتبة مدبولي- القاهرة.

شكّلت نزعة الانتقام دافعاً لتبنّي المذهب الإسماعيلي وإنشاء تنظيم سرّي متعصّب لفكر (الحسن الصباح) الذي ألهم أنصاره بأنّهم منقذون وليسوا قَتَلة، وأنّ حياتهم الدنيوية لا قيمة لها مقارنة بالحياة الأخروية التي تنتظرهم، ويتطلّب انتصار قضيتهم العادلة بحسب وجهة نظرهم التضحية بالذات، بذلك استطاع تجنيد العشرات من الانتحاريين المتمرّسين على القتل، وشكّلت شجاعتهم وإيمانهم بقضيتهم طاقة جاذبة للكثير من المقهورين والساخطين في المجتمع في ذلك العصر، في هذا السياق يرى أحد الباحثين([7]) أنّ "... القائد السلطوي يلهم التعصّب لأنّ سلوك الخضوع حتى الأكثر شمولية يتجذّر في التبعية الجسدية لسلطة القائد... ينسلّ حسن (الحسن الصباح) إلى مشغل الله ليعيد صياغة الإنسان على هواه عبر كسر قالبه السابق ومحوعقله ليتحوّلوا الى آلات لخدمة قضيته، وتبدوتأويل الآيات المقدسة وتحريفها مناسبة لهذا الفعل وبعد ذلك السعي إلى السلطة..."؛ يعتبر عالم النفس (إيريك فروم)([8]) أنّ"...قوّة التبرير، أوهذا التزييف للعقل، هوإحدى الظواهر الإنسانية المحيرّة أشدّ الحيرة. ولولم نكن معتادين عليها هذا الاعتياد، لبدا لنا مجهود الانسان في التبرير مماثلاً لمذهب شخص مُصاب بجنون الاضطهاد (paranoid) فالشخص المُصاب بهذا الجنون يمكن أن يكون في غاية الذكاء، ومن الممكن أن يستخدم عقله استخداماً ممتازاً في جميع مجالات الحياة، اللهم إلّا في الجزء المنعزل الذي يتعلّق به جنون في الاضطهاد، والشخص الذي يقوم بالتبرير يفعل هذا تماماً..."؛ قد يكون الدافع إلى ذلك قناعات شخصية لفرض المعتقد الذي يتطرّف له على الجميع، بما يضمن منفعته الشخصية وقناعاته بالدرجة الأولى أوموجّهاً ومتحرّضاً من قبل أنظمة تسعى وراء الهيمنة على البلدان أوإبادة الشعوب، حيث يرى الباحث نعوم تشومسكي بخصوص التلاعب بمصطلح الإرهاب العالمي([9]) "... فهناك دائما هجوم إيديولوجي يؤدّي في النهاية لخلق وحش وهمي تعقبه حملات للتخلّص من هذا الوحش، وذلك أمر خطير جدّاً، ولكن إذا تأكّدت من أنّهم سيتحطّمون، فربما سنقضي على هذا الوحش ونتنفّس الصعداء..."؛ بشكل عام توفّر البيئات التي تنعدم فيها مقوّمات الأمن الإنساني الظروف المناسبة لدعم وتحقيق هذه الغايات.

استناداً إلى ما سبق يمكن أن نحدّد صنفين لهذه الظاهرة، التطرّف كوسيلة للدفاع الذاتي، والتطرّف كوسيلة لتمكين السلطة والهيمنة.

- **التطرّف كوسيلة للدفاع الذاتي.**

إنّ ظاهرة التطرّف بمفهومها العام الذي يتمحور حول التشدّد أوالتزمّت في تبنّي معتقدات معيّنة تشكّل إطاراً مرجعياً للقيام بسلوكيات خاصة بها، سواء أكانت مشحونة بطاقة عنفية أوبنزعة محافظة؛ ليس من الدقّة والموضوعية أن نحصر تقييمها كمظهر من مظاهر الشرّ؛ فأحياناً قد تكون

[7] برنار شوفييه؛ المتعصبون- جنون الإيمان؛ ترجمة: د. قاسم المقداد؛ الطبعة الأولى 2017م؛ الناشر: دار نينوى- دمشق. ص83-85.

[8] إيريك فروم- الدين والتحليل النفسي؛ ترجمة فؤاد كامل، الناشر مكتبة غريب- الإسكندرية؛ بلا رقم طبعة وتاريخ؛ ص54.

[9] ناعوم تشومسكي؛ السيطرة على الإعلام/ الإنجازات الهائلة للبروباجندا؛ تعريب: أميمة عبد اللطيف؛ الطبعة الثانية 2005م؛ الناشر: مكتبة الشروق الدولية- القاهرة؛ ص24.

ردّة فعلٍ طبيعية تجاه خطر يهدد ثقافة وأخلاق المجتمع، خاصة في ظلّ التطوّر الذي تشهده الحرب النفسية التي تشنّ على المجتمعات حول العالم، والكمّ الهائل من التضليل الذي يُروّج خاصة على وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي في تاريخنا المعاصر؛ فمثلاً، كثيراً ما يتمّ ربط الديمقراطية وحقوق الإنسان بالإباحية الجنسية أوبمظاهر تُعبّر عنها، وربط العلمانية بكلّ من الكفر والإلحاد، وربط التطوّر العلمي والتكنولوجي بجشع الرأسمالية، وربط المعتقدات الدينية بالإرهاب، وربط الانتفاضات الشعبية بنظرية المؤامرة([10]). قد تضطرّ بعض المجتمعات أن تنحونحوالتطرّف لمعتقداتها التي توارثتها عن أسلافها كوسيلة للدفاع عن هويتها الثقافية، فمثلاً فضّلت القبائل الإسرائيلية الهجرة([11]) على الذوبان في ثقافة الدول التي سيطرت على الجغرافيا التي تواجدوا فيها، كهجرتي إبراهيم وموسى، والآن يجتمع أحفادها تحت مظلّة ما تُسمّى بدولة إسرائيل، يجمعهم التطرّف لمعتقداتهم؛ هنا تبرز المواقف المتعلّقة بالتطرّف من خلال السلوك الذي تتبعه الجماعة، فيمكن أن تنغلق على ذاتها وتصبح أسيرة للدوغمائية بشكل نسبي، وقد تهاجر أوتنعزل في الجبال أوالجزر والبوادي أوالضواحي، أوأن تقوم بردّ فعل عنيف كتعبير عن التمسّك بالمعتقدات، وهذا ما نلاحظه لدى معظم الأقوام وبشكل خاص في الجغرافيا الكردستانية والعربية التي قاومت كلاً من المستعمرين والغزاة وعمليات الصهر والإبادة الثقافية، نجد ذلك لدى العشرات من المجتمعات في الهلال الخصيب، التي لا تزال تؤمن بمعتقدات قديمة تاريخياً أولا تزال تحافظ على لغتها وعاداتها وثقافتها على الرغم من تعرّضها لهيمنة أوبطش قوىً أكثر تطوّراً وقوّة منها، كالزرادشتية والسامرية والمندائية والإيزدية والدرزية والعلوية وغيرها.

يبدوأنّ التطرّف كطاقة معنوية ساهمت في انقاذ العشرات من الثقافات العريقة من الاندثار، ما من شأنه أن ضَمِن استمرار تدفّق تيّار الثقافة الإنسانية وتراكمها لدى الأجيال، حيث ساهمت في بعض الأحيان بالاستناد إلى مفهوم الديالكتيك في تطوّر العلاقات الاجتماعية وتعدّد الأنظمة السياسية والاقتصادية، وعلى المستوى العالمي تُعتبَر التجربة الاقتصادية والسياسية، اليابانية والألمانية، واحتفاظ العشرات من البلدان الأخرى بثقافتها نماذج يمكن الإشارة إليها في هذا السياق، حتى أنّنا يمكننا القول بأنّه لولا التطرّف في مختلف العصور التاريخية لاجتاح الغرب الشرقَ أولحدث العكس([12]).

حتى نصنّف التطرّف كوسيلة بنّاءة للدفاع الذاتي عن الوجود يشترط تحرّره من الدوغمائية وتحوّله إلى عاملٍ معزّزٍ لكلّ من روح المنافسة وإثبات الذات، ويقبل التعايش مع الآخر المناقض له في المعتقد في إطار ميثاق اجتماعي يلغي الاستبداد والتفرّد العقائدي في السلطة؛ بشكل عام إذا لم تتميّز كلٌّ من عقيدة القتال والعقيدة السياسية والقيم الأخلاقية للثقافة المجتمعية بالتشدّد فلا يمكن

[10] نظرية المؤامرة بحسب قاموس أكسفورد الإنجليزي هي "النظرية التي تفسر وقوع حدث معين أوحدوث ظاهرة ما بأنه ناتج عن مؤامرة بين أطراف ذات مصلحة."؛ للمزيد عن نظرية المؤامرة راجع: روب براذرتون؛ عقول متشككة/ لماذا نصدق نظريات المؤامرة؛ ترجمة: هاني فتحي سليمان؛ الناشر: مؤسسة هنداوي- 2017م؛ يورك هاوس- المملكة المتحدة؛ بلا رقم طبعة.

[11] للاطلاع على التحليل النفسي بخصوص هذا الأمر من المفيد مراجعة: سيغموند فرويد؛ موسى والتوحيد؛ ترجمة: جورج طرابيشي؛ الطبعة الرابعة- 1986م؛ الناشر: دار الطليعة للطباعة والنشر/ بيروت.

[12] للاطلاع على نموذج لهذا الرأي راجع: كلود كاهن؛ الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية؛ ترجمة: أحمد الشيخ؛ الناشر: سينا للنشر- القاهرة؛ الطبعة الأولى 1995؛

مجابهة التحدّيات والتهديدات التي يفرضها الخصوم والاعداء. من ناحية علم النفس يتمّ تفسير هذا الأمر بالشكل التالي([13]) " الأوجه الدفاعية للتمسّك بالتقاليد عديدة ومتنوعة، أبرزها التحصّن بتلك التقاليد لمجابهة غزومتسلّط خارجي. هذا المتسلّط يشكّل تهديداً كيانياً لمن يغزوهم في هويتهم القومية وتراثهم وانتمائهم ونظرتهم إلى الوجود... وإذا عجزت المقاومة المسلّحة يحتمي الشعب المقهور بالتراث والتمسّك بالتقاليد ضدّ الغزوالفكري والنفسي... وتخفّ حدّة التمسّك بالتقاليد ويزداد الانفتاح على عوامل التغيير والتحديث بمقدار الاطمئنان إلى القوة الذاتية، وبمقدار الشعور بالحماية وانخفاض حدّة التهديد الخارجي..."؛ لذا فإنّ التطرّف الدوغمائي التصادمي إذا جاز التعبير، والذي يُجرّم الآخر المتواجد في خارج حدوده الفكرية يشكّل كارثة إنسانية حقيقية، كونه يحرّر الغرائز المتوحّشة تجاه العدوالمفترض، حتى لواعتمد الذي يتبنّى هذا التطرف على الديالكتيكية لتطوير عقيدته فإنّ الجدال والنتيجة والحقيقة ستكون محصورة في قالب عقليته الضيّقة ومتبلورة بقناعاته، كمثال التطوّر الذي شهده التطرّف الديني في أيديولوجية القاعدة من قبل مفكّري تنظيم داعش.

- **التطرّف كوسيلة لتمكين السلطة.**

كثيراً ما يتمّ استغلال التطرّف براغماتياً بغرض الهيمنة على مشاعر وقناعات أشخاص لتوجيهها في سبيل فرض سلطة ما تضمن القوة والثروة وإشباع النزوات، حيث يتمّ عبر الديماغوجيا تشبيك عولمة التطرّف مع نظرية المؤامرة. بشكل عام هناك اتجاهان لهذا الصنف من التطرّف، الاتجاه الأول يتعلّق بانشقاق مجموعة ما عن ميثاق جماعتها واعتماد منهج أكثر تطرّفاً كانشقاق داعش عن القاعدة، وذلك انطلاقاً من نظرة راديكالية ورجعية بهدف إقامة دولة خلافة إسلامية من وجهة نظرها، يبدوأنّ اعتراض البعض لسلطة آخرين داخل التنظيم دفعهم لتبنّي منهج أكثر تطرّفاً لبلورة سلطة خاصة بهم، وجذب العشرات من المتطرّفين الآخرين والمؤمنين بنظرية قطع الرؤوس لإرهاب الخصوم، وبالفعل نجحوا في ذلك بشكل نسبي؛ وتمّت إقامة دولة وتسمية خليفة لها إلّا أنّها لم تدم طويلاً بسبب ضعف متطرّفي داعش أمام قوة تطرّف المجتمعات المحلية لثقافتها وقيمها الأخلاقية ليتمّ إسقاطها، ويتّضح أنّ محاولة عولمة التطرّف الداعشي كمحاولة مَن يسبح في بحر من الأوهام لم يجلب هياج أمواجه سوى الخراب والدمار والموت.

أمّا الاتّجاه الثاني فيتمثّل بتكاتف المتطرّفين لتشكيل جماعة ما داخل البلاد وتنسيق جهودهم لفرض سلطتهم عليها، ومعاداة كلّ مَن يخالف معتقدهم، تبدوجماعة الإخوان المسلمين أفضل مثال يمكن الإشارة إليها في هذا السياق، فمع ربيع النهضة القومية العربية ومقاومة الدول الاستعمارية في مصر وإعلان تأميم قناة السويس وباقي الموارد الوطنية برزت هذه الجماعة لمناهضة الدولة العلمانية العربية، وشكّلت هذه الجماعة منفذاً للقوى الاستعمارية لضرب إرادة الشعب المصري في فترة حرب السويس 1958م، ويبدوأنّ التاريخ يعيد نفسه مع الفشل النسبي لمعظم انتفاضات الشعوب العربية بعد عام 2011م في كل من سوريا ومصر وليبيا وتونس وغيرها.

[13] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص107.

لقد كان ولا يزال للمتطرّفين الإسلاميين دورًا في الأزمات التي تعاني منها كلّ من أفغانستان والعراق وسوريا ولبنان وإيران والتي فاقمتها التدخّلات العسكرية لبعض القوى الكبرى فيها، حيث تحوّلوا إلى ذرائع لفرض الحصار أوالاحتلال ونهب الثروات واستغلال جغرافية البلدان لتعزيز قوّتهم العسكرية تجاه خصومهم.

تشكل الجماعات المتطرّفة المتبنّية للجهاد العنفي عوامل أساسية في الأزمات التي تعاني منها شعوب كلٍّ من وسط وجنوب وغرب آسيا، وكلٍّ من وسط وشمال وشرق إفريقيا، وتمكّن البعض منها من نقل عنفها إلى أوروبا وأمريكا، وأصبحت عائقاً أمام تحقيق الديمقراطية والتنمية والاستقرار، بدليل فشل انتفاضات شعوب كلٍّ من إيران والدول العربية في تحقيقها؛ بسبب فرض هذه الجماعات لعقيدتها السياسية والدينية على الجماهير المنتفضة؛ هناك من يستحضر نظرية المؤامرة في تنامي قوّة هذه التنظيمات، إلّا أنّها في حقيقة الأمر موجودة على أرض الواقع أفرزتها السياسة الاستبدادية للأحزاب والأوليغارشيات المتسلّطة على رقاب الشعوب، فدعواتها الراديكالية لهدم نظام الحكم القائم وإقامة دولة إسلامية أودولة قومية- إسلامية من شأنه أن يدعم مزاعمها بسعيها لانتشال الشعوب من بؤسها وقهرها، ويحقّق لها الكرامة والأمن الإنساني، وذلك بالاستناد إلى خطابات شعبوية تبرز حصراً الجانب المشرق من الحضارة الإسلامية بخصوص بعض القضايا والأحداث التاريخية في سيرة بعض القادة والقضاة، والتي تخلّلتها عدالة أونجاحات نسبية وتعميمها على مدار 1400 سنة من الصراعات والحروب بين المسلمين من جهة وبين المسلمين وأصحاب المعتقدات الأخرى من جهة أخرى، ويكاد معظم المعتنقين للديانة الإسلامية يبجّلون هذا الماضي الذي يمتلك توصيفات عديدة ومختلفة أحياناً بحسب تأويلات الطائفة التي تستحضره، وذلك كتعبير عن ردّ فعل عاجز عن مضاهاة التطوّر الهائل الذي تشهده العشرات من البلدان غير المسلمة وبشكل خاص الدول الغربية، هذا الأمر لا يقتصر على المسلمين بل يتعدّاه إلى أصحاب المعتقدات الأخرى، فلكي يبعد الإنسان عن نفسه تهديد انعدام قيمة الذات يتوجّه إلى الاحتماء بالقيمة المعنوية التي كان يتمتع بها أسلافه في الماضي، وكأنّه هروب خيالي من واقع غير مرغوب به إلى ماضٍ تمّ طمس عثراته والمبالغة في تضخيم حسناته، ويجد نفسه ملزماً باستعادة هذه الأمجاد في المستقبل القريب، يبدوأنّ الاحتذاء بأمجاد الأسلاف ترفع من الروح المعنوية التي تستنهض الهمم واستعادة شيء من الثقة بالنفس([14]). هنا تتعزّز النزعة الراديكالية لدى التنظيمات المتطرّفة إلّا أنّ فشل تجربة طالبان سابقاً والقاعدة وفروعها من داعش وغيرها أثبت عدم واقعية هذه النزعة في تحقيق السلام والأمان للعالم وللمسلمين بالدرجة الأولى.

من ناحية أخرى يشكل التطرّف المذهبي أيضاً وسيلة لتمكين السلطة، وهذا ما يتم ملاحظته لدى أبرز دولتين إسلاميتين، إيران والسعودية، فحَميّة التنافس المذهبية والاتّهامات التكفيرية المتبادلة شحن مشاعر الأتباع في كلتا الدولتين بكراهية وأحقاد وبتطرّف كبير للمعتقد الذي يتبنّاه كلّ طرف، وأفرزت تداعيات فظيعة كما في حرب اليمن والأزمة التي يعاني منها كلّ من العراق وسوريا ولبنان، فهناك تصاعد دائم لعسكرة المجتمعات المتعاطفة مع كلّ معتقد ووضعها في حالة استنفار

[14] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص109.

قتالي، وأصبح الأمن الإنساني لكلّ طرف مقترناً بعدم الوقوع تحت هيمنة الطرف الآخر، وبنفس الوقت الحفاظ على نظام الحكم القائم كضمانة لاستمرار المقاومة وإضعاف عقيدة الطرف الآخر، يبدوأنّ الدولة التركية الحالية تتّخذ من هذا المسار استراتيجية لها أيضاً؛ حيث يحاول حزب العدالة والتنمية بزعامة أردوغان إقامة منظومة أمنية- أقتصادية عالمية بالتحالف مع جماعة الإخوان المسلمين ومشيخة قطر، مع محاولة استقطاب بعض الجماعات السلفية المتشدّدة الشيشانية والإيغورية والداعشية والسورية.

يؤكّد مراكز (RAND) للأبحاث في دراسة له([15]) على أنّ المساجد والحسينيات تلعب الدور الأبرز في الدعاية الدينية وتشكيل الاستجابات والمواقف العامة للصراع في كل من سوريا والعراق، والذي تحوّل إلى حرب دينية على طول خطّ الصدع الطائفي بين السنة والشيعة، ويعتبر المركز أنّ([16]) " قوّة حزب الله والجهاديين السُنّة في المنطقة وتوسّع نطاق نفوذهم تحوّلوا إلى منتصرين وأبطال ومنقذين زاد من التعاطف معهم والتعصّب لهم.... والأزمة وفّرت فراغاً تسلّلوا منه للحصول على تأييد بعض الشرائح السكانية في سوريا من خلال توفير خدمات الرعاية الاجتماعية وعزّزوا مكاسبهم الإقليمية...". يبدوأنّ هذا الأمر يعتبر نسبياً تكراراً تاريخياً للصراع في الشرق الأوسط بين الفرس والفراعنة، وبين الساسانيين والرومان وفي الفترة الممتدّة من نشوء الدولة الأموية إلى فترة الحروب الصليبية، ولم تكن أوروبا بمعزل عن هذ الأمر خاصة في فترة الحروب الدينية في القرن السادس عشر ولاحقاً في فترة الحرب العالمية الأولى، وهناك العشرات من الأحداث الأخرى التي لا يسع هذا البحث استيعابها جميعاً. في هذا السياق يقول عالم النفس إيريك فروم ([17]) "...أنّ مأساة الأديان العظمى جميعاً أنّها تنتهك مبادئ الحرية وتفسدها في اللحظة التي تتحوّل فيها إلى مؤسسات جماهيرية تهيمن عليها البيروقراطية الدينية. فالمؤسّسة الدينية والرجال الذين يمثّلونها يأخذون إلى حدّ ما مكان الأسرة والقبيلة والدولة. وهم يحتفظون بالإنسان مغلولاً بدلاً من أن يتركوه حرّاً. فلم يعد الله هوالذي يُعبَد، بل الجماعة التي تدّعي الكلام باسمه. حدث هذا في جميع الأديان..."، يعتبر هذا الباحث أنّ التزمّت الفكري والعاطفي ليس حكراً على الدين بل يتعدّاه إلى المواقف السياسية التي تتحوّل إلى مثابة ديانة أخرى يتمّ التزمّت لها حيث يقول([18]): "إنّ الشخص الذي يكرس نفسه تكريساً تامّاً للدولة أوالحزب والذي يجعل من العَلَم بوصفه رمزاً لجماعته موضوعاً مقدّساً، مثل هذا الشخص الذي يعتنق ديناً قبلياً ويتعبّد عبادة طوطمية وإن اعتقد أنّه يعتنق مذهباً عقلياً لا غبار عليه... والتعصّب للوطن والزعماء والاستعداد للتضحية في سبيلهم تعبّر عن نزعة طوطمية والصبغة الدينية التي يتّسم بها توجههم وهذا شكل آخر من أشكال الدين الشخصي... واشتراك عدد كبير من الناس في المعتقد يعطي الفرد شعوراً

[15] ويليم يونغ وآخرون؛ امتداد الصراع في سوريا/ تقييم للعوامل التي تساعد وتمنع انتشار العنف؛ الناشر: مركز RAND / 2014م؛ ص42.

[16] نفس المرجع السابق؛ ص53.

[17] إيريك فروم؛ الدين والتحليل النفسي؛ ترجمة فؤاد كامل، الناشر مكتبة غريب- الإسكندرية؛ بلا رقم طبعة وتاريخ؛ ص78.

[18] نفس المرجع السابق؛ ص34.

بالاتّحاد مع الآخرين، وقدراً معيّناً من الأمن والاستقرار يفتقر إليه الشخص العصابي[19]. وما من شيء لا إنساني أوشرير أولا معقول لا يمنح شيئاً من الراحة إذا اشتركت فيه الجماعة..." وبالتالي فإنّ التطرّف للمذاهب الدينية والأيديولوجية خلق عشرات الديانات والآلهة، على الرغم من انتمائها الظاهري لدين أولمنهج فكري معيّن، فتقديس المفاهيم تحوّلها إلى ديانة يشمل تأثيرها كافّة جوانب حياة الانسان؛ وكلّ مذهب يختلف عن الآخر يعني وجود إله مختلف معنوياً في كلّ واحد، بمعنى أنّ لكلّ معتقد متطرّف إلهه الخاص به سواء أكان بشرياً أوروحانياً أواسطورياً، ويتماهى المتطرّفون في شخصيته التي صاغها وعيهم الجمعي، ويصبح المتطرّف في هذا الإطار أداة لخدمة أغراض ورغبات الآخرين، ولا يعمل أويعيش لذاته ويتحمّل قسوة الحياة وبؤسها، ولا يعلم بأنّه ضحية ويعمل على استلاب حياة الآخرين المخالفين للمعتقد بالعنف المادي والمعنوي.

في التاريخ القديم، حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، جرت محاولات لتسييس العلم إذا جاز التعبير، وظهرت حالة من التطرّف سُميّت بالتعصّب الفيثاغورثي[20] نسبة إلى عالم الرياضيات المشهور فيثاغورث، الذي أسس جماعة يرتكز معتقدها على المبالغة في تبجيل مكانة العقل والإنسان الذي يحكم عقله في القضايا بدلاً من العاطفة، ويسعى لخلق مجتمع من دون وهم وخاضع للعقل، وانتهج الأتباع العنف والقسوة لتطبيق معتقدهم على المجتمعات الإغريقية- الإيطالية في تلك الفترة، وقد بلغت درجة التطرّف لهذا الجماعة إلى الحدّ الذي اعتبروا فيه فيثاغورث تجسيداً لإله النور ووسيطه إلى عالم البشر "... إنّه نوع من التعصّب يمارَس باسم العقل الشامل... والمعارض هونصير الضلال يتوجّب استئصاله...". نلاحظ ممّا سبق تطرّفاً في المعتقدات الروحانية والعلمية والسياسية، الأمر الذي يتطلّب تقييماً دقيقاً للتركيبة النفسية والعصبية للفرد والمجتمع لإدراك هذه الظاهرة بشكل أدقّ.

مع التطوّر الكبير الذي تشهده العلوم العسكرية وبروز مفاهيم جديدة لاستراتيجيات الصراع كاستراتيجية المنطقة الرمادية[21]، والحرب الهجينة، والحرب بالوكالة من خلال تقاطع المصالح

---

19 العصاب((Neurosis هونوع من أنواع الخوف الذي يؤدي إلى اضطراب في الشخصية والتوازن النفسي. وهواضطراب عصبي وظيفي غير مصحوب بتغير بنيوي في الجهاز العصبي. ترافقه في كثير من الأحيان أعراض هستيريا، وحصر نفسي، وهواجس مختلفة... يعاني الشخص الذي يعاني من عصاب غالباً من اكتئاب، خوف، غياب الشعور بالعواطف والأحاسيس، غياب الاتزان النفسي والعاطفي، القلق والوساوس والشكوك التي لا أساس لها....

20 برنار شوفييه؛ المتعصبون- جنون الإيمان؛ ترجمة: د. قاسم المقداد؛ الطبعة الأولى 2017م؛ الناشر: دار نينوى- دمشق؛ ص59.

21 استراتيجية المنطقة الرمادية، تعبير مجازي عن منطقة غامضة بين الحرب والسلام أي المسافة الواقعة بينهما، تنفذ فيها أنشطة تعتبر ظاهرياً أعمال حرب ولكنها من الناحية القانونية ليست أعمالاً حربية أي لا تصل إلى مستوى الصراع المسلح المباشر، تستخدم الدول وكلاء لتنفيذ أعمال في المنطقة الرمادية أي أعمالاً عدوانية غامضة يمكن إنكارها، وتشكل حاليا الشكل السائد للصراع في العالم ويندرج فيها الهجمات الإرهابية والهجمات الإلكترونية والحرب النفسية والطائرات المسيرة والإرهاب الاقتصادي والمائي والقرصنة البحرية...إلخ. يتم الرد بشكل لا يتحول إلى التصعيد من خلال الدبلوماسية والإعلام والاقتصاد واستعراض القوة العسكرية أوالمعاملة بالمثل.

بحسب مركز RAND هونزاع بارد أي نزاع غير فعلي محدد الموقع بل نزاع محدد يتعلق بالأفكار بين السلم والحرب وسمي بذلك نظراً إلى أن أولئك الذين يستخدمون مثل هذه التكتيكات يرغبون في تحقيق أهدافهم من خلال الجمع بين الأصول العسكرية والمدنية لتنفيذ هجمات قابلة للإنكار دون أن تعاني عواقب أفعالها... سكوت دبليوهارولد وآخرون؛ التحالف الأمريكي الياباني ومواجهة ضغوطات النزاع البارد (المنطقة الرمادية) في مجالات البحر والفضاء الإلكتروني والفضاء الخارجي؛ الناشر: مركز RAND- 2017؛ الرابط:

مع تجنيد المرتزقة، تحوّلت الجماعات المتطرّفة إلى فواعل رئيسية في الصراع الدولي، فمثلاً الانسحاب الأمريكي من أفغانستان في النصف الثاني من عام 2021م فرض معادلات جديدة للصراعات في آسيا الوسطى، ومنحت مجالاً جديداً للغرب في مواجهة خصومها التقليديين في الشرق، الصين وروسيا وإيران والجماعات الإسلامية الراديكالية، حيث من المتوقّع أن تتحوّل هذه البلاد الغنية بالغاز والثروات المعدنية وذات الموقع الجيوسياسي المهمّ مرة أخرى إلى ساحة صراع على الهيمنة بين الجماعات المتطرّفة، لفرض سلطتها كحركة طالبان والقاعدة وداعش وغيرها من جهة وبين الدول المجاورة من جهة أخرى، خاصة باكستان وإيران والصين التي يواجه أمنها القومي تهديدات ذات نزعة دينية على حدودها مع أفغانستان، وتجد كلٌّ من إيران وروسيا وحلفائها في هذه المنطقة تهديدات مماثلة، يبدوأنّ تطرّف هذه القوى في عقيدتها السياسية ستعزّز الفوضى الخلّاقة، الأمر الذي سيسمح للدول القوية بتمكين هيمنتها وضمان مصالحها على حساب معاناة الشعوب الأخرى. يبدوأنّ الشعب الأفغاني سيبقى محكوماً بالقهر والبؤس لعشراتٍ من السنوات الأخرى.

استناداً إلى ما سبق وكون التطرّف طاقة معنوية يمكن تقييمه بشكل إيجابي في حال كان موجّهاً للدفاع عن الثقافة المجتمعية المؤطّرة بالقيم الأخلاقية والنابذة لعقلية الكراهية وتحقير الآخر، ووسيلة للحفاظ على الهوية الإثنو-ثقافية للفرد، وتحرّض على روح المنافسة لبلوغ مستوىً أفضل من الآخرين في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية، دون الاعتماد على العنف الذي يجب أن يكون محصوراً في حالة الدفاع عن النفس فقط؛ أي أن يخدم المجتمع لتحقيق أمنه الإنساني، لا أن تحوّله إلى أداة لتنفيذ مآرب قوىً أخرى لا تملك نوايا خيّرة لا تجاه ذلك الإنسان المقهور والمتطرّف الذي تحاول تجنيده ولا تجاه شعوب البلدان الأخرى. وعندما يتحوّل التطرف إلى توحّش فإنّه يصعب تلافي تداعياته الخطيرة على الإنسان والبيئة؛ حيث يرى الباحث (مصطفى الحجازي) ([22]) "... إنّ مصلحة الإنسان المقهور بالضبط في مقاومة التعصّب والانجراف في موجات الفاشية والتصدّي لها، فالعنف الفاشي والمتعصّب لا يحمل سوى وهم الخلاص، إنّه حلّ سحري وانتحاري في آن معاً...".

بشكل عام يُعتبَر التطرّف الطاقة المؤجّجة للصراعات التي يشهدها العالم بين كل من الدول والتنظيمات المختلفة، سواء أكان هذا التطرّف كوسيلة لتمكين السلطة أوكوسيلة للدفاع الذاتي وفقاً لقانون الفعل وردّ الفعل، يبدوأنّ تفاعل هذين الصنفين من التطرّف من وجهة نظر الديالكتيك سيؤدّي إلى ظهور براديغمات جديدة، كبراديغما الأمّة الديمقراطية التي طرحها المفكّر عبد الله أوجلان والتي حقّقت نجاحاً نسبياً في حماية المنطقة من تصادم التطرّفين أوبروز المزيد من التطرّف؛ هنا قد يجد المرء صعوبة في تفسير هذا الأمر، هل هذا الأمر قانون من قوانين الطبيعة؟ أم هي حالة فوضى تسبّب بها الجنس البشري في كيان الطبيعة؟؛ كما أنّ مسألة التفريق بين الدفاع

---

https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/conf_proceedings/CF300/CF379/RAND_CF379z1.arabic.pdf

[22] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان؛ ص181.

الذاتي وبين تمكين السلطة في ظاهرة التطرّف أحياناً تبقى قضية معقّدة إلى درجة كبيرة، فمثلاً عمل السلطان عبد الحميد بحسب ما ورد في مذكّراته[23] على إثارة النزعة الإسلامية المتطرّفة بين المسلمين للحفاظ على سلطته ومقاومة مطامع الإنكليز والروس والفرنسيين في الفترة التي شهدت تنامياً للنفوذ الماسوني داخل السلطنة العثمانية، إلى الدرجة التي وصل فيها أحد الماسونيين الأتراك ويُدعَى (مدحت باشا) إلى منصب الصدر الأعظم[24] بالتزامن مع صراع ديني متطرّف بين كلٍّ من الروس الأرثوذكس والإنكليز الانجليكانيين والفرنسيين الكاثوليك والأتراك السُنّة. في حين يفسّر الباحث ممدوح عدوان في كتابه (حيونة الإنسان) الغرائز العدوانية لبعض قبائل الهنود الحمر بسبب التطرّف لمعتقداتهم؛ لكونهم مُطارَدون ومهدّدون بالإبادة بعد أن سلب الغزاة أراضيهم، وفرضوا عليهم القوانين والعادات الغريبة عنهم وعن تقاليدهم، فالهنود كانوا بشراً يرقصون ويعشقون أولادهم وجيرانهم وقطعانهم، وحين جابهوا المستعمر وجدوا أنفسهم مضطرّين للدفاع عن كيانهم بعدوانية مفرطة، ليتحوّلوا في نظر المستعمرين إلى عدوانيين ومتوحّشين، لتتمّ معاملتهم معاملة تدجين (الحيوانات) وفق ثقافة المستعمر؛ بغرض التخلّص من الغرائز العدوانية "...ولكن لانعرف ماذا نسمّي غرائز المستعمرين والمستوطنين البيض الذين اقتحموا عالمهم وأبادوهم..."[25]، أمّا في دراسة بعنوان (سيكولوجية التعصب) يشير الباحث[26] إلى مايلي "... ويظنّ المتعصّبون من خلال توهّمهم باكتشاف المطلق وما فوق البشري، أنّهم أمسكوا بالحقيقة التي تمنحهم كلّ العلم كلّ القوة والسلطان والعصمة وكلّ أشكال التفوّق على البشر... ويترافق الشعور بالقدرة الكلّية مع حماس نرجسي وتمجيد لفكرة الانتماء إلى هذه الجماعة ممن اصطفاهم الأزل أوالتاريخ. ويمكن لهذا الاصطفاء النخبوي أن يضمّد قلق أفراد قسَت عليهم الحياة ولم يحظَوا بنصيب وافر من الأمن... حيث توجّه العدوانية نحوعدوّ... والمتعصّب يجد الأمن وسيلة اطمئنان في المنظومة التعصّبية التي يوظّفها كاعتقاد، وهذا الاطمئنان يتضمّن هذياً، فهويبدّل منظومة القيم ويمنحه الإذن بإطلاق غرائزه (العدوانية وأحياناً الجنسية أيضاً) بفضل يقينه بأنّه مالك الشريعة أوالقانون...". من خلال هذه الآراء نجد تداخلاً لظاهرة التطرّف مع كلٍّ من الصراع بين ثقافات متناقضة والصراع في سبيل تمكين السلطة والهيمنة والصراع بين مشاعر وعواطف الإنسان، إلى الدرجة التي ربط فيها الباحث في علم النفس برنار شوفيه-أستاذ معهد علم النفس المرضي في جامعة ليون- السلوك الإرهابي بالتطرّف بشكل وثيق[27] حيث يرى أنّ "...الإرهابي بالمعنى المحدّد للعبارة يعني المتعصّب المقتنع جدّاً بصدق أفكاره، والمستعدّ لاستخدام العنف من أجل نقلها على الآخرين أوفرضها عليهم، وينسى الوسائل في سبيل الغايات... إذ لا ينظر إلى الضحية

---

[23] للمزيد راجع: مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني. تقديم وترجمة: د. محمد حرب؛ الناشر دار القلم- دمشق؛ الطبعة الثالثة/ 1991م.

[24] نفس المصدر السابق، ص107.

[25] ممدوح عدوان؛ حيونة الإنسان؛ الطبعة السادسة 2016؛ الناشر: دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع- دمشق؛ ص56.

[26] اندريه هاينال وآخرون؛ سيكولوجية التعصب؛ ترجمة: د. خليل أحمد خليل؛ الطبعة الأولى 1990؛ الناشر: دار الساقي/ لندن؛ ص9-10.

[27] برنار شوفييه؛ المتعصبون- جنون الإيمان؛ ترجمة: د. قاسم المقداد؛ الطبعة الأولى 2017م؛ الناشر: دار نينوى- دمشق؛ ص99.

المستهدفة بوصفها سيّئة تبعث على الكراهية أوالاحتقار، بل أصبحت كائناً ضارّاً بذاته مجرّداً من إنسانيته وماهية مشيئة لا بدّ من إبعادها لأنّها تعيق إنجاز مشروع عظيم...".

إنّ ما تمّ ذكره يدفعنا إلى البحث عن العوامل والوسائل المولّدة للتطرّف، النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لاستبيان علاقته بكلّ من العنف والبحث عن الأمن الإنساني؛ وهذا ما يهمّنا للوصول إليه بالدرجة الأولى، فمن خلال فهمنا للمسار التاريخي لتطوّر هذه الظاهرة نلاحظ أنّ التطرّف يؤدّي إلى القتل في مستويات شاذّة من قوانين الطبيعة، أي ليس فقط في سبيل الدفاع عن الوجود المادّي، وإنّما الدفاع أيضاً عن الوجود المعنوي وتحطيم الآخرين معنوياً بغرض الهيمنة عليهم واستعبادهم بأيّ شكل من الأشكال؛ فكما تتمّ إبادة قومية ما بالقتل والاغتصاب والسبي والاستعباد في المستوى المادّي، يحدث أمر مشابه في المستوى المعنوي، فهناك ارتباط وثيق بين الوجود المادّي والمعنوي في غريزة البقاء لدى الإنسان، وهذا ما يدفعنا إلى اعتبار التطرّف سلاحًا معنويًّا لمواجهة أخطار معنوية، ويتمّ تحريره من خلال السلوك العنيف بإسقاطه على الآخرين كممثلين للشرّ على الأرض، نحن هنا أمام ظاهرة تضرب جذورها في تاريخ السلالات البشرية عندما تغتصب الثقافة من قبل ثقافة أخرى لولادة سلالة ثقافية تحمل دماء الثقافة الغاصبة، كما أنّ استعباد الثقافة تجعلها تخدم ثقافة الغاصب، كمثال السماح باحتفاظ الشعوب المنهزمة بعباداتها مقابل جزية وخدمات عسكرية أوالاعتناق الجزئي لثقافة الغاصب.

العوامل المولّدة للتطرّف.

ظاهرة التطرّف تعوم على خليط مضطرب من العواطف الروحانية وغريزة العنف وجروح الذات النرجسية، والانفعالات المتعلّقة بتأمين الحاجات الفيزيولوجية والمشاعر المتقولبة أوالمتماهية بمساعي الإنسان في رحلة بحثه الصعبة عن القوة والغذاء والتناسل المُنقادة بغريزة البقاء؛ وبما أنّ ظروف الزمان والمكان غير متماثلة لدى جميع البشر، فإنّ هيجان هذا الخليط يتّخذ درجات متفاوتة من إنسان إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى تبرز من خلال سلوكه وأحاديثه وأفكاره؛ بشكل عام تُخلَق ظاهرة التطرّف بمجرد اتّخاذ الإنسان لمجموعة متماسكة ومتناسقة من الأفكار والمبادئ- يُطلق عليها في علم الاجتماع السياسي اسم أيديولوجيا- دستوراً لحياته وحياة كلّ مَن يخضع لسيطرته مادّياً ومعنوياً كأب أوكزعيم أوككاهن أوكقائد...إلخ وتتحوّل إلى منهج لجماعة من الأفراد المشتركين في هذا الدستور، يبدوأنّ هذا الأمر يعدّ أحد التعابير لمفهوم ثقافة القطيع([28]). يبدأ التطرّف برفض فكرة التخلّي عن المعتقَد، ويزداد التطرّف بازدياد الدفاع عن القناعات والإصرار على كونها حقيقة راسخة، ينتهي الوجود أوتتحقّق الهزيمة المخزية بمجرّد زوال هذه الحقيقة النسبية. من ناحية يصعب تحديد فيما إذا كان التطرّف يبدأ من الفرد ويتضخّم في مستوى الجماعة، أم أنّه يبدأ من الجماعة ويتضخّم في مستوى الفرد، الأمر الذي يعني وجود تأثير متبادَل بين الفرد والجماعة في نموهذه الظاهرة التي يمتد تأثيرها إلى البيئة المحيطة.

[28] ثقافة القطيع هومصطلح يطلق على سلوك الأشخاص في الجماعة عندما يقومون بالتصرف بسلوك الجماعة التي ينتمون لها دون كثير من التفكير اوالتخطيط..

هنالك العديد من العوامل والوسائل المولّدة للتطرّف يصعب تحديدها أوتفسيرها في مجال أوصنف واحد، خاصة أنّ الكثير من الباحثين الغربيين أوجدوا علاقة وثيقة بين التطرّف والإرهاب، واعتبروها شكلاً من أشكال صدام الحضارات وعدواناً على القيم الغربية التي ليس لها مثيل باعتقادهم، وكأنّهم يرغبون أن يبدوالأمر كتجسيدٍ للصراع بين الحضارة والبربرية بغضّ النظر عن سياسات دولهم تجاه المجتمعات التي يأتي منها (الإرهابيون) بحسب وصفهم، بينما نجد في ثقافة مجتمعات أخرى تمجيداً لأعمالهم كتجسيد للثورة ضدّ الطغيان. لذا ولتحقيق نوع من الدقّة النسبية في هذا الأمر فمن المفيد تناول هذه العوامل في كلّ من مجالات التحليل النفسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي، وكلّ مجال بحدّ ذاته يلعب دوراً في بلورة هذه الظاهرة بشكل أحادي أوبمشاركة تأثير مجال آخر أوأكثر من تلك المجالات. ما يهمّنا أيضاً البحث في التطرّف المقترن بالكراهية والحقد المؤدّي إلى العنف، والذي تحوّل إلى مفهوم عام لما بات يُسمّى بالإرهاب الذي يمتلك تعاريف متعدّدة ومختلفة، إلّا أنّه بمقاربتها ومقارنتها نجده تعبيراً سلوكياً ومعنوياً عن حالة براغماتية مبالغة بها من الجريمة السياسية([29]) أوفقدان القدرة على ضبط الغريزة العدوانية بعد تحرّرها من قيودها الأخلاقية والاجتماعية، أمّا الأعمال المكرّسة حصراً لإرهاب المستبدّين والمستعبِدين بشكل مباشر فيمكن اعتبارها مقاومة مشروعة، وقد يكون هذا ما لا يرفضه أيّ باحث سواء أكان من الشرق أومن الغرب في حال تعرّض أمنه الإنساني والأمن الوطني في بلاده للخطر.

1. العامل النفسي.

من الشروط الواجب توافرها حتى يكون الإنسان قادراً على التكيّف مع بيئته المحيطة ويضمن بقاءه، التمتع بنوع من التوازن الوجداني أوتوازن في المشاعر والعواطف بنسب متناسبة، فمثلاً النرجسية على الرغم من النظرة السلبية إليها إلّا أنّها ضرورية بنسبة ما ليتمكّن المرء من تقدير ذاته وامتلاك الثقة بالنفس، إلّا أنّ اختلال هذه النسبة، زيادة أونقصانًا، قد يتسبّب بتهوّر صاحبها والتسبّب بأذىً معنوي ومادّي، ونفس الأمر بالنسبة للعدوانية والخوف والتواضع والتعصّب...إلخ، فهناك ارتباط وثيق بين الوجود المادّي والمعنوي في غريزة البقاء لدى الإنسان، حيث يشير الفيلسوف الإنكليزي جيرمي بينثام في هذا السياق إلى أنّ الينابيع التي تفجّر الأفعال لدى الناس أوتحرّكها عددها أربعة عشر ينبوعًا([30])، وهي المتعة عامّةً، والرغبة الجنسية، والثروة، والسلطة، والفضول، والصداقة، والدين، والتعاطف، والمقت، والكراهية، والنفور، والمصلحة الشخصية،

---

[29] هناك تعريف للجريمة السياسية يشير إلى أنها "الجريمة التي يكون الباعث الوحيد منها محاولة تغيير النظام السياسي أوتعديله أوقلبه. ويشمل النظام السياسي استقلال الدولة وسلامة أملاكها وعلاقاتها مع الدول الأخرى، وشكل الحكومة ونظام السلطات وحقوق الأفراد السياسية، فكل تعدّ مباشر على هذه النظم يكون جريمة سياسية" للاطلاع على المزيد عن مفهوم الجريمة السياسية في هذا السياق، من المفيد مراجعة مايلي:
الموسوعة السياسية (الإلكترونية)؛ الجريمة سياسية- Political Crime؛ الرابط:
https://political-encyclopedia.org/dictionary/
الموسوعة العربية (الموسوعة القانونية المتخصصة)؛ القانون الجزائي/ الجرائم السياسية؛ الرابط:
http://arab-ency.com.sy/law/detail/164708

[30] د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م. ص36.

والآلام الخاصّة بالعمل، والمعاناة الجسدية. يبدوأنّ اختلال تدفّق أحد الينابيع قد يتسبّب باحتقان يزيد من مستوى العدوانية في مسعى شخصي لإعادة التدفّق إلى حالة من التوازن النسبي، فالعدوانية تُعدّ الطاقة التي تمكّن الكائن الحي من البقاء على قيد الحياة ومواجهة المخاطر([31]) ويبقى النمط السلوكي والفكري الذي يتّبعه متوافقاً مع الينبوع الذي يفور منه.

تشير العديد من الدراسات النفسية إلى دور بعض الحالات المرضية النفسية (العصابية) في جنوح الفرد نحوالتزمّت حول معتقدات أوتصوّرات ما يتم صياغة مفرداتها وصورها بحسب ما يملي عليه اللاوعي والمزاج المضطرب، وكونها غير خاضعة لمحاكمة العقل والمنطق يتمّ اعتبارها أوهامًا؛ هناك العديد من حالات اضطراب الشخصية([32]) التي تتماثل أعراضها مع سلوك ومشاعر المتطرّفين تجاه مَن يقع خارج حدودهم الفكرية، لعل أبرزها الشخصيات السيكوباتية والباراناوية والتسلّطية والنرجسية والمتنّمرة، واضطراب الوسواس القهري وغيرها على الرغم من عدم وجود برهان علمي يؤكّد على أنّ التطرّف هوفقط نتاج لاضطرابات نفسية. يؤكّد علماء النفس على أنّ البيئة المحيطة بالفرد في مختلف مراحل نموّه هي العامل الرئيسي في نشوء هذه الاضطرابات([33])؛ لدى تقصّي ظروف المتطرّفين نجد أغلبهم ينحدرون من مناطق تعاني من البؤس والقهر، بسبب تسلّط مجموعة من المؤثّرات السلبية على كيانهم، كالاستبداد والفقر والتهميش وضعف القيم الأخلاقية وكثرة الساسة ورجال الدين المُسيّسين ذوي النزعة التسلّطية؛ بالتأكيد لهذه المؤثّرات تداعياتها على الحالة النفسية والعصبية للفرد المتماسّ معها، لذا فإنّ العامل النفسي له حضوره في تنامي ظاهرة التطرّف، كونها تمنح الفرد شعورًا صلبًا بالقوّة تعوّضه عن عقدة نقصه، فالرغبة بتحقيق القوّة يعدّ الدافع الرئيسي لسلوكيات البشر الإجرامية بحسب ما يؤكّد عليه عالم النفس ألفريد أدلر([34]) الذي يعتبر حياة البشر ليست إلّا حرباً ضدّ إحساسهم بالدونية، وهوما يوافق عليه عالم النفس ماسلوصاحب نظرية الدوافع البشرية، ويعتبر رأي أدلر هوالأقرب إلى الصواب مقارنة برؤية فرويد الذي يعتبر الجنس الدافع الرئيسي.

تؤكّد بعض الدراسات التي حاولت البحث في ظاهرة التطرّف والإرهاب إلى وجود عدّة عوامل نفسية وعصبية فاعلة في بنيانها وهي القلق والتصلّب والتعصّب والنرجسية والتسلّط والحقد وهواجس الانتقام، وعندما يتماهى الأفراد المتشابهون في جماعة ما تتكثّف هذه العوامل وتتضخّم لتصبح عقلية جمعية وجوهر أيديولوجيتها التي تتحكّم بسلوك الجماعة وسياستها.

---

[31] د. أحمد أوزي؛ سيكولوجية العنف/ عنف المؤسسة ومأسسة العنف؛ الناشر: مجلة علوم التربية/ العدد: 36- المغرب؛ ص14.

[32] د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م. ص14.

[33] للاطلاع على نماذج من هذا الرأي من المفيد مراجعة: تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى-2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص100.

[34] كولن ولسون؛ التاريخ الإجرامي للجنس البشري/سيكولوجية العنف؛ ترجمة: د. رفعت السيد علي؛ الطبعة الأولى 2001م؛ الناشر: جماعة حور الثقافية- القاهرة. ص24.

بالنسبة للقلق([35])؛ ميّز فرويد بين الخوف الذي ينشأ عن خطر موجود وبين القلق الذي ينشأ عن التوقّع لخطر مُحتمَل، وقد اعتبر القلق المسؤول الرئيسي عن كلّ أنواع العصاب وأحد المصادر الأساسية للخوف؛ وقد تبيّن وجود علاقة بين التطرّف ومستوى القلق الذي كلّما زاد مال الفرد إلى التطرّف في الاستجابة([36])؛ وفقدان الثقة وغياب العدالة يُعتبر من أكثر المحرّضات على القلق، وهذا ما يفسّر ميل معظم العصابيين إلى التديّن؛ وبحسب عالم النفس أدلر([37]) فإنّ بروز مشاعر الدونية وعقدة النقص لدى الفرد يدفعه إلى السعي الحثيث لتعويض ضعف قواه، يدفعه القلق للبحث عن التعويض والأمان؛ وعندما لا يجد القوّة الكافية لفعل ذلك تزداد عدوانيته، ويصبح منفتحاً على أيّ وعي جَمعي أوأيديولوجيا تستجيب لهواجسه وتبدّد قلقه ليجد أمانه المعنوي فيها ويصبح متطرّفاً لها. فالقلق الذي كانت تعانيه بعض المجتمعات السُنّية من تنامي قوّة الشيعة، واستمرار حالة البؤس في ظلّ فساد الطبقة الحاكمة وعدم وجود خيار آخر كالهجرة جعلتها منفتحة على التنظيمات الأصولية المتبنّية للجهاد العنفي، كالقاعدة وداعش وتحوّلت إلى حواضن رئيسية لهما، متمسّكين بأمل إقامة دولة خلافة إسلامية- سُنّية تنتشلهم من بؤسهم وقهرهم بحسب ما كان تروّجه دعاية هذه التنظيمات، يبدوأنّ هذا الأمل أصابه الانهيار في بعض المناطق العراقية على سبيل المثال، مع الهزيمة الميدانية للتنظيمين في سوريا والعراق، الأمر الذي فاقم من حالة القلق لدى هذه المجتمعات، وبالتالي استمرار الانفتاح على التطرّف؛ فالمبالغة في القلق يتسبّب في انعدام الأمن النفسي والنظر إلى العالم على أنّه مصدر للتهديد.

بالنسبة للتعصّب كثيراً ما يتمّ الخلط بين التطرّف والتعصّب الذي يعدّ مظهراً أوسمة خاصة بالتطرّف، وأبرز تفسيراته هي كالتالي: التعصّب ذُهان([38]) اجتماعي يحتوي على عنصر عنف وغضب، فهولا يقبل النقاش، ويريد أن يفرض اعتقاده على الآخرين ويكون غياب التسامح كلّياً([39])؛ التعصّب ينشأ عن ارتباط انحرافَين، الايمان الجنوني والمكر السياسي([40])؛ والتعصّب هوعبارة عن اتّجاه نفسي حاقد مشحون انفعالياً، أوهوعقيدة أوحكم مسبق مع أوضدّ جماعة أوشيء

---

[35] للاطلاع على مفهوم القلق من المفيد مراجعة كلاً مايلي:
المرجع السابق، ص46.
د. سوسن شاكر مجيد؛ اضطرابات الشخصية/ أنماطها- قياسها؛ الطبعة الثانية/2015م؛ الناشر: دار صفاء للنشر والتوزيع- عمان؛ ص179.

[36] د. سوسن شاكر مجيد؛ اضطرابات الشخصية/ أنماطها- قياسها؛ الطبعة الثانية/2015م؛ الناشر: دار صفاء للنشر والتوزيع- عمان؛ ص136.

[37] ألفريد آدلر؛ الطبيعة البشرية؛ ترجمة: عادل نجيب بشرى؛ الطبعة الأولى 2005م؛ الناشر: المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة؛ ص168.

[38] الذُهان هومصطلح في الطب النفسي للحالات العقلية التي يحدث فيها خلل، ضمن إحدى مكونات عملية التفكير المنطقي والإدراك الحسي. الأشخاص الذين يعانون من الذهان قد يتعرضون لنوبات هلوسة، وتعلُّق بمعتقدات توهمية (مثلا توهمات ارتيابية)، وقد يمرون بحالات من تغيير الشخصية مع مظاهر تفكير مفكك. تترافق هذه الحالات غالباً مع انعدام رؤية الطبيعة الاعتيادية لهذه التصرفات، وصعوبات في التفاعل الاجتماعي مع الأشخاص الآخرين، وخلل في أداء المهام اليومية. لذلك كثيراً ما توصف هذه الحالات بأنها تدخل في نطاق " فقدان الاتصال مع الواقع"...

[39] اندريه هاينال وآخرون؛ سيكولوجية التعصب؛ ترجمة: د. خليل أحمد خليل؛ الطبعة الأولى 1990؛ الناشر: دار الساقي/ لندن. ص75.

[40] برنار شوفييه؛ المتعصبون- جنون الإيمان؛ ترجمة: د. قاسم المقداد؛ الطبعة الأولى 2017م؛ الناشر: دار نينوى- دمشق. ص95.

أوموضوع، وهولا يقوم على سند منطقي أومعرفة كافية أوحقيقة علمية[41]، لأنّ أبرز سمات الشخصية المتعصّبة أنّها دوغمائية وغير متسامحة وتميل للتسلّط باستخدام العنف والعدوان، والاستعداد للالتحاق بأيّة حركة تعصّبية، دينية أوقومية أواجتماعية، على أمل حدوث تحوّل مفاجئ لظروف الحياة تغيّر الواقع.

من أبرز العوامل التي تجعل الفرد متعصّباً الجرح النرجسي، أيّ التعرض إلى إذلال أوإهانة كبيرة أوعدم القدرة على معادلة مستوى حياته مع المستوى الذي تتطلّبه نرجسيته، فمثلاً يربط بليز باسكال في كتاب الأفكار بين الجرح النرجسي والتعصّب[42]" يريد الإنسان أن يكون كبيراً ويرى نفسه صغيراً؛ يريد أن يكون سعيداً ويرى نفسه بائساً؛ يريد أن يكون كاملاً ويرى نفسه مليئاً بالنواقص، يريد أن يكون موضوعاً للحب والتقدير من قبل الناس ويرى أنّ عيوبه لا تستحق إلّا احتقارهم وازدراءهم، إنّ هذا المأزق الذي يجد نفسه فيه، يولّد لديه الشهوة الأكثر ظلماً وإجراماً، والتي يمكن تخيلها؛ لأنّه يكنّ حقداً مميتاً لهذه الحقيقة التي تعاوده وتقنعه بأخطائه وعيوبه". يبدوأنّ معظم المتطرّفين يعانون من جروح نرجسية عميقة، بسبب البؤس والقهر الذي كانوا يعانون منه في بيئاتهم، وما يؤجّجها أكثر الخطاب الأيديولوجي للقوى الشوفينية والراديكالية التي تتغنّى بأمجاد الماضي الذي لم يعد موجوداً، لذا فقد أصبح الشخص المتطرّف يعاني من جرحين نرجسيين، أحدهما تسبّب به الكيان السياسي الاستبدادي الذي يخضع لسيطرته، والثاني تسبّب به رفض فكرة تفوّق الحضارة الغربية على ثقافته، تلك الحضارة التي يعتبرها رمزاً من رموز الكفر والشرّ، بحسب ما يملي عليه بعض الساسة من الشوفينيين ورجال الدين أوأقل قدسية من ثقافته التي يعتزّ بها، هذه الحقيقة تمّت معايشتها في سوريا في فترة الصراع بين حزب البعث وجماعة الإخوان المسلمين، ولا تزال تداعياتها مستمرّة حتى الآن، ونفس الأمر تقريباً يتكرّر بالنسبة للبلدان الأخرى. إنّ الجرح النرجسي النابع من مشاعر الاحتقار واللا قيمة في الحاضر أوالماضي بسبب الهزيمة المخزية أوالقمع له دور في التطرّف وارتكاب أعمال إرهابية بذريعة الانتقام أوالثأر، لمحوآثار جرح بإنزال جرح مماثل بالآخرين الموصوفين كمذنبين. يعتقد بعض الباحثين ([43]) بأنّ شكل ملابس الأشخاص الذين ينفّذون أعمالاً توصف بالإرهابية وأغطية رؤوسهم وأعلامهم، ورموزهم الخاصة، وطرائق عيشهم، وتعبيراتهم عن أنفسهم من خلال بثّ مشاهد خاصة عنهم تبرّر أعمالهم العنيفة، تعبر عن نزعة نرجسية واضحة لديهم وتكوين منطق سيكولوجي واجتماعي خاص بهم. وبحسب علماء النفس فإنّ التعصّب يمنح نسبياً الأمان المعرفي ([44]) وتوطيد النرجسية. إنّ تراكم العدوانية واليأس وانعدام مشاعر الأمن وتفشّي القلق نابع من حالة الإحباط عن تحقيق الذات- أي الإشباع الذاتي للحاجات المادّية والمعنوية- وما يرافقه من جرح نرجسي يعزّز من الميول

[41] د. سوسن شاكر مجيد؛ اضطرابات الشخصية/ أنماطها- قياسها؛ الطبعة الثانية/2015م؛ الناشر: دار صفاء للنشر والتوزيع- عمان؛ ص135.

[42] اندريه هاينال وآخرون؛ سيكولوجية التعصب؛ ترجمة: د. خليل أحمد خليل؛ الطبعة الأولى 1990؛ الناشر: دار الساقي/ لندن. ص69.

[43] د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م. ص15.

[44] اندريه هاينال وآخرون؛ سيكولوجية التعصب؛ ترجمة: د. خليل أحمد خليل؛ الطبعة الأولى 1990؛ الناشر: دار الساقي/ لندن؛ ص43.

التعصّبية، وبالتالي يشكّل التعصّب العرقي أوالديني أوالطائفي مساراً أووسيلة لتوجيه العدوانية والعنف إلى جماعات أخرى تتحوّل إلى غرباء وكيان للشر يتوجّب القضاء عليها وإبادتها دون قيد، حيث تتمّ استباحتها وارتكاب مجازر دموية بحقّها، وتتذرّع الجماعة المعتدية بأنّها لا ترتكب إثماً بحقّ أناس آخرين؛ كونها تخوض حرباً مقدّسة للدفاع عن وجودها، وتتحوّل أعمالها وانتهاكاتها إلى بطولات وأعمال نبيلة وهمية، وهذا ما نجده واضحاً لدى جيش الاحتلال التركي في هجماته على شمال سوريا وكذلك في الأناشيد الحماسية لتنظيم داعش، فالانفعالات التي تعزّز الإحساس بصواب المعتقد ووجود مبرّرات شرعية جزء من التركيبة النفسية للعنف وبالتالي للجريمة بحسب الباحث كولن ولسون([45]) الذي يؤكّد أيضاً على أنّ كراهية الغرباء (الكزينوفوبيا) مكوّن أصيل وجزء من ميراثنا الغريزي([46]) وتشكّل جزءاً مهمّاً من أيديولوجية اليمين المتطرّف([47]) في معظم بلدان العالم؛ بالطبع ستكون ردّة فعل الضحية الثأر والانتقام بدرجة أكثر تطرّفاً إذا سنحت لها الفرصة، الأمر الذي يولّد سلسلة متصاعدة من العنف بحسب رأي الباحث مصطفى الحجازي([48]) الذي يشير إلى أنّ أبرز تداعياتها نشوء "جدار من الخوف والحذر المتبادل، الخوف من الانتقام، ما يزيد من تبعية الفرد لجماعته ويدفعه إلى مزيد من الغرق في أشد الانفعالات والمخاوف والرغبات البدائية: خوف مطلق، تقابله رغبة في الانتقام بدون حدود، ورغبة في السيطرة المطلقة التي تلغي الآخر تماماً...".

إنّ المتعصّبين يعتمدون الإرهاب لإشاعة أفكارهم أوإقامة سلطة لهم، وتدمير الآخرين مادياً ومعنوياً بتدنيس الرموز المقدّسة لمعتقداتهم، تدفعهم نزوات شديدة إلى جعل الواقع مطابقًا لما رسموه في خيالهم، وكأنّهم يمتلّكون شعورًا غير واعٍ بالذنب الذي يرتكبونه، فمثلاً بحسب الباحث برنار شوفييه([49]) "... يرى المتعصّب المسيحي في الديانات الأخرى مجرّد خرافات ينبغي القضاء عليها بأيّ ثمن، وهي برأيه ليست زائفة فحسب بل لابدّ من شطبها من خريطة المشهد الديني وإرغام الناس على اعتناق العقيدة الصحيحة."، هذه الرؤية تماثل رؤية المتعصّبين المسلمين واليهود والهندوس والإيزديين وغيرهم تجاه المعتقدات الأخرى. لذلك هناك علاقة وثيقة بين التعصّب والتصلّب الفكري، فالتصلّب تنعدم فيه المرونة الفكرية والحسّ النقدي ويكاد يكون مطابقاً للدوغمائية، حيث يشكّل التصلّب مظهراً آخراً من مظاهر التطرّف([50]) في سياق التمسّك المطلق بالآراء والجمود الفكري وعدم التسامح مع الأشخاص المختلفين في المعتقد والأيديولوجيا، ويُعرّف

---

[45] كولن ولسون؛ التاريخ الإجرامي للجنس البشري/سيكولوجية العنف؛ ترجمة: د. رفعت السيد علي؛ الطبعة الأولى 2001م؛ الناشر: جماعة حور الثقافية- القاهرة؛ ص105.

[46] نفس المرجع السابق؛ ص80.

[47] تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى- 2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص14.

[48] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص181-180.

[49] برنار شوفييه؛ المتعصبون- جنون الإيمان؛ ترجمة: د. قاسم المقداد؛ الطبعة الأولى 2017م؛ الناشر: دار نينوى- دمشق. ص143.

[50] د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م. ص14.

التصلّب في الدراسات النفسية([51]) بأنّه "العجز النسبي عن تغيير الشخص لسلوكه أواتّجاهاته عندما تتطلّب الظروف الموضوعية ذلك، والتمسّك بطرائق غير ملائمة للسلوك والشعور"، أي بمعنى الانغماس التقديسي في الذاتية والفردانية في الرأي.

بالنسبة للتسلّط، من الآراء التي تفسّره ([52])"التسلّطية بنية نفسية اجتماعية ينجم عنها خلل في التفكير الإيجابي، إنّه نوع من العطب الذي يجعل صاحبه يفكّر في اتّجاه واحد، فالتسلّط هنا نوع من الممارسة المحدودة في التفكير المتكامل...". تُعدّ نزعة التسلّط في ظاهرة التطرّف دعامة أساسية في بروز الصنف الثاني من التطرّف- كوسيلة لتميكن السلطة والهيمنة- وأكثر من يتمسّك بها هم الزعماء السياسيون أوالدينيون وأصحاب الطموحات السلطوية واحتكار الثروات الذين يستغلّون ببراعة حالات القلق والتعصّب والتصلّب، وتأجيجها في مرجل الأيديولوجيا لحشد الأنصار والمريدين من حولهم، وتحويلهم إلى أتباعٍ مخلصين وحتى إلى قَتَلة([53])؛ من ناحية أخرى تشكّل نزعة التسلّط للمستبدّين دافعاً قوياً لتحوّل المقهورين إلى التطرّف، إلّا أنّ الذهنية المتخلّفة للمقهورين أحياناً والتي لا تمتلك ثقافة سياسية تحترم الأمن الإنساني بسبب قصور التفكير الجدلي تصاب بتصلب ذهني سرعان ما تنحرف نحوهذه النزعة والتماهي بالمتسلط، وبدل عقدة النقص تبرز عقدة التفوق والاستعلاء، وبدل العجز تبرز عقدة الجبروت، وتزداد مشاعر التفوق وينهار الحوار العقلاني والتفكير المنطقي، ويحدث نوع من التركّز حول الذات أي حدوث تضخم ذاتي يقابله انحسار في قيمة وأهمية المحيط، هذا التضخم بحسب أحد الباحثين([54]) "يؤدي إلى سيطرة مزاج نفاجي- (أي متكبر ومفتخر بما ليس عنده ولا فيه)- على الإنسان نوع من الإحساس بالعظمة والتصرف بذهنية المتسلط القديم فيبطش ويتعالى ويستبد...هذا القصور في التفكير الجدلي، واضطراب منهجية التفكير، ليس وليد خلل عضوي أوانحطاط تطوري...إنه نتاج البنية الاجتماعية المتخلفة ووليد عوامل القهر والاعتباط التي يخضع لها الإنسان المتخلف"، وهذا ما تم ملاحظته في سلوكيات أمراء داعش تجاه مجتمعات المنطقة التي خضعت بالقوة لسلطتهم. ركّز الباحثون في مجال علم النفس على هذه النزعة ووجدوا جانبان متناقضان في شخصية الإنسان، رفض السلطة وممارستها([55]). من العناصر الأساسية في بناء الشخصية التسلطية بحسب إحدى الدراسات([56]) هي التعلق المتصلب بفكرة أومعتقد ذونظرة معادية للتجديد، والدعوة لاستخدام العنف والقوة كأداة للتغيير، والتعصب ضد المختلفين في الوضع الاجتماعي أوالديني، والتركيز على الماضي وقيم الأسلاف، والسخط على الواقع المُعاش؛ لذا يصبح التطرف المقترن بها كبناء برج أوهرم أوزقورة يسموبه ساكنوه أنفسهم عن بقية العالم، ينظرون إليهم نظرة دونية تعزز نزوة ممارسة السلطة على

---

[51] نفس المرجع السابق؛ ص79.

[52] نفس المرجع السابق؛ ص142.

[53] للمزيد من التحليل حول هذا الموضوع راجع: رشاد سلام؛ كهنة في كل العصور/ أباطيل... تمشي على الأرض؛ الطبعة الأولى- 2010م؛ الناشر: مؤسسة الانتشار العربي- بيروت.

[54] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان؛ ص70.

[55] كولن ولسون؛ التاريخ الإجرامي للجنس البشري/سيكولوجية العنف؛ ترجمة: د. رفعت السيد علي؛ الطبعة الأولى 2001م؛ الناشر: جماعة حور الثقافية- القاهرة؛ ص233.

[56] د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م؛ ص143.

الآخرين، معنوياً من خلال إخضاع الأحاسيس والمشاعر والعواطف وبالتالي الفكر، ومادياً من خلال القهر والقتل. بشكل عام يعتبر خيار العنف الوسيلة المفضلة للمتعصبين في سعيهم إلى إشاعة أفكارهم وإقامة سلطتهم، بمعنى أن هنالك علاقة وثيقة بين التطرف والتسلط، حيث يتم محاربة سلطة لفرض سلطة جديدة.

لا يمكن إغفال العلاقة الوثيقة بين الحقد وهواجس الانتقام اللذان يعدّان السمات المميزة لظاهرة التطرف. الحقد هوأحد التعابير الخاصة عن التراكم المزمن لعدوانية الإنسان، فليس هناك حقد عند الحيوانات، أما الانتقام فهوحقيقة من حقائق السلوك البشري يتعلق بالتعصب في مشاعر الانتماء للجماعة وهوتعبيراً عن ردة فعل أوتضميد للجرح النرجسي الذي يصيب به المنتقم وخيار استراتيجي للإنسان المقهور؛ ونجد الكثير من الموروث الثقافي الشعبي لمعظم المجتمعات تمجّد الانتقام من الأعداء؛ والحقد والانتقام أمران متلازمان، كلّ واحد منهما شرط لوجود الآخر، فمثلاً شكّلا الأساس لتنامي قوّة ورهبة جماعة الحشّاشين([57]) وهي صفة ملازمة لجميع الجماعات المتطرّفة، السياسية والدينية. والإيديولوجيات المتطرّفة والعنصرية التي ترفض الآخر تخلق القتلة والمجرمين، أوتنمّي شخصيات إجرامية متوحّشة انطلاقاً من مبدأ إبادة الآخر عبر الحقد والكراهية وأوهام الانتقام، والتي تشحنه بطاقة معنوية عنفية فهي تشخصن قضية جماعة أخرى في أفرادها الأبرياء والمسالمين؛ بشكل عام يعدّ الحقد وهواجس الانتقام المحرّض الرئيسي على عنف المتطرّفين المسلمين في تاريخنا المعاصر([58]) وكذلك نجد دولاً تنهال بالقذائف والصواريخ على مدن وبلدات؛ حيث يسقط عشرات الضحايا للانتقام من عمليات إرهابية قامت بها جماعات ذات صلة ثقافية بها؛ فالجميع يجدون أنفسهم ملزمين بالدفاع عن أخوة المعتقد في أيّة منطقة يتواجدون فيها، والانتقام من أجلهم، والعنف الوحشي الموجّه إلى مضطهدي أخوة المعتقد، بما فيها قطع الرؤوس أوتدمير الأحياء أمر مبرّر بالنسبة لهم. على الرغم من أنّ الانتقام يبدوسلاحاً عقابياً لردع أيّ عدوان أوظلم إلّا أنّه يبقى حاضراً في مخيّلة البشر، تغذّيها الحكايات وذكرى المجازر والاعتداءات التي تعرّض لها الأسلاف أوالأقرباء، بالإضافة إلى القهر الذي تتم معايشته في ظلّ الأنظمة الاستبدادية، محافظة بذلك على شعلة الأحقاد في النفوس، يتنافس على هذه الشعلة طرفان من أجل تطويع الانتقام خدمة لأهدافها، طرف متوافق أومؤمن بمذهب الوجودية([59]) في وعيه السياسي والذي يمنح مكانة سامية لقيمة الإنسان، ويسعى لتحريره من العبودية والظلم ويسعى

---

[57] برنار شوفييه؛ المتعصبون- جنون الإيمان؛ ترجمة: د. قاسم المقداد؛ الطبعة الأولى 2017م؛ الناشر: دار نينوى- دمشق؛ ص80.

[58] تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى- 2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص97.

[59] الوجودية مذهب فلسفي أوروبي، يركز في تحليلاته على الوجود الواقعي وقيمة الإنسان وعلاقته، ويعد جان بول سارتر أكثر من تبنى هذا المذهب، حيث اعتبر الإنسان مطلق الحرية في الاختيار، يصنع نفسه بنفسه، ويملأ وجوده على النحوالذي يلائمه، ويشير "... وعندما نقول إن الإنسان يختار لنفسه، لا نعني أن كلاً منا يجب أن يختار لنفسه، بل نحن نعني أنه يختار لنفسه، وهوإذ يختار لنفسه يختار لكل الناس، لأن الإنسان في الواقع وهويمارس الاختيار كي يخلق نفسه كما يريد لنفسه، لا يوجد مما يمارسه فعل واحد غير خلّاق. إنه باختياره لذاته يختار أيضاً لبقية الناس...فنحن لا نختار الشر لأنفسنا، وما نختاره دائماً خير لنا، ومن ثم فهوخير لكل الناس...".
جان بول سارتر؛ الوجودية مذهب إنساني؛ ترجمة عن الفرنسية: عبد المنعم الحفني؛ الطبعة الأولى- 1964م؛ الناشر: مطبعة الدار المصرية للطبع والنشر والتوزيع- القاهرة؛ ص16.

لإطفائها، وطرف متوافق أومؤمن بأيديولوجية التوتاليتارية الدينية أوالثيوقراطية في وعيه السياسي تجاه المخالفين لمعتقده ويسعى لتأجيجها؛ وهذا لسان حال معظم الجماعات المتطرّفة المتبنّية للعنف الوحشي.

إجمالاً يشكّل كلٌّ من التعصّب وانفعالات الحقد والغضب والعداوة والسلوكيات العنيفة والعدوانية وهواجس الانتقام وغيرها الطاقة الكامنة للتطرّف سواء أكانت وسيلة للدفاع الذاتي، أووسيلة لتمكين السلطة، وما قد تنجم عنه من أعمال عنيفة.

2. العامل الاجتماعي والبيئي.

المجتمع عبارة عن جماعة من الأفراد، يتميّزون بمشاعر ومعنويات خاصة، يتشاركون حيّزاً جغرافياً محدّداً ويتآلفون في المظاهر والأفكار مع احتراسٍ تجاه الغرباء. يزاولون نشاطات اقتصادية وسياسية وعادات مشتركة يتم تنسيقها وتنظيمها وفقاً لميثاق اجتماعي متّفق عليه مسبقاً بين الأفراد، هذا الميثاق يركّز في جانبه الرئيسي على كلّ من تعزيز الانتماء، وفهم وتنظيم العدوانية أوغريزة العنف وكيفية توجيهها، ويتمّ غرسها في نفوس جميع الأفراد منذ الطفولة، وتحدّد معايير لكبحها ومتى وكيف يجب أن تُثار إلى درجة التطرّف. يبدوأنّ هذا ما يدفع بالمرء إلى الاعتقاد بكون الحضارة ليست سوى استجابة عاطفية وفكرية وفلسفية وسياسية واقتصادية وعسكرية، لظروف الزمان والمكان للبيئة التي يتواجد فيها المجتمع وما يتخلّلها من نشاط عمراني وتنامٍ فكري. وتتحوّل المعرفة المكتسبة بمرور الوقت والسلوك الاجتماعي المقترن به إلى ثقافة تتطوّر بتقادم ظروف الزمان والمكان. لذا فإنّ كل ذهنية تفضّل التدمير والقتل بدلاً من الانسجام والتضامن مع الآخر المسالم المختلف لا تعبّر عن نزعة حضارية أوعن ثقافة راقية، مهما كان معتقد هذه الذهنية وما تروّج له من قيم.

يلعب المجتمع والبيئة التي يتواجد فيها المرء دوراً كبيراً في ظاهرة التطرّف، لما يملكه من تأثير على الفرد الذي يعيش في كنفه، حيث يحتمي الإنسان بجماعته وببيئته كتعويض عن عجزه الفردي، ويزداد ميل الإنسان إلى الذوبان في الجماعة بازدياد تفاقم الخطر على كلّ من الذات والمصير وتعاظم الإحساس بالتهديد، وهذا قانون من قوانين الطبيعة البشرية حيث تؤثّر البيئة مهما كانت حالها وشكلها على تفكير وعاطفة الشخص، ولتحقيق ذاته ليس له سوى خيارين، إمّا التحرّر من القيود المعنوية التي تفرضها بيئته أوالتماهي فيها؛ لذا يتّخذ هذا التأثير مسارين، المسار الأول يرسمه تمرّد الفرد على مجتمعه ويرفض أسلوب حياته وثقافته المعاشة المتناقضة مع قناعاته الأيديولوجية، والتي يغلّفها بقوالب أخلاقية أودينية أوفلسفية، والمسار الثاني يرسمه ما يتعرّض له المجتمع ككل من القهر من قبل سلطة استبدادية قمعية، حيث يبرز التطرّف السلفي بمفهومه الثقافي العام غير المنحصر في المجال الديني كعامل تماسك للمجتمع وطاقة لعقيدة قتاله، فهووسيلة دفاعية للمجتمع المقهور، حيث تشير بعض الدراسات([60]) إلى أنّ السلفية تزداد شدّتها بمقدار درجة القهر التي تمارَس على الإنسان الذي يعجز عن مجابهة المتسلّطين على اختلاف مراتبهم وفئاتهم، لذا

[60] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص130.

يتوجّه نحوالماضي ويتمسّك بالتقاليد والأعراف ومحاولة التماهي مع أبطال الماضي بدلاً من التصدّي للحاضر والتطلّع للمستقبل، ويأخذ هذا التطرّف أشكالاً معيّنة بحسب ذهنية القادة الذين يتقدّمون المواجهة؛ تلعب نزعة التحرّر محدّداً للمسارين وتبقى صفة الخير والشر نسبية لكلا المسارين، فهناك مسعى مشترك لهدم المجتمع القائم وإقامة مجتمع آخر بديل، فتمرّد الفرد على سلبيات مجتمعه قد يقدّم خدمة جليلة له كمثال الأنبياء (الحكماء المصلحين) والثائرين، وقد يجلب له التمزّق والدمار كالنزاعات العرقية والطائفية داخل الأمم.

تلعب كلاً من العصبية العشائرية والأيديولوجيا الدينية/المذهبية والقومية، المتأطّرة بالعداوت التاريخية والمتبلورة بالقهر والبؤس في مجتمع ما دوراً في بروز العامل الاجتماعي كمؤثّر في نشوء ظاهرة التطرّف، وكمعيار للدرجة التي يلعبها العامل النفسي في نشوء هذه الظاهرة، يلاحَظ هذا الأمر بوضوح ساطع في المشاكل السياسية التي تعانيها مجتمعات الشرق الأوسط والتي يقدر عمرها بمئات السنين، حيث نجد أنماطاً متنوّعة من التطرّف، فهناك التطرف المقترن بالنزاع الطائفي والمقترن بالنزاع الديني والمقترن بالنزاع القومي والمقترن بالنزاع الحزبي، والظروف السياسية لكلّ جماعة تمتلك تأثيراً على إخوة المعتقَد في مجتمعات البلدان المجاورة؛ يتجلّى ذلك في الصراع التاريخي بين السُنّة والشيعة، حيث تشير دراسة صادرة عن مركز RAND ([61]) إلى قوّة الروابط الإثنية بين المجتمعات في كلٍّ من لبنان وسوريا والعراق والأردن، وأيّة إجراءات تتّخذ ضدّ مجموعة ما في سوريا تخلّف أثراً مباشراً على الطائفة ذات الصلة في باقي البلدان المذكورة. تؤكّد الدراسة على أنّ الدعم العسكري واللوجستي الذي قدمه رجال العشائر العراقيون السُنّة لأقرانهم في سوريا في سياق أزمتها نابع من التزامهم بموجب انتمائهم العشائري- الطائفي ونفس الأمر بالنسبة للشيعة، حتى أنّ الصراع امتد إلى وسائل الاعلام، وما يزيد الأمور تعقيداً مخيّمات اللجوء؛ حيث يزيد الإحباط والبؤس وشظف العيش، ويتفاقم كلٌّ من السخط والخوف والتوتّر الناجم عن استمرار تعرّض إخوة المعتقد للإذلال والانتهاكات والقتل، والمظالم التي ترتكبها أنظمة الحكم المحلّية؛ كلّ هذه الأمور تشكّل تربة خصبة لتنامي التطرّف، والتي تغذّي حروب المنطقة بالمجنّدين والتمويل اللازم، بالتأكيد سيجلب المزيد من تدفّقات اللاجئين والنازحين الأيديولوجيات ومشاعر الحقد التي ترسّخ التطرّف، خاصة في صفوف الشباب والسكان الذين يجمعهم المعتقد الواحد، الأمر الذي يخلق ظروفاً أمنية هشّة منفتحة على العنف الدموي؛ بشكل عام يخلق التطرّف جماعات منغلقة كردّة فعل على الإحساس بالتهديد الخارجي، وتضع لنفسها حدوداً معنوية كإطار لهويتها العقائدية، وتتركّز العواطف الإيجابية في داخل الجماعة، وكلّ من يقع خارجها يُعتبَر مصدراً للخطر والشر لذا يتوجب تدميره أوتجنّبه، وكذلك يتوجّب الجهاد لتوسيع المساحة المكانية لهذا المعتقد، حيث تشكّل مسألة المساحة المكانية الخاصة (تسمى مجازياً المساحة الشخصية) عاملاً رئيسياً في تحديد مستوى العدوانية لأيّة جماعة متطرّفة، فالتزاحم داخل مساحات ضيّقة تحوّل

[61] للمزيد راجع: ويليم يونغ وآخرون؛ امتداد الصراع في سوريا/ تقييم للعوامل التي تساعد وتمنع انتشار العنف؛ الناشر: مركز RAND / 2014. الرابط:
https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/research_reports/RR600/RR609/RAND_RR609z1.arabic.pdf

البشر إلى معتادي الإجرام([62]) بالاستناد إلى العنف الممارَس في المدن التي تحاط بالأسوار، وكذلك في الأحياء العشوائية الفقيرة المكتظّة بالسكان، وهذا ما يمكن اسقاطه على الأيديولوجيات المختلفة والمتزاحمة في بلد مسوّر بحدود سياسية أوفي مجتمع غير منسجم، حيث نلاحظ عدوانية متنامية بينها وسعي كلّ طرف لعولمة معتقده، وهذا ما أكّدت عليه تجربة عالم النفس (أغسطس كنزل) عام 1969م على بعض السجناء، حيث وجد أنّ الأشخاص المتطرّفين في العنف والعدوان يصرّون على مساحة شخصية أوسع من الأشخاص الأقلّ عنفاً. على الرغم من ذلك يبدوأنّه ليس من الدقّة اعتبار القيم المعنوية للدين السبب الرئيسي للتطرّف كعامل اجتماعي، فالدين يُعتبَر استجابة للنزعة الروحانية المتأصّلة في كيان الإنسان والمجتمع على حدّ سواء، وذلك في سياق ما يؤكّد عليه رأي عالم النفس إيريك فروم، الذي يقول([63]) " إنّني أفهم الدين بأنّه أيّ مهبّ للفكر والعمل تشترك فيه جماعة ما، ويعطي الفرد إطاراً للتوجيه وموضوعاً للعبادة. ولا توجد حضارة في الماضي ويبدوأنّه لا توجد في المستقبل دون أن يكون لها دين... إنّ الحاجة إلى مذهب مشترك للتوجيه وإلى موضوع للعبادة هذه الحاجة تضرب بجذورها عميقاً في أحوال الوجود الإنساني."، إلّا أنّه يشير إلى فشل الدين في فرض مُثُله العليا في حماية المسحوقين أمام السلطان الدنيوي الذي انتهك هذه المُثُل، أي خضوع الدين لسلطان الساسة بمفهومنا المعاصر، وهذا ما يفسّر تحوّل التطرّف الديني إلى وسيلة براغماتية لتمكين السلطة والهيمنة بالدرجة الأولى، حتى أنّ التطرّف كتمسّك دفاعي متزمّت بالتقاليد يؤدّي إلى جمود في عملية التطوير، وتتحوّل إلى وسيلة تخدم مصلحة المتسلّط([64])؛ إلّا أنّ هذا التمكين لا يمتلك أسباب الديمومة كما يرى عبد الرحمن الكواكبي([65]) " ما من أمّة أوعائلة أوشخص تنطّع في الدين أي تشدّد فيه إلّا واختلّ نظام دنياه وخسر أولاه وعقباه." وشواهد ذلك كثيرة بدليل عدم قدرة ظاهرة التطرّف في الدين على الاستمرار في هيكل سلطة نظام سياسي واحد، قد يكون ذلك بسبب النزعة التسلّطية لبعض الجماعات الدينية المتطرّفة، أمّا الأنظمة التي لاتزال قائمة ويشوبها نمط من التطرّف السلطوي فهي معرّضة لأيّة ثورة شعبية عليها، حيث تعقد تحالفات عسكرية واقتصادية وتمارس الإرهاب الداخلي لتأخير قيام أيّة انتفاضة ضدّها، والتي تبدوأنها واقعة لا محالة آجلاً أم عاجلاً.

إنّ فكّ الارتباط العاطفي مع الآخر، سواء أكان الآخر هوالفرد أوالمجتمع أوالسلطة، ينمّي حقداً متنامياً قد يوّلد سلوكاً تدميرياً يمزّق الروابط الوطنية والوجدانية التي تحترم حياة الآخر، ويصبح الاحتقار والاضطهاد وفعل القتل لغة للتعامل، الأمر الذي قد يحرّر الوحش القابع في أعماق كلّ إنسان.

---

[62] كولن ولسون؛ التاريخ الإجرامي للجنس البشري/سيكولوجية العنف؛ ترجمة: د. رفعت السيد علي؛ الطبعة الأولى 2001م؛ الناشر: جماعة حور الثقافية- القاهرة؛ ص84.

[63] إيريك فروم- الدين والتحليل النفسي؛ ترجمة فؤاد كامل، الناشر مكتبة غريب- الإسكندرية؛ بلا رقم طبعة؛ ص25.

[64] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص108.

[65] عبد الرحمن الكواكبي؛ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد؛ بلا رقم طبيعة؛ الناشر: كلمات عربية للترجمة والنشر- القاهرة؛ ص23.

تكوّن الجماعات المتطرّفة نمطًا اجتماعيًّا وسيكولوجيًّا خاصًّا بها كما تبيّن في الفقرات السابقة؛ ويعدّ العجز النسبي في تحقيق كلّ من الرغبة في الانتماء الاجتماعي الحميم والحاجة إلى القوة والدفء العاطفي وتحقيق الذات، وغياب أولياء الأمور أوالخلاف معهم، وتأثير الأصدقاء والمعارف ذوي النزعة المتطرّفة، والمستوى التعليمي والمهني غير الخلّاق، وربط الشرف والأخلاق باستعباد المرأة، والاغتراب الاجتماعي ومشاعر التظلّم وانعدام العدالة في الوسط المحيط، تعدّ كلّها دوافع ذات بعد اجتماعي تدفع الفرد من مختلف الطبقات الاجتماعية والمستويات الفكرية نحوالتطرّف والانضمام إلى جماعات متطرّفة، حيث تذوب الهوية الشخصية داخل الجماعة وتخلق هوية جمعية جديدة تستحوذ على مشاعر الانتماء إلى المجتمع([66]). ويبقى التطرّف الذي يتسبّب بقتل أفراد من المجتمع الواحد في مساحة مكانية معيّنة لخلاف فكري جريمة بعينها كسلوك معادٍ للمجتمع، فهوقتل أواعتداء غير مبررّ لأنّه لا يهدّد الوجود المادي للمتطرّف الذي يتصرّف بعاطفة عنفية، بعكس التطرّف الموجه لمقاومة عدويسعى للإبادة أولفرض استبداد.

3. العامل السياسي والأيديولوجي.

يرى عالم النفس (إيريك فورم) أنّه لا توجد دلائل على أنّ أجدادنا الأوائل كانوا عدوانيين أوميّالين للقتل بصفة جوهرية([67])؛ لقد عاش الإنسان البدائي في سلام مع العالم المحيط به ومع جيرانه، وأنّه لم يصبح قاسياً إلّا عند تحوّله للحياة في مدن، ربّما طوّرت الشعوب القبلية حول الدول ثقافات حربية في وقت واحد مع مراكز الدولة([68])، وبذلك التحوّل أصبح أشدّ قسوة وأكثر تدميراً، فأكثر البشر بدائية أقلّهم مَيلاً للحرب مع بني جنسهم؛ يبدوأنّه كان هناك تطوّر متوازٍ بين درجة التحضّر وكلّ من النزعة والمَيل للحرب والقتل. كما يؤكّد المؤرّخون، فإنّ السياسة بمفهومها البراغماتي بدأت مع تحوّل المدن إلى النظام الدولتي، وأصبحت الحرب وسيلة لتحقيق أهدافٍ سياسية كوسيلة رئيسية لضمان السلطة والثروات([69]) أي احتكرت الدولة استخدام العنف وعملت على إدارة العدوانية الجماعية وامتلاك سلطة شنّ العنف المنظّم أي إعلان الحرب([70]) وأصبح القمع والإرهاب وسيلة لكلّ سلطة تحاول إخضاع مجتمع ما وقهره، متسبّبةً بتراكمٍ متطرّف للعدوانية والعنف والإرهاب في كيان المقهورين الذي قد ينفجّر في أيّة فرصة سانحة كردّ فعل انتقامي؛ هذا الأمر ولّد معه التطرّف لمعتقدات معينة كطاقة محرّضة لعقيدة القتال، لذا يعدّ العاملُ السياسي العمودَ الفقري لتنامي الجماعات المتطرّفة المتبنّية للعنف والعدوان.

---

[66] للمزيد راجع: د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م.

[67] كولن ولسون؛ التاريخ الإجرامي للجنس البشري/سيكولوجية العنف؛ ترجمة: د. رفعت السيد علي؛ الطبعة الأولى 2001م؛ الناشر: جماعة حور الثقافية- القاهرة؛ ص74.

[68] R. BRIAN FERGUSON; War Before History; Philip de Souza, ed. Thames and Hudson, 2008; pag 27.

[69] للمزيد من التحليل حول هذا الموضوع راجع: عبد الله أوجالان؛ مانيفستوالحضارة الديمقراطية (القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية؛ دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكيّ الإبادة الثقافية) / المجلد الخامس؛ ترجمة: زاخوشيار؛ الطبعة الثانية pdf/2014؛ بلا ناشر.

[70] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص182.

يصيغ كل إنسان قوانينه وفقاً للهدف الذي يسعى ورائه بكل إصرار([71]) وتصبح القوانين الموجودة المتعارضة أوالمعيقة لهدفه ملغاة وباطلة ويصعب التكيّف معها، فميوله النفسية تتحرّك نحوهذا الهدف وتتطرّف قناعاته؛ ويحدث التصادم بين المجتمع والفرد أوالسلطة وجماعة من المواطنين بسبب تعارض القوانين الخاصّة بكلّ طرف، ويتمّ استخدام القوّة لفرض وجهات النظر المختلفة استناداً إلى حقيقة تفيد بأنّ العالم تحكمه القوّة وليس القانون([72]). أغلب الأهداف التي يقود إليها التطرّف هي أهداف سياسية وتتحرّض تحت تأثير أعمال سياسية، بغضّ النظر عن صوابية هذه الأهداف التي تعدّ بمثابة القالب المُشكّل للأيديولوجيا المعبّرة عنها، فهناك أهداف ذات نزعة راديكالية- تسلّطية تتمحور حول التسلّط أوالتحرّر من تسلّط ما لفرض تسلّط آخر، كالتنظيمات الساعية وراء إقامة أنظمة حكم ثيوقراطية أوتوليتارية أوفاشية، أوالتحرّر بالثورة على الاستبداد لإقامة أنظمة سياسية تحترم حقوق الإنسان وتسعى لتحقيق الأمن الإنساني لجميع أبناء البلد الواحد. بمجرّد تَنظُّم مجموعة من الأفراد المتطرّفين في جماعة واختيارهم لقائد أوالخضوع لسلطته يبرز العامل السياسي، وتصبح العدوانية والعدائية الموجّهة إلى الخارج في بعض الأحيان الرابط الوثيق بين أفراد الجماعة، فبحسب رأي أحد الباحثين السيكولوجيين العرب([73]) "...إنّ بذور التعصّب والفاشية منبثّة باستمرار في مجتمعات القهر، وهي تتغذّى من الطاقة الهائلة التي تعتمل في أعماق الإنسان المقهور متعطّشة إلى القوة والسيطرة والانتقام... فالجماهير المغبونة والمقهورة متعطّشة للقوّة ومستعدّة للانقياد وراء زعيم عظامي يقودها في هذا الاتجاه، يفجر ميولها للتشفّي والعظمة ويعبّر عنها، ذلك هوالزعيم الفاشي، إنّها تنساق وراءه وتستسلم له بشكل رضوخي طفلي... يتمّ صبّ العنف على الجماعة الغريبة دون قيد أوضابط تحدث استباحة لها ولكيان أفرادها، الذين يتحوّلون إلى مجرّد أساطير للسوء والشرّ يجب القضاء عليها بإبادتها دون هوادة. ويفتح باب المجازر الدموية على مصراعيه...".

إلى جانب بروز العامل السياسي في المعتقد الراديكالي فإنّه يبرز أحياناً وبشكل خاص لدى الذين يمتلكون طموحات سياسية ونزعة لاحتكار الثروات، فمن أجل ذلك يعزّز الساسة التطرّف لدى بعض المذاهب لتطويعها تحت هيمنتها، فمثلاً بحسب مذكّرات السلطان عبد الحميد([74]) " حسب العُرف العثماني، يتعرّف السلطان على تفكير الرعية وشكواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته وقضاته من جانب، وعن طريق التكايا المنتشرة في ربوع البلاد بمشايخها ودراويشها من جانب آخر، فيجمع كلّ هذه الأخبار ويدير بناء البلاد عليها. جدّي السلطان محمود الثاني وسّع دائرة مخابراته بإضافة الدراويش الرحّل إليها..."؛ لقد سعى الرجل لإفشال محاولة الإنكليز في السيطرة على المسلمين السُنّة في آسيا، عبر إرسال من يُسمّون بالسادة الأشراف وشيوخ الطرق الصوفية

---

[71] ألفريد آدلر؛ الطبيعة البشرية؛ ترجمة: عادل نجيب بشرى؛ الطبعة الأولى 2005م؛ الناشر: المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة؛ ص33.

[72] ناعوم تشومسكي؛ السيطرة على الإعلام/ الإنجازات الهائلة للبروباجندا؛ تعريب: أميمة عبد اللطيف؛ الطبعة الثانية 2005م؛ الناشر: مكتبة الشروق الدولية- القاهرة؛ ص53.

[73] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص179.

[74] مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني. تقديم وترجمة: د. محمد حرب؛ الناشر دار القلم- دمشق؛ الطبعة الثالثة؛ 1991؛ ص158.

والدراويش إليهم لربطهم معنوياً بالسلطنة وضمان استمرارية عدائهم للإنكليز([75]) وبنفس الوقت ضمان استمرار سلطته؛ ونفس الأمر بالنسبة للعديد من الأنظمة والتنظيمات المقتنعة بالثيوقراطية في تاريخنا المعاصر، الأمر الذي خلق تربة خصبة للتطرّف العدواني لا تزال تداعياتها الفظيعة قائمة إلى حدّ الآن في الهند وباكستان وأفغانستان، لقد كان التآمر في سبيل الحفاظ على السلطة، ولم يخدم ازدهار تلك الشعوب وتعرّفها على ثقافة الشعوب المتطوّرة حضارياً في الوقت الذي كان السلطان يرسل أتباعه المخلصين له للدراسة في الأكاديميات الأوروبية السياسية والقانونية والعسكرية، فالعامل السياسي عامل أكثر خطورة من العاملين السابقين لأنّه يعمل على تنمية التطرّف وتوجيهه بشكل منظّم لأهداف مُبيّتة. بالتزامن مع ذلك لعب العامل السياسي دوره في نشوء الحركة الوهّابية وانضمام العشرات إليها في القرن الثامن عشر الميلادي، التي تطرّفت بشكل كبير حيث كانت ردّة فعل للمسحوقين العرب على ظلم مؤسّسات السلطنة العثمانية، وبالغت في تطرّفها من خلال اعتبار من هم داخل الحركة أصحاب الحقّ المشروع ومن تبقّى خارجها يستحلّ دمهم ومالهم وعرضهم، الأمر الذي تسبّب بانتهاكات فظيعة للكثير من الأبرياء، فالحركة سعت للتحرّر من سلطة لإقامة سلطة أخرى بالقووهذا لسان حال معظم المجموعات الإسلامية المتطرّفة التي ظهرت بعدها.

يُلاحظ ممّا سبق أنّ العامل السياسي والأيديولوجي يعدّ الفتيل الرئيسي لانفجار طاقة العنف الكامنة في التطرّف التي تبلورت مسبقاً بفعل العاملين النفسي والاجتماعي، فهوالذي يمنح المعاني الفظيعة لظاهرة التطرّف كوسيلة لتمكين السلطة، ففي جميع الأحوال تشكّل إقامة نظام سياسي ثيوقراطي أوتوليتاري أوفاشي الهدف الرئيسي لأيّ تنظيم متطرّف، بعد أن يقوم الزعماء المتطرّفون السياسيون العلمانيون أوالدينيون أوالقوميون، ذوي النزعة التسلّطية المتطرّفة بقدح هذا الفتيل؛ هؤلاء يتلاعبون بالوعي لإلهاء الأفراد الراديكاليين عن مشاكلهم وتشتيت انتباههم تجاه الحلول الممكنة، وتوجيه طاقتهم نحوأهداف مزيّفة تحقّق طموحاتهم السياسية والمادية؛ بإغراقهم في عالم خرافي تصرف التوتّر الوجودي والعدوانية تجاه المتسلّط([76]). فهم يعتمدون على عملية التنويم بالقوة الذهنية([77]) المجرّدة دون تلامس لإخضاع إرادة الأتباع، كما كان يفعله "الحسن الصباح" زعيم حركة الحشّاشين، فاليأس والإحباط الذي يعانيه المقهورون والمسحوقون والمهمّشون تخفض من حيويّتهم النفسية والذهنية، وتجعلهم في حالة بين النوم واليقظة حيث يحدث تقلّص للحقل الذهني، فالمكبوتون على الدوام لا شعوريون وغير واعين بحسب فرويد([78])، الأمر الذي يسهّل التأثير عليهم بالإيحاء والإغواء ويسهّل تحويلهم إلى متعصّبين، فالمتعصّب إنسان مشبع تماماً

---

[75] نفس المرجع السابق؛ ص148.

[76] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص111.

[77] كولن ولسون؛ التاريخ الإجرامي للجنس البشري/سيكولوجية العنف؛ ترجمة: د. رفعت السيد علي؛ الطبعة الأولى 2001م؛ الناشر: جماعة حور الثقافية- القاهرة؛ ص44.

[78] سيغموند فرويد؛ موسى والتوحيد؛ ترجمة: جورج طرابيشي؛ الطبعة الرابعة- 1986م؛ الناشر: دار الطليعة للطباعة والنشر/ بيروت. ص133.

بالعقيدة حيث ألغى القادة عقله ونقلوا إليه إرادتهم في قهر العدوالمحدّد وتدميره([79])، فمثلاً المجازر الجماعية وعمليات القتل الوحشية التي ارتكبها عناصر تنظيم داعش أومرتزقة الإخوان المسلمين التابعين للدولة التركية أوقوات النظام السوري في المناطق التي احتلّوها من الجغرافيا السورية بحقّ الأطفال والنساء والشيوخ والجرحى، وعلى الرغم من أنّ غالبية مقاتليهم يمتلكون عائلات وزوجات وأطفالًا ولكنّهم كانوا غير مبالين بالمشاعر الإنسانية، ويمتلكون نظرة توحّشية تجاه ضحاياهم تحت تأثير أوامر وتعليمات قادتهم؛ فالجريمة نتاج مواقف ذهنية سلبية، والمواقف السلبية ترجع إلى الاختيارية في آليات الإدراك([80]) التي تستند إلى كيفية فهم الكلمات والألفاظ والمذاهب الفكرية والسلوكيات المقترنة بها، والتي يعدها أحد الباحثين آلية خطرة لأنّها تتحوّل بسهولة إلى سلطات معبودة([81]) حيث ينجذب المقهورون إلى المثالية العامة للكلمات المتناقضة مع الواقع المعاش؛ وهذا ما يجيب عن السبب الكامن وراء عناء مجاهد جزائري أوأفغاني أوغير ذلك للسفر آلاف الأميال لقتال الكرد الذين يعتنقون في غالبيتهم الإسلام السُنّي، بعد أن وصفهم الزعماء الدينيون لهؤلاء المجاهدين المتأثّرين بتطرّف حزب العدالة والتنمية التركي وجماعة الإخوان المسلمين وداعش بكونهم كفاراً تتوجّب إبادتهم، وكانت صدمة بعضهم كبيرة بعد اكتشاف الحقيقة وعادوا أدراجهم خائبين إلى بلدانهم أورحلوا إلى مناطق أخرى، فالبشر بإمكانهم أن يغيّروا حياتهم بتغيير مواقفهم العقلية، خاصة الذين يعانون من القهر، ترى إحدى التحليلات النفسية للمجتمع المقهور([82]) تحت نير سلطة متذرّعة بالدين " يتوسّل المتسلّطون الدين، من أجل ترسيخ العُرف الشائع الذي يخدم مصالحهم قبل كل شيء، ويعزّزون سطوة التقاليد من خلال آيات وأحاديث لا مجال للشكّ فيها، وإلّا تعرّض إيمان الإنسان المغبون للخطر وأمله الوحيد في عزاء دنيا الآخرة للتلاشي... فهم لا يبرزون من الدين سوى الجوانب التي تؤكّد سلطتهم، وتعزّز العرف الشائع والنظام المرتبي...أما الجوانب الثورية في الدين وجوانب التحرّر والابداع والتغيير والعدل والعدالة والتصدّي والشجاعة والجهاد في سبيل الحق وفي سبيل كرامة الإنسان فيُسدَل عليها ستار كثيف من التعتيم. وهكذا يصبح كلّ ما هوعصري يساعد الإنسان على تحرير ذاته وامتلاك زمام مصيره بدعة، وكلّ توكيد على الحقّ والعدالة والكرامة وممارستها زندقة... هذا الجمود يخدم مصلحة فئة ضئيلة تحظى بمعظم الامتيازات...". عندما تنصهر الجماعة في شخصية قائدها المتسلّط، مهما كانت صفته المعنوية والمادية تصبح انفعالاتها وعواطفها وسلوكياتها متماهية مع هذا القائد، بينما نجد العديد من الجماعات المتشتّتة والتي لا تخضع لقائد متسلّط أوتخضع معنوياً لقائد غير متطرّف، تتعايش بسهولة مع جماعة أخرى مشابهة لها أخلاقياً، كمثال أمة مكونة من إثنيات عديدة إلّا أنّها مع مرور الزمن تصنع هويتها السياسية وتصبح مهيّأة للتحوّل إلى التطرّف ببروز قائد متسلّط فيها، وهذا ما يؤكّد على العلاقة العضوية بين شخصية القائد والعامل السياسي في بروز ظاهرة التطرّف.

---

[79] برنار شوفييه؛ المتعصبون- جنون الإيمان؛ ترجمة: د. قاسم المقداد؛ الطبعة الأولى 2017م؛ الناشر: دار نينوى- دمشق. ص91.

[80] كولن ولسون؛ التاريخ الإجرامي للجنس البشري/سيكولوجية العنف؛ ترجمة: د. رفعت السيد علي؛ الطبعة الأولى 2001م؛ الناشر: جماعة حور الثقافية- القاهرة؛ ص147.

[81] إيريك فروم- الدين والتحليل النفسي؛ ترجمة فؤاد كامل، الناشر مكتبة غريب- الإسكندرية؛ بلا رقم طبعة؛ ص41.

[82] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص105.

من ناحية أخرى تلعب التنشئة السياسية دورها في التحوّل إلى التطرّف، فعندما تفتقد البلاد القدرة على تنشئة جيل من الأجيال على أسس الانتماء والشعور بالمواطنة، وتركيز السلطة القائمة فيه على القمع السياسي وتضييق حرية الرأي وتغييب العدالة الاجتماعية والاقتصادية في السياسة الداخلية يزيد من مشاعر الاغتراب في الوطن، وكون عامة الناس لا يجدون سبباً للتورّط في مغامرات خارجية أوعمليات قتل وتعذيب لذا لا بد من تحفيزهم، ولفعل ذلك لا بدّ من إثارة مخاوفهم من خلال التلاعب بوعيهم عبر التضليل الإعلامي والدعائي وبرمجة التنشئة السياسية للأفراد بشكل يخدم سياسة الزعماء، وتشير إلى هذه الحقيقة على سبيل المثال مزاعم الدفاع عن الأمن القومي التركي المتزامنة مع الأسلمة المتطرّفة للمجتمعات الخاضعة للسلطة التركية من قبل نظام أردوغان، لتبرير عمليات الإبادة بحق الكرد ومحاربة الحركات العربية والتركية المتبنّية لكلّ من العلمانية والديمقراطية ومواجهة تنامي الوعي السياسي للشيعة، يبدوأنّه قد نجح نسبياً في هذا السياق بعد استمرار سلطته لأكثر من عشرين عاماً. كما ويُلاحَظ أيضاً عامل سياسي كامن في ظاهرة الصراع بين السُنّة والشيعة وبين طوائف المذهبين، نجد ذلك بشكل جليّ في الحالة السياسية اللبنانية والعراقية. يسلك التطرّف القومي (الشوفيني) هذا المسار أيضاً، هنا من المفيد إبراز موقف شوفيني نابع من الدولة التركية متزامن مع ما يُسمّى "مخطط إصلاحات الشرق" الذي هجّر أكثر من مليون كردي من شمال كردستان إلى مناطق بعيدة غربي نهر الفرات إثر قمع ثورة الشيخ سعيد واعدامه مع رفاقه من القادة الآخرين بعد عام 1925م؛ ففي مقالة نشرتها جريدة (حاكميتي ملّي) التركية([83]) في عددها الصادر في العاشر من حزيران من عام 1930م نموذج حيّ لذلك الأسلوب الشوفيني، إذ كتبت تقول: " لاشكّ في أنّنا نعتبر مثل هذا المطلب- يقصد طلب الكرد للحكم الذاتي- مجرّد هزل، فالشعب الذي تتألّف لغته من مائتي كلمة فقط، والذي يتبع من يشاء، لا يستحقّ أكثر من زاوية في أواسط إفريقيا، أوإحدى صحاريها المسكونة بمخلوقات نصف أجسامها يشبه القرد ليقيم فيها الحكم الذاتي، أمّا آسيا التي هي مهد أقدم الحضارات فإنّها لا تستطيع سماع مثل تلك المطالب". يجسّد هذا الرأي نموذجاً مناسباً لفهم المستوى المضلّل والوحشي الذي تؤجّجه ظاهرة التطرّف بشقّها القوموي، يعكس هذا الرأي المتطرّف نظرة دونية واحتقارية وكاذبة تجاه إحدى الثقافات الأصيلة والعريقة في المنطقة، ويسلب منها حقّ الحياة في وطنها التاريخي، ويعتبر مواطنيها بمثابة مخلوقات غير بشرية، وهذا ما يفسّر عمليات الإبادة الجماعية التي تمارسها الحكومات التركية الشوفينية تجاه الكرد، فهم يغتصبون الحضارة ويحوّلون أنفسهم إلى ممثّلين وأصحاب لحضارة آسيا؛ يبدوأنّ رأي تلك المقالة يستند إلى المقولة الشوفينية التركية الشهيرة التي تعتبر "الكردي الجيد هوالكردي الميّت."؛ نجد مواقف شوفينية مشابهة أيضاً في سياق الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي.

من ناحية أخرى واستناداً إلى نظرية أثر الفراشة([84]) قد تقدم بعض الجماعات المتطرّفة على العنف في زمان ومكان معينين كاستراتيجية للتأثير في إحداث تغيرات سياسية مستقبلية في الأنظمة

[83] د. أحمد كمال مظهر؛ انتفاضة عام 1925م في كردستان تركيا (دراسة تحليلية)؛ الطبعة الأولى- 2001م/ بيروت؛ بلا ناشر؛ ص42.

[84] تأثير الفراشة تعبير مجازي لنظرية صاغها عالم الرياضيات والأرصاد الجوية أدوارد لورنز عام 1961م الذي أكتشف أن المتغيرات الضئيلة نسبياً يمكن أن تحدث نتائج كبيرة في المسار التوقعي للظواهر على المدى البعيد فهوتعبير

الإقليمية، وخلق ظروف أخرى قد تساعد أخوة المعتقد في المستقبل القريب في توفير ظروف أفضل لإقامة تنظيماتهم وتحقيق أهدافهم؛ فنشوء تنظيم داعش جاء بعد سنوات من التداعيات التي نجمت عن أحداث 11 أيلول عام 2001م، والتي بدورها حدثت بعد سنوات من تحوّل أفغانستان إلى بؤرة جهاد عالمي ضدّ السوفييت، والتي حدثت بعد سنوات من نشوء جماعة الإخوان المسلمين، والتي حدثت بعد تأسيس الحركة الوهابية التي قاومت استبداد السلطنة العثمانية...إلخ، ونفس الأمر بالنسبة لتنامي نفوذ التنظيمات الشيعية بعد سيطرة جماعة الخميني على مقاليد السلطة في إيران، بعد الثورة الشعبية التي أطاحت بنظام الشاه في عام 1979م، ونماذج ذلك كثيرة يصعب إحصاؤها. هذا الأمر يشمل أيضاً حركات المقاومة الشعبية المتطرّفة ضدّ الأنظمة الاستبدادية ومقاومة الاضطهاد السياسي التسلّطي، فمقاومة الغزوالفرنسي من قبل جيش العلم الأسود الصيني-الفيتنامي([85]) حوالي عام 1857م والمكّون بشكل رئيسي من الفلاحين، مهّد الظروف اللازمة للمقاومة الفيتنامية الشهيرة ضد الغزوين الفرنسي والأمريكي من عام 1955م إلى عام 1975م، وكذلك نشوء حزب العمال الكردستاني في عام 1978م والنضال الذي خاضه على مدى عشرات السنين ضدّ استبداد الدولة القومية التركية مهّد الظروف المناسبة ليتمكّن الشعب الكردي من مقاومة أفظع عمليات الإبادة الجماعية التي تعرضوا لها في القرن الحادي وعشرين من قبل الأنظمة الاستبدادية القومية- الإسلاموية، الإقليمية ومرتزقتهم من المتطرفين، وهناك العديد من النماذج الأخرى يصعب إحصاؤها أيضاً.

للعامل السياسي حضوره أيضاً في الأعمال الإرهابية المقترنة بالتطرّف، والإرهاب شكل من أشكال العنف قد يلجأ إليه الضعيف لمواجهة مَن هم أكثر قوّة منه، يبدوأنّ الإرهاب بمفهومه اللغوي يمتلك علاقة عضوية مع الطبيعة، حيث تتّخذ العديد من الكائنات من نباتات وحشرات وحيوانات أشكالاً وألواناً وأحجاماً وتصرّفاتٍ معيّنة لإرهاب مفترسيها وهي في حالة سكون دفاعي، وفي حال التعرّض لهجوم تتّخذ بعض الكائنات من العنف بأيّة أداة عضوية في كيانها كوسيلة للدفاع الذاتي تجاه المهاجم، والعنف غير المبرّر يعدّ تعبيراً مباشراً عن التوحّش، والتطرّف في العنف غير المبرّر يعدّ بمثابة الشرّ بعينه وجريمة فظيعة. يعدّ الإرهاب الممارَس بين البشر بحسب المفاهيم التي حاولت تفسيره كعمل أوسلوك عنيف يتسبّب بفزع وخوف لمن يقع عليه هذا العنف بغرض تحقيق أهداف سياسية، معبّراً عن دور العامل السياسي في بروز ظاهرة التطرّف، حتى أصبح مصطلح الإرهاب ملازماً لمصطلح التطرف؛ يمكن تفسير الإرهاب استناداً إلى عشرات التعاريفه([86]) بكونه جريمة سياسية تتّخذ من التطرّف كوسيلة لتمكين السلطة، حيث لا يفرّق فعل

مجازي عن الأثر الذي ينتج عن أي فعل في الكون حتى ولوكان متناهي الصغر مثل رفرفة جناح الفراشة التي يمكن أن تؤدي إلى نشوء إعصار في مكان آخر من العالم أي يمكن أن تشكل الأحداث الصغيرة محفزات لخلق ظروف ملائمة لأحداث أكبر على المدى البعيد وهذا ما يذكرنا أيضا بتأثير الدومينو(أحجار الدومينو) الذي يعبر عن تفاعل تسلسلي يحدث عندما يسبب تغيير صغير تغييراً مماثلاً بجواره والذي بدوره سيحدث تغييراً مماثلا أكبر وهكذا دواليك...

[85] Wikipedia, the free encyclopedia; Black Flag Army; Link: https://en.wikipedia.org/wiki/Black_Flag_Army

Mimir/ موسوعة اللغة العربية؛ قوات العلم الأسود؛ الرابط: https://mimirbook.com/ar/e4d772249b7

[86] للتوضيح راجع: د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م. ص125.

القتل أوالأذى لديه بين الأبرياء وأعدائه من السياسيين والعسكريين، لذلك يصعب أيضاً فصل البراغماتية عن التطرّف والإرهاب؛ لدى سؤال أحد المواطنين لأحد المتطرّفين الانتحاريين من داعش قبل تنفيذه لعملية انتحارية بشاحنة مفخّخة عن الأبرياء الذين سيسقطون كقتلى ومصابين، فكان ردّه بأنّهم سيدخلون الجنة، يبدوأنّه كان مقتنعاً بتأويل تنظيم داعش لفتوى التترّس وفقاً لأيديولوجيته، حيث يُلاحظ مدى الاستهتار بحياة البشر بمن فيهم إخوة المعتقد واللامبالاة تجاه المشاعر الإنسانية.

يبدوأنّ النزعة العدوانية لتنظيم ما تشكّل طاقة جاذبة للمقهورين واليائسين الذين يعانون من حقد وسخط متراكم ويبحثون عن فرصة لانتقامهم بشكل أعمى. هناك تحريف لمفهوم ومصطلح الإرهاب بغرض تضليلي خاصة من قبل الأنظمة والتنظيمات الساعية وراء الهيمنة بشكل متطرّف على بلدان أخرى، حيث تعتبر كلّ مقاومة لنفوذها وتسلّطها إرهاباً، وذلك لإفقاد المقاومة شرعيتها وتبرير إرهابها على الشعوب الأخرى؛ وبنفس الوقت تجريد القوى السياسية التي تحترم حقوق الإنسان وتسعى لضمان الأمن الإنساني لمواطنيها من حق استخدام وصف الإرهاب لأيّة أعمال وحشية تهدّد حالة السلام والديمقراطية القائمة على ميثاق اجتماعي لمجتمعاتها؛ نجد ذلك في الموقف العدواني للدولة التركية بزعامة أردوغان تجاه الإدارة الذاتية الديمقراطية لشمال وشرق سوريا التي تقاوم إرهاب الميليشيات المتطرّفة، كداعش وجبهة النصرة والإخوان المسلمين والدفاع الوطني البعثي، حيث يصف الإدارة بالإرهاب ويعمل بجهد على إفشال أيّ انفتاح سياسي لها مع المجتمع الدولي، ويعمل بنفس الوقت على الاعتداء على مناطق معيّنة من شمال سوريا، حيث قام باحتلال كلّ من عفرين وسري كانييه/رأس العين وكري سبي/تل أبيض، وإجراء عمليات تطهير عرقي فيها كي يزيد من مستوى الخوف من تهديداته للمنطقة ويخيف غالبية السكان لأغراض فاشية وسياسية واقتصادية، وكان هذا شأن تنظيم داعش أيضاً والقوى السياسية والعسكرية السورية التابعة لتنظيم الإخوان المسلمين، علماً أنّ التطهير العرقي سلوك([87]) ينمّ عن عقلية إرهابية موغلة في العنف والوحشية واللاإنسانية.

يقول الإمام الخميني في إحدى محاضراته([88]) "... لا يزال المعسكران الشرقي والغربي متخلفَين في مجال توفير السعادة للإنسان، ومتخلفَين في نشر الفضائل الخلقية، وفي إيجاد تقدّم نفسي روحي مشابه للتقدّم المادّي، ولا يزالون عاجزين عن حلّ مشاكلهم الاجتماعية، لأنّ حلّ تلك المشاكل ومحوالشقاء يحتاج إلى روح عقائدية وأخلاقية... ونحن وحدنا نملك هذه العقائد والاخلاقيات والقوانين..."، وهذا ما يعبّر عن رأي ومنظور قائد شارك في ثورة شعبية أطاحت بنظام الشاه الاستبدادي ليحتكر السلطة لجماعته بعد ذلك، وتصفية أونفي كلّ معارض لسلطته، وخوض صراع أيديولوجي متطرّف مع كلّ من الأنظمة والتنظيمات العربية السلفية والقومية، ومع كلّ من إسرائيل وأمريكا التي وصفها بالشيطان الأكبر والاتحاد السوفيتي التي وصفها بالشيطان

[87] د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م. ص110.

[88] الإمام روح الله الخميني (المرجع الديني الأعلى)؛ الحكومة الإسلامية؛ دروس فقهية تم إلقائها على طلاب علوم الدين في النجف الأشرف تحت عنوان ولاية الفقيه 13 ذي القعدة- 1 ذي الحجة 1389هـ؛ بلا ناشر ورقم طبعة. ص18.

الأصغر. كثيراً ما يكون تطرّف جماعة ما بمثابة ردّ فعل على تطرّف جماعة أخرى، فكلّ جماعة تربط ضمان بقائها بفناء الطرف الآخر أوإبادته، فهناك فوبيا وصراع أزلي بين المعتقدات على احتكار كلّ من الحقيقة والحقّ واليوتوبيا، واتّخاذ تسميات وألقاب ذات علاقة بالتوصيفات العرقية أوالدينية المفعمة بالكراهية والحقد ومشاعر التفوّق الأخلاقي والعرقي، وتتمّ شيطنة الآخر حيث يجسّد الشيطان جميع مظاهر الشرّ والقبح والشذوذ وانعدام الأخلاق، فهوصورة مسخية يتمّ اسقاطها على الآخر المختلف في الدين أوالمذهب أوالانتماء العرقي أوالوطني، هذه الصور النمطية موجودة لدى معظم أصحاب المعتقدات المختلفة، وحتى داخل المعتقد نفسه من خلال الطائفية([89]) حيث يتمّ الحطّ من شأن الخصم بغرض اغتياله معنوياً، وهذا ما يمكن تسميته بالدعاية المتطرفة التي تجعل من الآخر وحشاً مسخاً يستدعي الخوف والقلق منه، الأمر الذي يضع المرء في حالة عدوانية معه كنوع من الدفاع الذاتي تجاه هذا الكائن المخيف، وهذا ما تفعله الدعاية الديماغوجية تماماً في مستوياتها العالية، ويشكّل العنف المتنمّر والمتبادل الخيار الوحيد للمتطرّفين، لإرغام الخصم على الخضوع حتى لوكان شكل العنف المعتمد يتناقض مع قيم الجماعة، والعنف يزيد من التطرّف للجماعة لمواجهة ردّ الفعل الانتقامي للآخر، بالإضافة إلى أنّ المواعظ وتأويل الشرائع والنصوص المقدّسة والقضايا السياسية تأخذ طابعًا ديماغوجيًّا لتبرير المعتقدات والأفعال المتطرّفة، فمثلاً اختلق شرعيوتنظيم داعش تأويلات لتكفير كلّ مَن لا يتّفق معهم لإيجاد تبرير لنهب أموال الناس الذين تم تكفيرهم وفقاً لقاعدة فقهية (الاحتطاب من أموال الكفّار) حيث لوحظ أنّ معظم مَن تمّ نهب ممتلكاتهم هم مسلمون يعتمدون الشهادتين ويتقيّدون بأركان الإسلام والإيمان. لا يستطيع أصحاب المعتقدات المتطرّفة التفريق بين الدين/ الأيديولوجية والتسلّط والعنف، فهم يصنعون أوهامهم ويخلقون المشكلات وينصبون أنفسهم قضاة وحكماء وينفّذون بأنفسهم العقاب. من ناحية أخرى هناك من يعتبر عدم الثقة المتبادل أوالخوف المتبادل السبب الرئيسي للتطرّف كردّ فعل متبادل، فالخوف من الموت الذي يهدّد شخصاً ما أوأحد أعزّاءه قد يدفعه إلى القيام بعمليات قتل وتشويه وتعذيب؛ وتحت اسم حماية نسائه وأطفاله يقوم بفعل القتل أوإلحاق الأذى بالكثير من الرجال والنساء والمسنّين والأطفال لدى الآخرين([90]) "... فالخوف من البرابرة هوالذي يُخشى أن يحوّلنا إلى برابرة...".

من ناحية أخرى كثيراً ما يتم ربط التضحية بالذات بكلّ من التطرّف والإرهاب، فهناك طرف يمجّده تحت مسمّى الشهادة وطرف ينبذه تحت مسمّى الإرهاب([91]). من خلال رصد الثقافات العديدة يُلاحظ أنّ التضحية بالذات وسيلة لتحقيق مجد شخصي، حيث تبجّل الثقافات والديانات الشهداء وتجعلهم أبطالاً اسطوريين، لأنّ من عادة البشر احتقار الجبناء أمام الموت، فهناك تمجيد إنساني وأخلاقي للشهداء، يبدوأنّها غريزة للدفاع عن وجود الجماعة التي يقدّسها الفرد، نلاحظ ذلك لدى فرق الكاميكازي اليابانية في أواخر الحرب العالمية الثانية، والسلوك العفوي لبعض ركّاب الطائرة الرابعة التي اختطفت لتنفيذ العمليات التدميرية في نيويورك في 11 أيلول من عام 2001م

---

[89] نفس المرجع السابق. ص71.

[90] تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى- 2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص12.

[91] للمزيد راجع: د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م.

واستطاعوا هزيمة الخاطفين بإسقاط الطائرة في مكان غير مأهول وبعيد عن مدينة واشنطن، ونجد هذا السلوك الدفاعي في العمليات الفدائية التي قام بها بعض المقاتلين الكرد من وحدات حمالة الشعب والمرأة للدفاع عن مجتمعات شمال وشرق سوريا؛ ولا يمكن نسيان الفدائيين الفيتناميين والفلسطينيين والكُرد وغيرهم، حيث يتمّ اكساب الشهيد هالة روحانية بعد أن تترسّخ لدى الذي يضحّي بذاته قناعة بأنّ موته سيؤدّي في النهاية إلى خير عام. بشكل عام يُعتبَر العمل الفدائي عملاً دفاعياً بامتياز أمّا الهجوم الانتحاري الذي لا يميّز بين الأبرياء المسالمين والأعداء فلا يعتبر إلّا جريمة، كما حدث في التفجير المدمر الذي شهدته مدينة قامشلوفي صيف عام 2016م من قبل تنظيم داعش. كثيراً ما تستغلّ الجماعات المتبنّية للعدوان كإستراتيجية هذه العاطفة لتجنيد الانتحاريين وتضليلهم، بغية تسخيرهم لتنفيذ أعمال عنيفة تخدم دعايتهم وسياستهم وهذا لسان حال معظم الجماعات المتطرّفة الدينية والقوموية، والتي تكفر وتُحقّر أصحاب المعتقدات الأخرى. لذا فإنّه مهما كان صنف ظاهرة التطرّف فإنّ العمل الفدائي في سبيل الدفاع عن وجود المجتمع يندرج في إطار حق الدفاع الذاتي، أما الهجوم الانتحاري في سبيل تحقيق أهداف سياسية تسلّطية فيندرج في إطار العدوان غير المشروع.

4. العامل الاقتصادي.

تشير العديد من الدراسات الأنثروبولوجية استناداً إلى الهياكل العظمية التي تمّ اكتشافها في مناطق مختلفة من العالم، إلى دور العامل الاقتصادي في اندلاع الحروب أوالقتال بين البشر منذ حوالي 12000 سنة مضت([92]) فالجوع الفيزيولوجي يحفّز الوحش الكامن في أعماق كلّ إنسان، وطبقاً لكلّ من كارل ماركس وأنجلز فإنّ الأساس الاقتصادي لأيّ مجتمع يحدّد طريقته الأيديولوجية في التفكير والسلوك([93])؛ لدى رصد معظم الجماعات المتطرّفة نلاحظ أنّ الهدف المشترك لمعظمها هوتحقيق أمن اقتصادي مقونن بأيديولوجيتها، ويُلاحَظ أنّ النسبة الأكبر من المنتسبين لها منحدرون من بيئات فقيرة اقتصادياً ومن دولٍ تعاني من أزمة اقتصادية أوحصارٍ. كما وتعدّ الجماعات المتطرّفة مصدراً اقتصادياً للكثير من العاجزين عن ممارسة نشاطات اقتصادية عامة لتأمين معيشتهم، عدا عن وعودها بتحسين الواقع الاقتصادي البائس في حال وصولها إلى قمّة هرم السلطة، حيث توفّر الجماعة بدلاً مادياً لقاء إخلاص فردها لها من خلال مرتّب شهري، أوإطلاق العنان لعقدة الغنائم عبر النهب والسلب والسبي، أوفسح المجال لضمان مصالح اقتصادية لأفرادها الأغنياء، وهناك جاذبية للتطرّف بالنسبة للعديد من الميسورين مادياً، فمثلاً هنالك قناعة كبيرة بدور تراكم رأس المال الخليجي في تنامي ظاهرة التنظيمات الأصولية المتطرّفة المتبنية للجهاد العنفي في أنحاء مختلفة من العالم، فما يهمّ الغني المتطرّف بالدرجة الأولى بناء المعابد والقيام بأعمال خيرية تخدم معتقده الذي سيضمن مصالحه الاقتصادية في المستقبل لدى نجاح إخوة معتقده في الوصول إلى السلطة.

---

[92] For more see: R. BRIAN FERGUSON; War Before History; Philip de Souza, ed. Thames and Hudson, 2008.

[93] ألفريد آدلر؛ الطبيعة البشرية؛ ترجمة: عادل نجيب بشرى؛ الطبعة الأولى 2005م؛ الناشر: المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة؛ ص40.

من المفيد التذكير بأنّ مقدار الإنتهاكات التي يرتكبها الفرد تزيد من ارتباطه المتطرّف بجماعته كسلوك دفاعي تجاه ردّ الفعل الانتقامي من الضحية، حتى لولم يكن المرء متطرّفاً في أعماقه إلّا أنّ تيّار التعامل المستمرّ مع المتطرّفين سيجرفه نحوالتطرّف وهذا شأن التنظيمات المتطرفة التسلطية، أمّا التنظيمات المتطرفة الثورية فيشكّل العامل الاقتصادي مؤثّراً كبيراً في تحريضها، فسيطرة الأوليغارشيات أوالأنظمة الاستبدادية والشمولية على الاقتصاد ومعاناة السكان من الفقر والبؤس والتخلّف الاقتصادي يدفع باتجاه إعلان الثورة، فالقضية تتمحور حول الدفاع عن الكرامة والوجود، فلا كرامة أووجود بدون أمن اقتصادي وبمقدار ما يتهدّد هذا الأمن يزداد التطرّف الثوري، لذا فالعامل الاقتصادي يتسبّب بمعضلة في التمييز بين المرتزق والمتطرّف (الثائر والمتمرّد)؛ هذا الأمر يتعدّى الصراع بين الجماعات المتطرّفة إلى مستوى الصراع بين الدول المتطرّفة لأيديولوجيتها، كالصراع الاقتصادي بين أقطاب الاشتراكية والرأسمالية في فترة الحرب الباردة وفي الصراع الذي نشب بين ما تمّ اصطلاحه تاريخياً بالشرق والغرب([94])، بين الفرس والإغريق والساسانيين والرومان، وبين العرب والروم، وبين المسلمين والصليبيين والفرس، وبين الأتراك والصفويين...إلخ. يبدوأنّ العامل الاقتصادي يمتلك تأثيراً كبيراً في بلورة العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية في بروز ظاهرة التطرّف، وكأنّه يشكّل الطاقة أوالرابطة التي تنسّق التأثير المتبادل بين هذه العوامل الثلاثة، فالتطرّف كوسيلة للدفاع الذاتي تحرّضه مشاعر الخوف من الأخطار التي تهدّد الأمن الاقتصادي للإنسان، كونه يشكّل عاملًا رئيسيًّا من العوامل التي تضمن غريزة البقاء إلى جانب التناسل والقوة، وكذلك فإنّ التطرّف كوسيلة لتمكين السلطة مكرّسة بالدرجة الأولى للسيطرة على الثروات وإشباع النزعة المتطرّفة لغريزة التملّك. يبقى الأمن الاقتصادي القاعدة الرئيسية لمفهوم الأمن الإنساني إلّا أنّ الكيفية التي يتمّ بها تحقيق هذا الأمن فتتوقّف على كلّ من سعة الحقل الذهني للفرد وما تتضمّن من قناعات، وبما تملي عليه ظروفه الزمانية والمكانية من أفكار وتصوّرات؛ حتى بالنسبة للأغنياء قد يكون العامل الاقتصادي محفّزاً لهم للتحوّل إلى أي صنف من أصناف التطرّف بتحريض من مشاعر المسؤولية تجاه إخوة المعتقد التي تفرض عليهم تقديم الدعم الاقتصادي لهم، أواستغلال تفوّقهم المالي في منافع تزيد من ثروتهم وتشبع جشعهم المتطرّف.

5. عامل التأثير الخارجي.

مع نشوء الأنظمة الدولتية بتحريض من الميثولوجيا ولاحقاً من الدين والعلمانية والليبرالية، منذ عصر حضارة سومر وحتى تاريخنا المعاصر، وتنامي الانقسام النسبي للمجتمع بين طبقتي السادة والعبيد، تنامت النزعة الإمبريالية([95]) لدى طبقة السادة، وسعت لفرض سيادتها بالقوة على باقي المجتمعات الأخرى والسيطرة على مساحات جغرافية أوسع، حيث تركّز السيادة في الاستيلاء والسيطرة على عدّة قطاعات حيوية كاستراتيجية لضمان البقاء لتلك الطبقة كالقطاع الاقتصادي من

---

[94] تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى- 2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص94.

[95] الإمبريالية- Imperialism؛ بمعناها الواسع تتضمن كل أشكال التوسع والسيطرة. وتنطبق بشكل خاص على الأمم التي تسعى للتحول إلى إمبراطوريات... سامي ذبيان وآخرون؛ قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ الطبعة الأولى- 1990م؛ الناشر: رياض الريس للكتب والنشر- لندن.

ثروات وطرق النقل البرية والبحرية وغيرها، والقطاع الثقافي بفرض ثقافة الغاصب على المنهزم سواء أكانت ديانة أولغة أومذهبًا فكريًّا (أيديولوجيا)، إلى جانب تحقيق الذات النرجسية للكيان السياسي الغاصب، من خلال تحويل الانتصارات والمجازر إلى بطولات تعزّز من عقدة تفوّقها العرقي أوالثقافي أوالحضاري([96])، بشكلٍ يبدوأنّه يعزّز من فرضية صدام الحضارات. لمواجهة هذه النزعة سعت العديد من البلدان لتقوية دفاعاتها إلى المستوى الذي أصبحت فيه قادرة على أن تمارس سياستها الإمبريالية تجاه البلدان الأخرى([97]) كالصين وإيران وروسيا وتركيا، لذلك تبدوهذه النزعة انعكاساً لنزعة التسلّط المتجذّرة في عاطفة الإنسان.

لقد أدّت الهجرات البشرية منذ فجر التاريخ والحروب التي شُنّت منذ آلاف السنين وتزايد أعداد البشر إلى عدم تجانس ديمغرافي في جغرافية العالم، وعملت الحدود السياسية التي وضعت في القرن العشرين على حشر عشرات الإثنيات والمعتقدات بنسبٍ متفاوتة في مساحات محدودة نسبياً، الأمر الذي وفّر مناخاً وأرضية للتسابق في إنشاء الدول القومية أوالدينية أوالعلمانية، ممّا تسبّب أحياناً بمعارك رهيبة بين البعض من المختلفين المتناقضين؛ بينما استطاعت بعض البلدان الحفاظ على سلامها الداخلي باعتماد الديمقراطية الليبرالية النسبية والبعض الآخر باعتماد القوة والبطش؛ إلّا أنّ هذا لم يشكّل حلاً مستداماً لتلك البلدان؛ بسبب حمية التنافس الأيديولوجي([98]) بين الجماعات السياسية فيها والمتحرّضة بفعل عوامل نفسية واجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية، فالنزعة الإمبريالية لدى الدول هي نفسها نسبياً لدى العشائر والأحزاب والمذاهب الدينية. تستغلّ بعض الدول هذه النزعة في إحداث فوضى في البلدان التي تعاني من ضعف في مواثيقها الاجتماعية والسياسية، خاصة الدولة الفاشية والتوليتارية والدينية حيث تسيطر أقلية بالقوة على الغالبية، وهذه الغالبية منقسمة أيديولوجياً وبعضها تمتلك قدرات عسكرية، الأمر الذي يضعف من قوّة تلك الدولة لعدم قدرتها على موازنة صراعها الداخلي مع أي صراع خارجي، وهذا يخدم ما تُسمّى بإستراتيجية إسقاط القلعة من الداخل، لأجل ذلك تتبع الدول الساعية وراء الهيمنة سياسية ميكافيللية بإحداث شرخ بين الشعب والسلطة، وتعميقه بتأليب كل طرف على الآخر وبالتالي إحداث فوضى خلّاقة داخل البلد المستهدف بغرض إعادة بنائه بما يتوافق مع مصالحها وأمنها القومي. وهذا ما يطلق عليه اسم استراتيجية "فرّق تسُد"([99]). تكاد معظم دول العالم تعاني نسبياً من نقطة الضعف هذه حتى في الدول التي توصف بالقوية، فمثلاً في ألمانيا هناك النازيون الجدد وفي أمريكا([100]) هناك التنظيمات العنصرية التي تمجّد ما يسمى بالعرق الأبيض وغيرها، حيث سُجّلت فقط في

---

[96] للمزيد حول تحليل العلاقة بين البربرية والحضارة راجع: تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى-2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص19. وص48.

[97] للاطلاع على جانب من حقيقة هذا الأمر من المفيد الاطلاع على: صامويل هنتنجتون؛ صدام الحضارات/ إعادة صنع النظام العالمي؛ ترجمة: طلعت الشايب؛ الطبعة الثانية- 1999م؛ بلا ناشر.

[98] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى-2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص19. ص72.

[99] للاطلاع على هذه الاستراتيجية من المفيد مراجعة: روبرت غرين؛ 33 استراتيجية للحرب؛ ترجمة: سامر أبوهواش؛ الطبعة الأولى- 2009م؛ الناشر: العبيكان- السعودية/ هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- الإمارات؛ ص337.

[100] صامويل هنتنجتون؛ صدام الحضارات/ إعادة صنع النظام العالمي؛ ترجمة: طلعت الشايب؛ الطبعة الثانية- 1999م؛ بلا ناشر. ص494.

الفترة الممتدّة من عام 1990م إلى عام 2000م حوالي 54 هجمة إرهابية داخلية([101]) من قبل المعارضين للحكومة الأمريكية ومفجّري عيادات الإجهاض والإرهابيين البيئيين وغيرهم، ويمكن استجلاء هذا الوضع بالاستشهاد بمقولة المؤرخ الأمريكي ريتشارد هوفستارد "قدرنا كأمّة ألّا تكون لدينا أيديولوجيات، بل أن نكون نحن أيديولوجية."([102])؛ وفي روسيا هناك التنظيمات القومية- الإسلامية من شيشان وداغستانيين وغيرهم، وفي إيران وتركيا ومعظم بلدان الشرق الأوسط الاستبدادية يتكرّر نفس الأمر.

تمتلك الجماعات الدينية المتطرّفة جاذبية كبيرة لدى القوى ذات النزعة الإمبريالية لخدمة أهدافها الاستراتيجية، وذلك لسهولة التأثير فيها وتجنيدها بشكل غير مباشر، فالبلدان التي تعاني من صراعٍ أوتنافس دولي عليها ويحيط بها العشرات من القواعد العسكرية والاستخباراتية للدول القوية كثيراً ما يُلاحظ فيها نشاطاً مكثفاً للتنظيمات المتطرّفة كما في أفغانستان والعراق وسوريا واليمن وغيرها؛ حيث تمتاز هذه الجماعات بقدرتها على استغلال فشل أنظمة الحكم والأيديولوجيات في حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإخفاق في تحقيق التنمية في مختلف المجالات، واستثمارها في خطبها الدينية ذات الصبغة الشعبوية لجذب الأنصار من المقهورين وضمان ولائهم الأعمى؛ فمثلاً هناك اعتقاد راسخ لبعض القادة البريطانيين يعتبر([103]) "...أنّ الإسلام يمكن التلاعب به واستغلاله بشراء قيادته الدينية أوالاحتيال عليها. كانوا باختصار يعتقدون أنّ من يسيطر على الخليفة أياً كان يسيطر على الإسلام السُنّي..." قد يكون هذا الأمر قد ترسّخ لديهم بعد التجارب التي تمخضت عن الحروب الدينية في أوروبا في القرن السادس عشر وحتى عقد معاهدة وستفاليا عام 1648م، وانفصال البريطانيين عن الفاتيكان وإقامة كنيستهم الخاصة بهم (الإنجيليكانية)، حيث نجحت سياسة الإنكليز في إنشاء كلّ من جماعة الإخوان المسلمين([104])([105]) والحركة الصهيونية والأخويات الماسونية الشرقية لمواجهة تنامي الوعي القومي العلماني العربي والإسرائيلي والتركي

---

[101] كيم كراجين وآخرون؛ ما هي العوامل التي تدفع الشباب إلى رفض التطرف العنيف؟ / نتائج تحليل استكشافي تم إجراؤه في الضفة الغربية؛ الناشر: مؤسسة RAND /2015م. ص3.

[102] صامويل هنتنجتون؛ صدام الحضارات/ إعادة صنع النظام العالمي؛ ترجمة: طلعت الشايب؛ الطبعة الثانية- 1999م؛ بلا ناشر. ص495.

[103] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ المركز القومي للترجمة، القاهرة.

[104] يعد جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده الآباء الروحيين لتنظيم الإخوان المسلمين حيث هناك دفاع دائم عن جمال الدين من قبل الإخوان، وقد ذكر السلطان عبد الحميد (الذي يمجده الإخوان في الفترة الراهنة) معلومات عنه في مذكراته حيث يقول " وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنجليزية مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنجليزي يدعى بلنت قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك. واقترحا على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين. كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب... وطلب مني ذات مرة أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى... وكان رجل الإنجليز... ورفضت...". مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني. تقديم وترجمة: د. محمد حرب؛ الناشر دار القلم- دمشق؛ الطبعة الثالثة؛ 1991.
للاطلاع على أحد الآراء التي تدافع عنه راجع الرابط:
https://mubasher.aljazeera.net/opinions/2021/2/13

[105] للمزيد من الآراء حول العلاقة الحالية بين الاستخبارات البريطانية وتنظيم الإخوان المسلمين من المفيد مراجعة: وحدة الدراسات والتقارير (2)؛ الإخوان المسلمون في بريطانيا.. منصات إعلامية ومراكز لنشر التطرف؛ الناشر: المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات- ألمانيا/ هولندا؛ تاريخ النشر: 2021/9/22م؛ الرابط:
https://www.europarabct.com

والفارسي بشكل خاص، وكذلك ضمان سيطرتها على شبه القارة الهندية، حيث يدين الملايين بمعتقدات مختلفة من سيخية وهندوسية وبوذية وإسلامية وغيرها لمئات السنين، يبدوأنّ هذا الأمر تمّ اعتماده أيضاً لدى قادة الحركة الصهيونية تجاه رجال الدين اليهودي؛ وكذلك سياسة العثمانيين من عسكرة الطرق الصوفية، وإصدار فتاوي تبرّر إبادة الإيزديين والمسيحيين والعلويين والإسماعيليين وقتال المسلمين الشيعة، ونفس الأمر يمارسه النظام التركي الحالي بقيادة أردوغان تجاه حركات الإسلام السياسي المعاصرة؛ حتى أنّ بعض المصطلحات العسكرية تستند بالدرجة الأولى إلى هذه الجماعات، كالحرب الهجينة واستراتيجية المنطقة الرمادية واستراتيجية حافّة الحرب واستراتيجية الحرب على الإرهاب وغيرها؛ لذا في بعض المناطق التي تكون ظاهرة التطرّف فيها ضعيفة تنحواستخبارات البعض من تلك الدول إلى تعزيزها فيها، عبر التلاعب بالوعي من خلال التأثير على بنى الإنسان النفسية وبرمجة سلوكه كوسيلة لتغيير آراء الناس ودوافعهم وأهدافهم في الاتجاه الذي تريده السلطة([106])، وهذا ما يندرج في مفهوم الحرب الخاصة أوالحرب النفسية؛ ويمكن الاستشهاد بفترة الحرب الباردة بين السوفييت والغرب([107]) حيث عمل كلّ طرف على إضعاف السياسة الإمبريالية (بمفهومها العام) لخصمه عبر تنمية التطرّف العلماني أوالديني بذريعة الثورة على الاستبداد في بلدان العالم، ومع انهيار الاتحاد السوفيتي استمرّت هذه الاستراتيجية وأصبحت مُمارَسة من قبل جميع الأنظمة الدولتية تقريباً في إطار ما يسمى بالفوضى الخلّاقة([108]) لتمكين السلطة والهيمنة؛ ويمكن ملاحظتها بوضوح في الحرب الروسية- الأوكرانية. حيث يتمّ حشد القوى المتطرّفة في تنظيمات وتأمين التمويل والتسليح بشكل غير مباشر؛ وأمثلة ذلك كثيرة، كسياسة بعض الدول الغربية من الدعم غير المباشر لإنشاء تنظيم القاعدة([109]) لمواجهة كل من التمدّد الشيوعي وتنامي المشاعر الإيجابية لدى مسلمي آسيا الوسطى تجاه مبادئ الديمقراطية والعلمانية، بالإضافة إلى استثمار تداعيات المعارك التي تسبّب بها تنظيم داعش لخلق فوضى خلاقة في الشرق الأوسط؛ وكذلك هناك سياسة التشيُّع وفق أيديولوجية الخميني([110])؛ وسياسة الأسلمة المتطرّفة للمجتمع لتسهيل السيطرة عليه من قبل النظام العراقي السابق الذي أطلق الحملة

---

[106] سيرجي قره-مورزا؛ التلاعب بالوعي؛ ترجمة: عياد عيد؛ الناشر: الهيئة العامة السورية للكتاب/ وزارة الثقافة- دمشق 2012م. بلا رقم طبعة. ص66.

[107] للمزيد راجع: د. شاكر عبد الحميد؛ التفسير النفسي للتطرف والإرهاب (مراصد- كراسات علمية 37)؛ الناشر: مكتبة الإسكندرية- مصر/ 2017م؛ ص107.

[108] مفهوم الفوضى الخلاقة. ربما يعتقد الكثيرون أنَّ مُصطلح الفوضى الخلاقة مصطلح جديد ظهر بعد التفرد الأمريكي بزعامة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، والواقع أنَّ المصطلح ظهر لأول مرَّة عام 1902 م على يد المؤرخ الأمريكي تاير ماهان - Alfred Thayer Mahan، ليتوسع فيما بعدها مايكل ليدين - Michael Ledeen ويسميها الفوضى البنَّاءة أوالتدمير البناء وذلك بعد أحداث سبتمبر بعامين في 2003، وهذا يعني الهدم، ومن ثم البناء، ويعني هذا إشاعة الفوضى، وتدمير كل ما هوقائم، ومن ثم إعادة البناء حسب، المخطط الذي يخدم مصالح القوى المتنفذة، وقد يكون أكثر المفكرين الذين تحدثوا عن هذا الأمر هوالأمريكي اليميني صامويل هنتنجتون - Samuel P. Huntington صاحب نظرية صراع الحضارات...".
نظرية الفوضى الخلاّقة - Creative Chaos Theory؛ الموسوعة السياسية (الإلكترونية)؛ الرابط:
https://political-encyclopedia.org/dictionary/

[109] مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ الناشر: المركز القومي للترجمة، القاهرة؛ ص272.

[110] تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى- 2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص105.

الإيمانية بعد هزيمته في حرب الخليج الثانية عام 1991م وهي سياسة اتبعها معظم قادة الأنظمة الشمولية التي تحكم البلدان العربية والإسلامية([111])، وتمارسها الدولة التركية الحالية بقيادة حزب العدالة والتنمية.

يمكن للعامل الخارجي أن يلعب دوره في تنامي ظاهرة التطرّف في بلدٍ ما([112]) عندما يتعرّض أخوة المعتقد في بلدانٍ أخرى للاضطهاد بدعم من قوى خارجية، وتشكّل الخطابات المتعاطفة مع القضية الفلسطينية دليلاً على هذا الأمر فمعظم دعايات التطرف تركز على قدسية القضية الفلسطينية بالنسبة لها، كما أنّ استراتيجية " الحرب ضد الإرهاب" التي تسبّبت بشنّ عمليات عسكرية على عدد من البلدان، أدّت إلى وقوع عشرات الآلاف من الضحايا الأبرياء بالتزامن مع انتشار مشاهد للانتهاكات في كلّ من سجون غوانتناموأبوغريب جعلت العديد من المسلمين يشعرون بالإذلال، الأمر الذي عزّز من مشاعر الحقد والرغبة بالانتقام اللذان يعدّان من الدوافع الرئيسية للجنوح نحوالتطرّف. وهناك مصلحة لبعض الدول في نشوء بؤر توتّر متطرّفة للتخلّص من المتطرفين لديها بإرسالهم إلى المناطق المتوتّرة لتصفيتهم أواستخدامهم كمرتزقة في حروب بالوكالة كالمقاتلين الأجانب في صفوف تنظيم داعش، الذي يعدّ نتاج عملية تهجين أيديولوجي لفكري حزب البعث وتنظيم القاعدة؛ حيث هيّأت الحملة الإيمانية التي قام بها النظام العراقي السابق واحتلال العراق قبل وبعد عام 2000م التربة الخصبة لها. في هذا السياق تسعى بعض الدول الغربية الحليفة للدولة التركية حالياً إلى إضعاف حزب العمال الكردستاني، بدعم الحرب الهمجية التي تشنّها الدولة التركية على مواقعه العسكرية والثقافية بالتنسيق مع التنظيمات المتطرّفة الموالية لها في سوريا والعراق، حتى أنّه غض النظر عن استخدام الجيش التركي للأسلحة الكيماوية ضدّ المقاتلين الكرد في جبال كردستان، والذي يشكّل انتهاكاً لاتفاقية حظر استحداث وإنتاج وتخزين واستعمال الأسلحة الكيميائية وتدمير تلك الأسلحة([113]) بخلاف موقفها العملي من اتّهام النظام السوري باستخدام أسلحة كيميائية ضدّ المعارضة، قد يكون الغرض الكامن من وراء ذلك هوالحفاظ على الفوبيا الكردية التي تعانيها بعض الأيديولوجيات وأنظم الحكم الإقليمية، وبنفس الوقت محاولة إرضاخ حركة حرية كردستان وتقليص شعبيتها بين المجتمعات الكردستانية، لفسح المجال لنموالأصولية الدينية الكردية بدعم من نظام أردوغان وأتباعه من بعض الأحزاب الكردية لأهداف استراتيجية، أبرزها توفير الأدوات اللازمة لتطويع دولة إيران، وضمان الهيمنة على الدولة التركية في حال وصول حكومة وطنية إلى سدّة الحكم فيها، وخلق حالة يمكن التحكّم عبرها بإحداث فوضى خلّاقة تحت سيطرتها. يبدوأنّ هذه الاستراتيجية تمّ اتباعها أيضاً بشكل نسبي في سياق الأزمة السورية؛ حيث استطاع النظام السوري تحريف صراعه مع انتفاضة الشعب في سبيل مطالب مشروعة بالديمقراطية والعدالة إلى صراع مع أصولية إسلامية متطرّفة تدعولإقامة نظام

---

[111] للاطلاع على المزيد من نماذج أنظمة الحكم التي اعتمدت هذه السياسية من المفيد مراجعة: مارك كورتيس؛ التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين؛ ترجمة كمال السيد؛ الطبعة الثانية 2014م؛ الناشر: المركز القومي للترجمة، القاهرة.

[112] تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى-2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص97.

[113] يمكن الاطلاع على هذه الاتفاقية على الرابط:

https://www.opcw.org/sites/default/files/documents/CWC/CWC_ar.pdf

ثيوقراطي، وذلك بعد أن أفرج عن مئات المتطرّفين، لعلّ أبرزهم أبومحمد الجولاني وأبومصعب السوري، حيث استطاع بذلك مهادنة الغرب وإعاقة سقوط نظامه وتحويل النسبة الأكبر من مقاتلي المعارضة إلى مجموعة من المتطرّفين والمرتزقة المتحالفين مع أعداء البلاد الذين يسعون لاحتلاله؛ الأمر الذي يسهّل من عملية إبادتهم دون مساءلة وتقديم نفسه كأهون شرّ لعامة المواطنين السوريين.

إنّ المجتمعات المقهورة وذات البيئات الفقيرة والمتخلّفة، وتلك المنقسمة من ناحية الانتماء العرقي والديني والطائفي؛ تكثر فيها الجماعات المتطرّفة، فعجز الإنسان المقهور عن مقارعة السادة المستبدّين يدفعه غريزياً لتوسّل أومناجاة قوّة روحانية تلطّف من خشونة حياته، وتوفّر له ملجأ عاطفياً يحرّره من المشاعر السلبية التي قد تهدّد حياته في حال تحرّرها من كيانه على شكل سلوك عنيف، وهذا ما توفّره الأيديولوجيات الدينية/الطائفية التي يبدوأنّها تتحوّل إلى أيديولوجيات للحرب؛ كما أنّ الاستغلال الماهر للعامل الاقتصادي من قبل القوى الراغبة بالهيمنة، بالحصار أوبالعقوبات أوبالاحتكارات أوبأشكال أخرى، يشكّل المرتكز الداعم لعامل التأثير الخارجي، وتذليل المعوّقات التي تعترض مسعاه في استغلال العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية لبلورة حالة من التطرّف المنظّم المنشق عن الميثاق الاجتماعي والأخلاقي لمجتمعات البلد الواحد، وتزيد من التوتّر بتغذية النعرات وتأجيجها، وهذا ما يقودنا إلى التأمّل في سيكولوجية الإنسان المقهور ويمكن أن نجد تفسير ذلك لدى الباحث مصطفى الحجازي([114]) الذي يشير إلى أنّ "... المجتمعات المتخلّفة تبيّن بجلاء انقسامات داخلية شبه أكيدة، في كلّ منها ينقسم السكان إلى جماعات وطوائف مختلفة الانتماءات العرقية أوالقومية أوالدينية متصارعة فيما بينها... بالطبع يستغلّ المتسلّط الخارجي الذي يريد إحكام سيطرته على المجتمع هذه التناقضات، مفجّراً إيّاها أومهدّداً بهذا التفجير من أجل فرض رغباته التي تذهب عادة في اتّجاه الاستغلال. وهويغذّي هذه النعرات ويذكّي جذوتها، مما يجعل بلدان العالم المتخلّف مهدّدة دوماً بانفجار العنف على شكل حروب أهلية (عرقية أوطائفية) تطغى عليها إجمالاً المجازر الدموية التي لاتقف... وبالطبع يتواطأ الزعماء المحلّيون مع المتسلّط الخارجي لإحكام سيطرتهم على الجماعة وربطها بهم، ممّا يمكّنهم من الاحتفاظ بنفوذهم وامتيازاتهم تحت وهم الدفاع عن وجود الجماعة ومصالحه الحيوية ضدّ التهديد الخارجي..."؛ لذلك فإنّ أكثر ما يدعم عامل التأثير الخارجي هم الزعماء ذوي النزعة التسلّطية، الدينية أوالشوفينية، الذين يمتلكون نظرة دونية مع مشاعر وطنية ضعيفة تجاه مجتمعاتهم، ولا يفوّتون أيّة وسيلة مضلّلة أوقمعية لتمكين سلطتهم وتكديس ثرواتهم وخلق هالة مقدّسة حول ذواتهم كالفاشيين وأشباههم، حيث يبرّرون الفشل في تحقيق تنمية اقتصادية للبلاد بتآمر أعداء خارجيين، ولضمان منع أية قوّة خارجية من دعم القوى المعارضة في داخل البلاد يعملون على عقد صفقات، على شكل تحالفات واتفاقيات، مع دول قوية مقابل امتيازات متبادلة بين الأوليغارشية المحلّية وتلك الدول، وهذا ما يشكّل رشوة متبادلة لإقامة هدنة تستمدّ ديمومتها باستمرار الظروف التي تستلزم وجودها، حيث تشكّل علاقة مشيخة قطر مع بعض الدول الغربية واستضافة قواعد عسكرية على أراضيها نموذجاً

[114] د. مصطفى حجازي؛ التخلف الاجتماعي/ مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور؛ الطبعة التاسعة 2005م؛ الناشر: المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء- المغرب/ بيروت- لبنان. ص179.

يمكن الإشارة إليه في هذا السياق؛ أمّا بالنسبة للشعوب التي تعتز بثقافتها وتصارع سلطة شمولية مهما كان شكلها ولا يمكن أن تخضع بسهولة لهيمنة قوىً أكبر، تلجأ هذه القوى قبل سقوط نظام الحكم الفاسد إلى استمالة السلطة وابتزازها، بالترغيب والترهيب، فهيمنتها على السلطة تضمن هيمنتها على ثروات وسياسة البلاد، نفس الأمر تتبعه السلطات لتمكين هيمنتها تجاه الزعماء المحلّيين من الوجهاء والشيوخ ورؤساء الأحزاب والنقابات وكبار التجّار وغيرهم؛ هذا المناخ الاستبدادي يتسبّب بتراكم المشاعر العنيفة لدى عامة الناس، والتي تنتج عن كبت متواصل والشعور بعدم الأمن، والإذلال، والسخط العام والحقد، هذا السياق يجعل من التطرّف نوعًا من التنفيس الانفعالي للمشاعر السلبية، وتشكّل دافعاً يقود الأفراد والجماعات نحوتبنّي العنف كاستراتيجية لحلّ الصراع، وهذا ما يعبّر عن جاذبية الخطاب الشعبوي للتطرّف، هنا يُلاحَظ أنّ الخطاب الدعائي الديني([115]) لتحريض عقيدة القتال يأتي بعد ترسّخ قناعة لدى بعض المتطرّفين بظلم الواقع المُعاش فيتعاطفون مع السكان المقرّبين منهم، الذين يعانون من البؤس بسبب ظلم الطبقات الحاكمة التي تحظى برعاية دولٍ قوية وتعيش في البذخ والفساد، لذا يأتي الحقد قبل تنامي المشاعر الدينية المتطرّفة التي يبدوأنّ دورها ينحصر في تشريع أعمال العنف، وهذا ما يوفّر فرصة لآخرين من أصحاب الطموحات السياسية المتطرّفة للبروز كمنقذين وتحوّلهم إلى قوّة يصعب تذليلها، حيث يتّخذون من شعار "حتمية صدام الحضارات"([116]) مصدر إلهام لأيديولوجيتهم بالاستناد إلى مزج الحقد مع نصوص مقدّسة تمجّد العنف في حالات معينة، وهذا ما يشكّل الشرارة لاندلاع حربٍ رهيبة تحت مسمّى الحرب المقدسة، يشارك تطرّف الجميع المتصارع في تأجيجها من دول وجماعات وزعماء وأفراد؛ باختصار يقوم هذا الشكل من التطرّف بتوجيه الكراهية نحوالأفكار إلى الأشخاص الذين يتبنّونها، ويتمّ تبنّي نظرية المؤامرة من قبل الجميع لتبرير الفشل في تحقيق السلام والتضامن الإنساني، وإشعال العنف الدموي.

أخيراً.

بشكل عام يمكن الجزم بوجود إشكالية في تحديد العوامل المولّدة للتطرّف والإرهاب، فكلّ باحث أوصاحب رأي ينظر إليها من خلال تخصّصه واهتمامه، أحياناً بذهنية ذاتية وأحياناً أخرى بذهنية موضوعية ولكن بشكل نسبي، فهناك من ينظر إليها من الزاوية السيكولوجية وهناك من ينظر إليها من الزاوية الأخلاقية، وهناك من ينظر إليها من الزاوية السياسية وهناك الزاوية الاقتصادية والثقافية وغيرها؛ فالسيكولوجي ينظر الى التطرّف والإرهاب والعنف باعتباره تعبيرًا انفعاليًّا يتجاوز ضبط العقل والمعقول والواقع، ويتّخذ بعض الأحيان شكل العنف والعدوان، فهونوع من السلوك الذي ينتج عن حالة الإحباط أوالهواجس أوالمخاوف التي يصاحبها التوتّر والاستنفار العصبي، الذي قد يفضي إلى إلحاق الضرر بالآخرين، فهي تصيغ سلوكاً مشحوناً بالانفعال المتّسم بالغضب والهيجان والمعاداة، حيث تسيطر نزعة الهدم والتدمير بدل نزعة صون الحياة تجاه العدوالذي يتّخذ توجّهاً مماثلاً وذلك من وجهة نظر التحليل النفسي. أمّا النظرة الفلسفية

[115] تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى- 2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص96.

[116] نفس المرجع السابق؛ ص95.

والأخلاقية والقانونية فهي تراه سلوكاً يعتدي فيها طرف على حرية وحقوق الآخر واستلاب[117] معنوياته وقيَمه، أمّا السياسي والاجتماعي فإنّهما يعتبرانه أسلوبًا تُستخدَم فيه القوة والعنف لهدم سلطة قائمة، بهدف الحصول عليها أوالحفاظ عليها لتحقيق منافع معيّنة وأهدافٍ مشروعة أوغير مشروعة، وعالم الاجتماع يربط التطرّف بالأوضاع الاجتماعية التي ينشأ فيها الصراع بين الطبقات الاجتماعية ذات المصالح المتنافرة، وهناك الكثير من الآراء الأخرى.

يُلاحَظ في هذا السياق أنّ التطرّف والحرب أمران متلازمان نسبياً، والحروب تحرّكها الرغبة في الاستيلاء على ثروات الجيران، وممارسة السلطة، وحماية الذات من التهديدات الحقيقية أوالموهومة؛ باختصار إنّ لها أسباباً سياسية واجتماعية واقتصادية وأمنية-ديمغرافية[118]، وهناك بعض الدراسات العامة للراديكالية[119] تشير إلى خمس عوامل تحفيزية، وهي مجموعات النظراء- أي التطرّف كردّ فعل تجاه تطرّف الآخر- والمظالم الشخصية والأهداف الثورية والمنافع الشخصية والمعنى المقدّس، حيث يلعب اليأس دورًا في تحفيزها.

استناداً إلى ما سبق وإلى بعض المعلومات التي تمّ الاطّلاع عليها بعد إجراء مقابلات مع بعض المتطرّفين في الماضي القريب، يمكن القول بأنّ التطرّف يهيمن على عقل وعاطفة الإنسان في الظروف التي ينعدم فيها أمانه المادي والمعنوي، حيث يحتاج إلى قوّة معنوية تدعم عقيدة قتاله في سبيل تحقيق أمنه الإنساني بالشكل الذي يعتقد على أنّه الصواب من وجهة نظره التي تتبلور استناداً إلى شكل تفاعله مع ظروف بيئته التي يحدّدها كلّ من وسطه الطبيعي، ووسطه البشري المحيط من أحبّة وأصدقاء ومنافسين وخصوم ومتسلّطين وأعداء؛ وثقافته الموروثة أوالمكتسبة؛ ويبقى الموقف الإيجابي أوالسلبي من التطرّف نسبياً، وستستمرّ عاطفة تمجيد تطرّف ما وشيطنة تطرف آخر إلى أن تضمر نزعات العدوان والحقد والتسلّط والاستعباد بين بني البشر، حتى أنّ هناك بعض المفكرين المهووسين بالخيال العلمي يجدون أنّ تحقيق هذا الضمور سيتمّ بهيمنة الآلات الذكية (الروبوتات) على الحياة أوالتعرّض لغزومن كائنات فضائية، وهناك بعض المتديّنين يرغبون باستعجال قدوم يوم القيامة، وهناك بعض العلمانيين المتفائلين يرغبون بإقامة أمّة ديمقراطية عالمية؛ يبدوأنّ هذه الرغبات تندرج في قائمة الأماني إلّا أنّها تبرز جانبًا إنسانيًّا يحاول التخلّص من هذه العقدة الخطيرة التي تهدّد الوجود الإنساني.

---

[117] يمكن تعريف الاستلاب بأنه وقوع الكائن العاقل، الذي يمتلك حيزاً من التفكير العادي، والمتفاعل مع محيطه بالضرورة، في موقع الأسر الكلّي، وشبه المطلق، لفكـرة ما، أولمقدرة أكثر تأثيراً من مثيلاتها، بحيث تكون اللولب الجوهري الذي تدور في فلكه كلّ المسمّيات الأخرى... للمزيد عن مفهوم الاستلام من المفيد مراجعة مايلي:
عماد يوسف؛ مفهوم الاستلاب العقلي، الفكري والثقافي رؤيا في نهج الاستلاب؛ الناشر: الحوار المتمدن- العدد 3271- 2011/2/8؛ الرابط:
https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=245128

[118] تزفيتان تودوروف؛ الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات؛ ترجمة: د. جان ماجد جبور؛ الطبعة الأولى- 2009م؛ الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)- أبوظبي؛ ص102.

[119] كيم كراجين وآخرون؛ ما هي العوامل التي تدفع الشباب إلى رفض التطرف العنيف؟ / نتائج تحليل استكشافي تم إجراؤه في الضفة الغربية؛ الناشر: مؤسسة RAND /2015م. ص5.

التطرف وتصدع المجتمعات

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

التطرّف وتصدّع الروابط المعنوية للمجتمعات:

يمكن لأيّ شخص زائر لمّخيم الهول في مقاطعة الحسكة أن يُلاحظ تغيّرات بنيوية في كيان المجتمع المحلّي، ففي المخيّم يمكن مشاهدة المجتمع الذي أوجده تنظيم داعش، نساء متّشحات بالسواد ورجال بائسون وأطفال هائمون على وجوههم يقطنون في خيم أمّنتها لهم إدارة المخيم مع خدمات تتناسب مع الإمكانيات المتاحة؛ تفضح نظراتهم ما بداخلهم من كراهية وحقد وعدوانية تجاه من يقع خارج حدود عالمهم المعنوي، يطلقون على هذا العالم الخارجي تسمية (ديار الكفر)؛ لقد انشقّوا عن عشائرهم ومجتمعاتهم ولا يتوانى المتطرّف منهم عن تنفيذ عملية قتل وعنف تجاه مخالفيه؛ يبدو أنّ كهنتهم لا يكترثون كثيراً لمعاناتهم بل يصرّون على صوابية أيديولوجيتهم، وهذا ما يُعميهم عن الأخطاء الاستراتيجية التي وقعوا فيها، قد يكون لهذا الأمر دور في عدم قدرتهم على الانطلاق مجدّداً إلّا أنّ هذا يغذّي خيالهم بنوع مخادع من اليوتوبيا التي ألّفها لهم قادتهم الغامضون، ويُبقي المجال مفتوحاً لانطلاقة أيديولوجية قد تكون أكثر تطرّفاً؛ بينما خارج المخيّم يمكن ملاحظة حياة اجتماعية أكثر تسامحاً، حيث حافظ الناس على نمط حياتهم المحافظة بشكل نسبي إلّا أنّهم بدورهم يتعرّضون لمؤثّرات طارئة بفعل عوامل ذاتية تفرضها ما تتعرّض له المنطقة من تداعيات الأزمة السورية من تدهور الاقتصاد المحلي والهجرة والنزوح الداخلي، وتأثّر توجّهاتهم بأفكار مختلفة، قوموية ودينية متشدّدة وعلمانية- ديمقراطية، يتعرّضون لها بمختلف الوسائل، بالإضافة إلى عوامل موضوعية تفرضها كلّ من الجفاف والسياسات الإقليمية لكلّ من تركيا وإيران، وكذلك التنافس على الهيمنة من قبل كلّ من أمريكا وروسيا؛ هذه الأمور فرضت نمطاً من الحياة المتطرّفة على شريحة واسعة من السكان، وتسبّبت ببروز إشكالية في المفهوم العام للتطرّف وتصنيفه كوسيلة للدفاع الذاتي عن الهوية الإثنو- ثقافية والتطرف كوسيلة لتمكين التسلط، وأصبحت العديد من الذهنيات مشتتة ما بين النسبوية والدوغمائية الأمر الذي تسبّب بتصدّع في الثقافة الجامعة للمجتمعات المحلية، هناك محاولات لتدارك هذا الأمر من قبل بعض النخب المحلية في المجلس التشريعي لشمال وشرق سوريا ،عبر صياغة عقد اجتماعي جديد للمنطقة كاستجابة للميل الطبيعي للمجتمعات نحو الإدارة الذاتية لشؤونها في حال استشعارها خطر الوقوع تحت هيمنة قوة أخرى تسعى لإبادتها مادّياً أو معنوياً. هذه التوجّهات تطرح افتراضاً يشير إلى أنّ التطرف يتسبّب بتمزيقٍ في المواثيق والروابط المعنوية بين المجتمعات المحلية، ويضعف عقيدة القتال في مواجهة القوى الراغبة في الهيمنة والتسلّط على هذه المجتمعات بحجّة إقامة مجتمع المدنية، إلّا أنّها تصهر المجتمع داخل بوتقة أجهزة العنف والاستغلال، وتحوّله إلى مصدر للموارد ومن ثم استثماره إلى

حين نفاذه تدريجياً كما يرى المفكر أوجلان؛ وهذا ما يفرض تسليط الضوء على كلّ من حيوية العلاقة بين المجتمعات البشرية ودور التطرّف كوسيلة لتمكين التسلّط في إضعاف الثقافة المجتمعية وتسهيل تطبيق مخطّطات الهيمنة.

حيوية العلاقة بين المجتمعات البشرية.

المجتمع كما هو معلوم عبارة عن مجموعة منظّمة من الأفراد، تربط بينهم روابط اقتصادية وثقافية تجمعهم في جغرافية واحدة ونمط تفكير متشابه، مؤطّرة بعلاقة قرابة بيولوجية أو مادية أو معنوية. هذه الروابط تصيغ الهوية الاجتماعية للمجموعة. قد يفقد أيّ إنسان لهذه الهوية أو يتخلّى عنها لدوافع أيديولوجية، أو تقوده الحاجة الاقتصادية أو الضغوط السياسية بعيداً عن مجتمعه وديارِه، أو قد يتمسّك بها إلى حدّ التطرف. هنالك عدّة تصنيفات للمجتمعات بعضها ترتكز على الاقتصاد وأخرى على الأيديولوجيا أو الثقافة وبعضها الآخر على العِرق، وهناك من يصنّفها على أساس الموقع الجغرافي؛ هذه التصنيفات تستند إلى صيغة الميثاق المعنوي الذي يجمعها وينظّم شكل العلاقة بينها. تعدّدت الفرضيات حول تطوّر العلاقة بين المجتمعات البشرية بدءاً من المجموعات البدائية (الكلان)، بعضها يربط هذا التطوّر باكتشاف النار، وهناك من يربطه بالثورة الزراعية وتدجين الحيوانات وتطويع المعادن، وهناك من يربطه بظهور الطوطمية ومن بعدها الأديان التي تسبّبت بتطرّف نزعة القتال لدى البشر، وكذلك لا يمكن تهميش التفاعل بين الجغرافيات الثقافية والسياسية والاقتصادية في تطوّر المجتمعات البشرية؛ قد يكون ما تمّ ذكره تأكيدًا آخر على كون الإنسان كائنًا اجتماعيًا بطبعه، كما يقول ابن خلدون وغيره من الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع.

عاشت المجتمعات المحلية منذ آلاف السنين بجوار بعضها، كانت الدوافع الطبيعية المتحكّمة بحياة الإنسان المتمثّلة بتأمين الغذاء والتناسل والحماية الضابط للعلاقة بينها، وشكّلت الصيغة الأولى من العقيدة الأمنية المرتبطة بواقع التهديد ومدركاته، حيث نجدها أحياناً تتحالف مع بعضها لمواجهة أحلاف أخرى لحماية الديار وتأمين المراعي والأراضي الزراعية وموارد المياه وطرق التجارة وغيرها؛ تشكّل العشائر الكردية أبرز نموذج يعبّر عن هذه المسألة، فالبعض من المجتمعات المسيحية والإيزدية والمسلمة، والكردية والعربية، والرعوية والزراعية قد تتّحد في عشيرة واحدة وبقيادة شخصية ماهرة بموجب ميثاق معنوي بينهم، وأبرز نموذج على ذلك العشيرة الملّية في روجآفا، حيث يُلاحظ أنّ هذا الميثاق حيّد مشاعر الحقد بين المسلمين من طرف والمسيحيين والإيزديين من طرف آخر على الرغم من المجازر التي تلقّوها على أيدي بعض المسلمين بتحريض من العثمانيين؛ تمكّنت هذه المجتمعات بشكل نسبي من تأمين إدارة وحماية ذاتية لها ضد هجمات العشائر الأخرى واستبداد السلطات العثمانية، حتى أنّها حاولت في القرن الثامن عشر إنشاء إمارة خاصة بها؛ وتسبّب صعود الأيديولوجيات القومية والدينية منذ الحرب العالمية الأولى بفقدان هذه العشيرة لقوتها وتشتتها في نهاية المطاف بعد الاحتلال التركي الأخير لسري كانييه/رأس العين في صيف عام 2019م.

هناك إشكالية في طبيعة العلاقة بين المجتمعات المتجاورة والمتباعدة. قديماً شكّلت المقايضة كأسلوب للتعاون الاقتصادي وسيلة للتفاهم والتواصل فيما بينها، ولكن مع التدهور التدريجي للمناخ وبروز خطر المجاعات وعدم قدرة المجموعة البشرية الواحدة على ضمان أمنها الإنساني خاصة في مجال تأمين موارد المياه والغذاء، بدأت هذه العلاقة تأخذ منحىً آخر لتبرز التحالفات لمواجهة التحالفات الأخرى، الأمر الذي أدّى إلى تشكيل مجتمع آخر من كتلة المجتمعات المتحالفة، لتنقرض مجتمعات وتولد مجتمعات أخرى، وهكذا دواليك، في هذا السياق يمكن ملاحظة تطوّر الأيديولوجيا في مراحل هذه العملية، من خلال تنامي مفهوم السلطة كقوة تفرض إرادتها على حساب مفهوم الإدارة كقوة تنظّم استثمار الموارد الطبيعية والبشرية والاقتصادية. حاول حكماء البشر إيجاد قواعد وضوابط لحماية المجتمعات بإنشاء الأمم من خلال إنشاء عالم ذهني وثقافي مشترك، والعيش بسلام فيما بينها وفقاً لميثاق معنوي أو مادي يضمن الأمن الإنساني لأفرادها ويطوّر خصوصيتها الثقافية، لعلّ هذا ما يشكّل جوهر مفهوم الأمة، والشعب، والوطن الفيدرالي والكونفدرالي؛ وعقد ميثاقاً مشابهاً مع الأمم الأخرى، فنرى في تاريخنا المعاصر الاتحاد السوفيتي السابق، وهيئة الأمم المتّحدة والاتحاد الأوروبي ومجلس التعاون الخليجي ومنظمة شنغهاي ومنظمة التجارة العالمية والعديد من الأحلاف العسكرية والمجالس الشعبية والبلدان الفيدرالية وغيرها.

على الرغم من أنّ العديد من الأيديولوجيات تسعى وراء إقامة أمّة عالمية تحت شعار (شعب واحد، علم واحد، لغة واحدة) إلّا أنّها تصطدم بظاهرة التنوّع الطبيعي للثقافات الخاضعة لتفاعل فكر الإنسان مع الجغرافيا والمناخ والتكنولوجيا، ويكاد معظم البشر أن يكونوا مقتنعين بأنّ ثقافتهم التي قاومت العديد من الأزمات منذ مئات السنين هي الضمانة لأمنهم الإنساني، يستدلّون على ذلك بنجاح استمرار نسل أسلافهم والتغنّي بحكاياتهم وأساطيرهم، فهي تعدّ بمثابة هوية وجودية لهم كونها تعدّ "مجموع كينونات المعاني والبنى التي كوّنها المجتمع البشري على مدار السياق التاريخي... أنّها عالم المعنى لدى المجتمع، وقانونه الخُلُقي، وذهنيته وفنّه وعلمه..."؛ لذا يبدو من المفروض التطرّف لها والدفاع عنها ورفض أيّة ثقافة أخرى تتسلّط عليهم، وأغلب الشعوب التي انهزمت أنظمة دفاعها لم تتخلّ فعلياً عن ثقافتها، بل هجّنتها مضطرّة مع ثقافة المنتصرين، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالعرب لم يتخلّوا تماماً عن ثقافتهم القديمة على الرغم من انتصار أقرانهم المسلمين عليهم، وحديث النبي "إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق" المؤشّر على ذلك، كما أنّ الحروب التي اندلعت بين الأمويين وآل البيت وبين الشيعة والسنة التي ينتمي إليها مختلف الإثنيات المعتنقة للإسلام في الشرق الأوسط تشير إلى عدم قدرة المسلمين على بناء ثقافة واحدة متماسكة؛ بسبب استمرار العصبية القبلية والطائفية ونزعة التسلّط لدى أتباعها وفرقها. من الطبيعي أن تدافع إحدى نخب المجتمع عن مواثيقها وإرادتها الحرّة وتنحو إلى مسار متطرّف كنوع من الدفاع الذاتي؛ فكلّ مجتمع تحيا أخلاقه بقوّة ومناعة لا يمكن أن يذعن للسلطة والاستغلال بسهولة كما يرى المفكر أوجلان؛ هنا يبرز جانب آخر من التطرّف المتمثّل بالميول المحافظة لحماية المجتمع من تأثيرات لا تنسجم مع ثقافته وأمنه، فالإنسان يولد في حضن ثقافة أهله تفرض عليه بالضرورة مع نموّه، وتتحوّل إلى هوية تثبت وجوده، ومصدر إلهامٍ لتحقيق ذاته وطاقة لعقيدة قتاله، وإذا ما تعرّض إلى اضطهادٍ أو تمييزٍ تبعده عنها يستجيب على الأغلب بردّ فعل متطرّف، وهذه حال معظم البشر المتمسّكين بهويتهم الإثنو- ثقافية استناداً إلى كلٍّ من نزعة الموت والحياة لدى الإنسان التي أشار

إليها فرويد في الكثير من مؤلّفاته، ونزعة التسلّط والثورة التي تطرّق إليها كلّ من الفلاسفة هوبز وهيجل ولوبون وغيرهم في مؤلّفاتهم، وثنائية الخير والشر التي أكّد عليها معظم الأنبياء، هذا ما يقودنا إلى أن نعتبر مجازياً بوجود ملاكٍ ووحشٍ يقبعان في داخل كلّ إنسان يولدان معه، تأخذ الثقافة والمجتمع على عاتقهما الحفاظ على قوة الملاك بالفلسفة والأخلاق ومشاعر الانتماء، وتوجيه الوحش إلى الأخطار التي تهدّدها، إلّا أنّ الإحباط والقهر والبؤس والتخلّف والكبت كثيراً ما تحفّز الوحش على العصيان.

إنّ الاعتداء على البلدان تغذّي حقد سكانها، وعمليات التعذيب والتنكيل تغذّي الرغبة في الانتقام، وعدم قدرة الوصول إلى مصدر الاعتداء والتنكيل يزيد من ضغط العدوانية الذي قد يدفع بالوحش الكامن في أعماق الإنسان إلى صبّ جام الغضب على أقرب الأشخاص إلى هذا المصدر؛ هذا الوحش يجسّد التطرّف الذي يتبنّى العنف كوسيلة للدفاع عن الذات أو وسيلة لتمكين سلطة يرى فيها إثباتاً لذاته؛ يمكن تلمّس هذه الإشكالية في الصراع الطائفي بين المجتمعات السنية والشيعية، التي لا تزال مستمرّة منذ حوالي 1300عام، فالأحقاد التاريخية لم تنطفئ بعد، وكلّما خمدت سارع سادة التطرّف إلى تأجيجها، كلّ طرف يسعى لفرض هيمنته على الآخر، لذلك أصبح التعايش بين الطرفين شبه مستحيل، ففي معظم البلدان الإسلامية حدثت أعمال عنف متبادلة، وهذا ما يعدّ أحد مسبّبات تخلّف هذه الدول عن بلوغ مستويات حضارية راقية، مع ملاحظة الأحقاد أو النظرات الدونية المتبادلة بين أتباع الأصوليات الدينية، الهندوسية والإسلامية والمسيحية واليهودية، وبين الأيديولوجيات القومية.

من ناحية أخرى يبدو أنّه ليس من الدقّة أن نربط مجازياً مسألة تهجين الثقافات بقاعدة الانتصار والهزيمة، بل يمكن أن يطوّر الأفراد ثقافاتهم وفقاً لمبدأ الديالكتيك وفلسفة الكوانتم، والإنسان ينجذب غريزياً نحو أفضل الأشياء والخيارات بالنسبة إليه، يُلاحظ ذلك نسبياً في التحوّل الثقافي لحياة القروي ونسله في المدينة أو في الغربة أو لدى تغيّر وضعه الاقتصادي، وهذا ما يزيد القناعة بكون المجتمعات ليست نسخًا متكرّرة على مدار الزمان والمكان، بل محكومة بالتطوّر بحسب كلّ من شروط الزمان والمكان، وأحوال العصر والجغرافيا والمعرفة، لذا فهي تتنوّع وتختلف؛ وهذا ما يؤكّد الرأي القائل بأنّ التطوّر الثقافي هو نتيجة تراكم المعرفة وتفاعل بين الثقافات السابقة المتجاورة أو المتواصلة مع الزمن؛ وعدا المجتمعات المنعزلة في غابات إفريقيا والأمازون وجبال التبت وغيرها، لا توجد ثقافات خالصة بل ثقافات هجينة، فثقافة المجتمع التركي لم تكن كما كانت قبل أن يعتنق الأتراك الإسلام، وكذلك ثقافة العرب لم تكن لتتطوّر لولا مصاهرتهم مع الشعوب الأخرى تحت مظلّة الإسلام؛ نلاحظ من ناحية أخرى أثر وسائل التواصل الاجتماعي وسرعة المواصلات وتزايد الأزمات في تاريخنا المعاصر على هذه الحقيقة، فبعد خمسين سنة أخرى ستتغيّر الكثير من مظاهر الثقافات المحلية. يمكن لمجتمع أن ينصهر طواعية في مجتمع آخر ذي قيم أخلاقية وثقافية أكثر تطوّراً ومكملة لثقافته يحترم الإنسان وذي اقتصاد أقوى، وذلك بموجب ميثاق معنوي ومادي بينهما، علماً أنّ معظم المجتمعات باختلاف ثقافاتها تشترك بقيم أخلاقية ترفض القتل والاغتصاب والسرقة والكذب والخداع والخيانة، ويمكن للمجتمعات أن تتعايش فيما

بينها وفقاً لميثاق يضمن التضامن والتسامح والمساواة والفضيلة، ويوفّر الأمن الإنساني للجميع ويلغي مبدأ الحق الإلهي في التسلّط على الرقاب.

التطرّف وقضية سلخ الثقافة من المجتمع.

يُلاحظ في معظم الحروب والأزمات التي اندلعت منذ مئات السنين إلى تاريخنا المعاصر لعب الأيديولوجيات المتطرّفة دور المطرقة والإزميل في نحت كتلة من المجتمعات لتشكيل مجتمع آخر وفقاً لميثاقها، تتوقّف طبيعته على تصنيف التطرّف الذي أوجده؛ فقد ينتفض مجتمع مقهور للقضاء على الاستبداد وتشكيل مجتمع على أسس ثقافية عريقة تتبنّى القيم الأخلاقية، كالثورات التي قام بها الأنبياء وقادة الشعوب المضطهدة، أو على أسس ثقافية عصرية تتبنّى مبادئ الديمقراطية وهذا ما يمكن وصفه بالتطرف كوسيلة للدفاع الذاتي؛ أمّا بالنسبة للتطرّف كوسيلة لتمكين السلطة فيلاحظ لدى الجماعات الراديكالية والدينية المتطرّفة والدول الإمبريالية التي ترغب بعولمة أيديولوجياتها وتعلن الجهاد أو القتال المقدّس لخلق مجتمعات وفقاً لذهنيتها، وهذا أيضاً شأن الدول الكبرى التي تملك نظرة دونية تجاه المجتمعات الأخرى، وكثيراً ما يبرز دور العامل الديني المتطرّف في هذا الصراع، ويمكن تلمّس ذلك في زيارة الجنرال غورو لقبر صلاح الدين بعد اخضاع دمشق للهيمنة الفرنسية، ووصف بعض قادة أمريكا لحملتهم العسكرية على أفغانستان في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول بالحرب الصليبية، والجماعات الدينية المتطرّفة تسعى علانية لإقامة دولة الخلافة الإسلامية أو إقامة سلطة ولاية الفقيه، ودولة إسرائيل لا تزال تحتفظ بشعار "من الفرات إلى النيل"، لقد لعبت الحربان العالميتان والحرب الباردة دوراً في هذا الأمر، خاصة بعد نشوء الدول القومية، كما ويلاحظ هذا التأثير نسبياً في المجتمعات الكردية التي قسّمتها الحدود السياسية بين العراق وسوريا وتركيا وإيران.

للتطرّف المكرس في سبيل تمكين السيطرة تأثير هدّام على المجتمع وعلى علاقته بالمجتمعات الأخرى، ويتسبّب ببروز ظروف وعوامل مشابهة لتلك التي ولّدت هذا التطرّف قد تؤدّي إلى خلق تطرّف آخر أكثر توحّشاً، فممارسة السلوك المتطرّف على الآخرين بغرض قهرهم ومن ثم إخضاعهم يولّد حالات من القلق والتصلّب والتعصّب والحقد والجروح النرجسية ورفض التسلّط وهواجس الانتقام بين الضحايا. بشكل عام يعتبر التطرّف سلوكاً عائقاً للتعايش بين المجتمعات وتطوير ثقافتها، فالنفوس والعقول المشحونة بالحقد والكراهية ونزعة التسلّط وإلغاء الآخر لا علاقة لها بالنشوء الطبيعي للمجتمعات البشرية، قد يطلق على مجموعة من المتطرّفين بشكل مجازي مجتمع متطرف على غرار المجتمع الذي أوجده تنظيم داعش، أو الذي أوجدته التنظيمات الموالية لأيديولوجية ولاية الفقيه، أو مجتمع المستوطنات اليهودية في فلسطين، ومجتمع مستوطنات المرتزقة في المناطق المحتلّة من شمال سوريا، إلّا أنّ هكذا نوع من المجتمعات لا يمتلك عوامل الديمومة بمجرّد خمود الحماس الأيديولوجي أو بروز أيديولوجية أكثر تطرّفاً أو إصرار المجتمعات المتضرّرة على الأخذ بحقّها.

يعمل المتطرّفون لتضميد جراحهم النرجسية ومعالجة إحباطهم في تحقيق ذاتهم على إلحاق جروح مشابهة بالآخرين المختلفين عنهم ومحاولة إحباطهم في تحقيق ذاتهم، فعملية تفجير وسط

حشد من البشر أو قتل أشخاصٍ بسلاح أبيض ومن ثم التفاخر بهذا الفعل وتمجيده يعتبر أبلغ تعبير لهذا السلوك، فجماعة المتطرّفين يتفاعلون مع العالم وفقاً لمبدأ "نحن والبرابرة" أي أنّهم يمثلون الخير والحضارة و اليوتوبيا، والآخرون البرابرة يمثّلون الشر و الديستوبيا؛ تماماً كما ينظر العالم المتضرّر منهم إليهم؛ فكلّ مَن لا يتّفق مع عقيدة جماعة ما يُعتبَر بربرياً من وجهة نظرها، وكأنّهم يعانون أيضاً من متلازمة وهم التفوق؛ علماً أنّ البربرية كمفهوم لها مفاهيمها قد يتّفق الطرفان عليها، إلّا أنّ كلّ واحد ينفيها عن نفسه، وبنفس الوقت يمارسها على الآخر وبقناعة راسخة، وهذا ما يشير إلى استحالة الحوار بين الحضارة والبربرية؛ علماً أنّ من أبرز مؤشّرات البربرية كما يقول الباحث تزفيتان تودوروف "إنّ البرابرة هم الذين يتجاوزون القوانين الأساسية للحياة المشتركة، فلا يعرفون تحديد المسافة المطلوبة في علاقتهم بذويهم، فيقتلون الأهل ولا يمانعون زنى المحارم... إنّ البرابرة هم أولئك الذين يقيمون قطيعة فعلية بينهم وبين سائر البشر... إنّ البرابرة هم الذين يعيشون في عائلات منعزلة بدل أن يتجمعوا في مساكن مشتركة، ؟أو أفضل من ذلك، بدل أن يشكّلوا مجتمعات تحكمها القوانين توافقوا عليها جميعا...إنّ البرابرة هم الذين يقبلون الخضوع لسلطة طاغية... إنّ البرابرة هم أولئك الذين ينكرون الإنسانية الكاملة للآخرين..."؛ يلاحَظ أنّ هذه الأوصاف حاضرة دائماً في اتّهامات المتطرّفين من أصحاب الديانات والأيديولوجيات المختلفة والمتخاصمة لبعضهم بعضٍ، وهذا ما يعدّ تعبيراً للتطرّف الفكري المسؤول عن خلق حالة من التوتّر والقلق وعدم الثقة في داخل المجتمع، ويعتبر الدافع الأبرز لما يسمى بجرائم الكراهية وهذا ما يفسر كون التطرّف أكبر تهديد على الأمن المجتمعي؛ فعندما يتطرّف الفرد فكرياً من مبدأ تسلّطي تبدأ لحظة انشقاقه عن قيمه المجتمعية بغضّ النظر عن درجة رُقيّها، ويتبنّى قواعد فكرية ومعايير وسلوكيات معينة في زيّه ومظهره وطقوسه الدينية مناقضة أو لا تنطبق نسبياً على تلك السائدة في مجتمعه، والتي يتّخذ منها موقفاً سلبياً يتطوّر مع الزمن ليتحوّل إلى عداوة متبادلة، إلّا أنّ المتطرّف غالباً ما يتّخذ موقفاً هجومياً، معتبراً هدم المجتمع وصهره في قالب فكره ومشاعره لخلق مجتمع آخر فرضاً مقدّساً وإحقاقاً للعدل وترضية لإلهه؛ فهو بذلك يبدو مثل الأعور الدجّال لا يرى إلّا ببصيرة واحدة ويعتبر نفسه المنقذ الموعود للبشرية ويطالب الجميع بطاعته وتقديس أفكاره، وفي نهاية المطاف يفرض استبداده عليهم، هذا النموذج يمثّل جميع المتطرّفين من أشخاص وتنظيمات ودول يتعاملون ببربرية مع الآخرين ويجاهدون لفرض سلطتهم القمعية عليهم.

لاتزال المجتمعات حول العالم تعاني من النزاعات الطائفية والأيديولوجية، خاصة في البلدان التي تعاني من كثافة سكانية مختلطة وبتحريض من الزعامات القبلية أو الدينية أو الأيديولوجية، تكاد تتسبّب يومياً بالعديد من الأحداث المأساوية، والتسبّب بسيطرة مشاعر الخوف والقلق في العلاقات بين المجتمعات. يعدّ تنظيم داعش الإرهابي من أحدث النسخ المتطرّفة المؤجّجة لهذه النزاعات، بعد أن استطاع خطف الأضواء من تنظيم القاعدة وتقديم العشرات من المجموعات في العالم ولاءها له، وتأثيره الأشدّ كان على مجتمعات الشرق الأوسط؛ من خلال أعماله ودعايته الإرهابية وفتاويه التكفيرية عمل تنظيم داعش على تمزيق الروابط بين المجتمعات المحلية في سوريا والعراق، وسعى إلى اقتلاع ما تبقّى من روابط الألفة والمحبّة والتعاطف والمواطنية واحترام الآخرين، وحاول أن يغرس في مكانها مشاعر الغربة والعداء والاضطهاد، بغرض إبراز

الأنوية وشلّ قدرة الموانع الأخلاقية المثبّطة للسلوكيات المتوحّشة تجاه الآخرين، عبر التقوقع على الذات أو الجماعة المرجعية التي يمثلها التنظيم،

وهذه كافية لخلق برود عاطفي تجاه الأعداء المفترضين وإخمادٍ للمشاعر الإنسانية أثناء استباحة حياتهم وأعراضهم وممتلكاتهم، فتسبّب مثلاً بقتل المئات من أبناء عشيرتي الشعيطات والبونمر بيد أبناء عشائر آخرين في صيف عام 2014م ، قد يكون من بين القتلة أبناء من تلك العشيرتين ولكنّهم متزمّتون لأيديولوجية التنظيم، وكذلك هاجم الإيزديين في جبلهم وقراهم وارتكب بحقهم جرائم وحشية بيد مقاتلين من بعض أبناء المنطقة، بعضهم كانوا يمتلكون علاقات جوار طيّبة مع الإيزديين بحسب ما أفادت به بعض الناجيات من المجزرة، وكذلك هاجم التنظيم الكرد المسلمين وشارك بفعالية في عمليات الإبادة بحقّهم، وذلك بالتنسيق مع النظام التركي، وكانت له هجمات على قرى المسيحيين والدروز، هذا الأمر ولّد نسبياً حالة من عدم الثقة ونفوراً بين بعض المجتمعات المحلّية الكردية والعربية والمسيحية والإيزدية وغيرها، على غرار ما فعلته الأيديولوجيات القومية في تركيا وسوريا والعراق وإيران، وأضعف الهوية الوطنية للبلاد التي كانت ضعيفة بالأساس، بسبب السياسة الاستبدادية التي كانت تمارسها أنظمة الدول على عامة الشعب.

حالياً تبذل محاولات لتشييد مجتمعات أخرى بإقامة مستوطنات تضم متطرّ،فين مدعومة بعمليات تزوير تاريخ المنطقة وطرد سكانها الأصليين وتعزيز الفتنة بين المجتمعات المحلية، وهذا ما يمكن ملاحظته في معظم القنوات التلفزيونية ووسائل التواصل الاجتماعية التي يديرها المتطرّفون من تنظيمات الإخوان المسلمين الموالية لتركيا وتنظيم داعش والنظام السوري والنظام التركي وغيرهم؛ من ناحيتها تحاول أيديولوجية ولاية الفقيه بناء علاقات جديدة مع بعض المجتمعات المحلية في سوريا والعراق بما يتناسب مع استراتيجية الهيمنة الإقليمية التي تنتهجها إيران، عبر حملات التشيّع السياسي وتجنيد المقاتلين وتعزيز الكراهية بين هذه المجتمعات، وخلق وهم بوجود مجتمعات لا تريد الخير لهذه الجغرافيا، تتّهم بعضها بكونها تابعة لتنظيم داعش وبعضها الآخر كانفصاليين وموالين للغرب وعلى رأسهم أمريكا، وبعضها الآخر تكفيرية موالية لتركيا؛ وهذا ما تفعله أيضاً البروباغندا البعثية والإخوانية في المنطقة، فالجميع تتقاطع مصالحهم في نقطة الفتنة وخلق نزاع دموي بين المجتمعات المحلية لتمكين سلطتهم.

في شمال وشرق سوريا تبذل محاولات لترميم العلاقات والروابط بين المجتمعات المحلية التي مزّقتها الأيديولوجيات القومية والدينية من خلال انخراط معظم المكوّنات عبر نخبهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا ومؤسساتها الأمنية والعسكرية، يبدو أنّ هذه الجهود تكلّلت بنجاح نسبي بدليل فشل الحرب النفسية التي يديرها كلّ من النظامين التركي والسوري وداعش وإيران وروسيا في إحداث فتنة قومية أو دينية، وفشل الهجمات على سجن الصناعة في الحسكة الذي كان يضم الآلاف من مقاتلي التنظيم؛ بالإضافة إلى ذلك كان لتقديم المجتمعات المحلّية الدعم لمؤسّسات الإدارة الذاتية والمؤسّسات العسكرية والأمنية الرديفة، وحتى المشاركة في القتال أثبت أنّ ما يمزّقه التطرّف التسلّطي يصلحه التطرّف للعلاقات التاريخية والسلم الأهلي بين المجتمعات المحلية؛ وبما أنّ نزعة التحضّر والاجتماع قوية لدى الإنسان فأولى

الخطوات نحو الحضارة هو تقبّل التعايش مع ثقافة المجتمعات الأخرى، أي الاعتراف بإنسانية الآخرين وتبنّي الفضيلة في التعامل فيما بينهم.

دور التطرّف في خدمة المخطّطات الهادفة للهيمنة على المنطقة.

تعدّدت استراتيجيات الهيمنة على البلدان وشعوبها، فعندما نقرأ التاريخ السياسي للعالم نجد الكثير من الدول المهيمنة وأنظمة الحكم الاستبدادية والتنظيمات الساعية وراء إقامة سلطة دينية ودنيوية على حدٍ سواء تتبع أساليب عديدة لتمكين سيطرتها على الثروات الوطنية وشلّ قدرة الشعوب على استلام زمام المبادرة وإدارة حياتها وفقاً لمواثيقها الاجتماعية وتحقّق أمنها الإنساني، من هذه الأساليب استراتيجية "فرّق تسد" واستراتيجية الفوضى الخلّاقة واستراتيجية الإلهاء، تعمل هذه الاستراتيجيات على تخدير فكر الشعوب وإلهائها عن مقاومة الظلم الواقع عليها، وإحداث فتنة طائفية أو قومية بين المجتمعات وخلق أزمات سياسية واقتصادية، الأمر الذي يُفقد البلاد لقوتها الدفاعية عبر تجريد المجتمعات من هويتها الوطنية بشكل يسمح للغزاة بفرض هيمنتهم بأقلّ التكاليف وأحياناً يأتي الغازي بمظهر المنقذ ويمكن تلمّس ذلك في أزمات العراق وسوريا وليبيا وغيرها.

يبدو التطرف في سبيل تميكن السلطة نقطة التقاطع المشتركة لهذه الاستراتيجيات، ويحاول كل طرف تسخيرها لخدمته بسبب قدرة هذا الصنف من التطرّف على تمزيق الروابط بين المجتمعات المتنوّعة من هوية وطنية وقيم أخلاقية مشتركة وعلاقات تاريخية، ويُزعزع استقرار البلدان في سعيه لإقامة سلطة تلغي إرادة الشعب وثقافة مجتمعاته، وترويع السكان وابتزازهم بتهديد أمنهم الإنساني بغرض صهرهم عبر تجريدهم من هويتهم المجتمعية وتكييف ذواتهم مع ثقافة الأسياد الجدد، واستخدام العنف كقانون عقابي عبر القتل أو التعذيب أو التجويع، ويكون الخطر أكبر عندما تكون سلطة البلاد ذات عقلية مشابهة للجماعة المتطرّفة، فتطرّف النظام في قوانينه وفّر مناخاً لتنامي تطرّف داعش وجبهة النصرة والإخوان المسلمين، ولولا تطرّفهم لما كان بإمكان بعض الدول القوية من فرض هيمنتها على سوريا والعراق، ولولا تطرّف التنظيمات الشيعية المتبنّية لأيديولوجية ولاية الفقيه لما كان بإمكان إيران التغلغل وخلق مراكز قوة لديها في العديد من بلدان الشرق الوسط، ولولا القاعدة وحركة طالبان لم يكن ليستبدل الغزو السوفيتي بالغزو الغربي ولما استمرّت معاناة الشعب الأفغاني، ولولا التطرّف اليهودي لما عاش مئات الألوف من الفلسطينيين خارج وطنهم ولما عاش آلاف اليهود في حالة القلق؛ ولولا الأيديولوجيات المتطرّفة، القومية والطائفية، والفاشية لكانت بلدان الشرق الأوسط تعيش في وضع أفضل بكثير من الأوضاع التي تعيشها الآن، حيث الأزمات الاقتصادية والنزاعات الطائفية وغياب عوامل الأمن الإنساني.

بشكل عام تستغلّ عدد من الدول الإقليمية المتحالفة مع بعض القوى الدولية التطرّف لتمكين هيمنتها على شعوب المنطقة وتعمل على إعاقة قيام أيّ حلّ للأزمة التي تشهدها كلّ من سوريا والعراق ولبنان واليمن وليبيا وغيرها؛ فالدولة التركية وظّفت التنظيمات المتطرّفة من داعش وجبهة النصرة وجماعة الإخوان المسلمين في احتلالها لمناطق من شمال سوريا والعراق، وتنخرط

هذه التنظيمات بفعالية كبيرة في عمليات التغيير الديمغرافي والإبادة الثقافية التي تشنّ على الكرد والمسيحيين في تلك المناطق، كما وتستخدمهم كمرتزقة في عملياتها العسكرية الخارجية، فالهجوم على سجن غويران في مطلع عام2020م. الذي يضمّ حوالي خمسة آلاف من أخطر عناصر التنظيم لم يكن ليتمّ لولا الدعم الذي قدّمته الدولة التركية لخلاياه النائمة، ويصعب إنكار وجود تنسيق مع استخبارات النظام السوري، وكذلك الإهمال المتعّمد من قبل بعض الدول القوية المتواجدة في المنطقة للمسائل الاستخباراتية بخصوص النشاط السرّي للتنظيم، بحسب بعض المراقبين قد يكون الهدف الكامن من وراء ذلك تصفية أكبر عدد ممكن من عناصر التنظيم، أو رصد تحرّكاتهم للوصول إلى قادتهم المتخفّين وقواعدهم السرية، أو فرارهم إلى مناطق أخرى لخلق بؤر توتّر جديدة يمكن التدخل وفرض الهيمنة تحت مظلّتها بدعوى الحفاظ على الأمن والسلم الدولي، أو استخدامهم كأدوات في الصراع الدولي كنقلهم إلى أفغانستان أو كشمير أو القوقاز أو البلقان أو إفريقيا؛ وما يشير إلى الدعم التركي تزامن الهجوم على السجن مع تصعيد القصف على جبهات التماس مع قوات سوريا الديمقراطية إلى جانب شنّها حملة قصف جوّي كبيرة على العديد من المناطق الاستراتيجية لشمال وشرق سوريا؛ وهناك إيران التي تدعم النظام السوري وتموّل العشرات من التنظيمات المتطرّفة المتبنّية لأيديولوجية ولاية الفقيه، وتدعم ما تُسمّى بالمقاومة الشعبية لتحرير المنطقة الشرقية التي تستهدف عناصر المؤسّسات الأمنية والعسكرية في شمال وشرق سوريا التي تؤمّن الحماية لسكان المنطقة؛ وتعمل على إفشال الإدارة الذاتية وإعادة المنطقة إلى القبضة الأمنية للنظام السوري. تشترك كلّ من إيران وتركيا والنظام السوري في معاداة الإدارة الذاتية الممثّلة الشرعية للمجتمعات المحلية بموجب عقد اجتماعي، وتبذلان جهودًا كبيرة لإفشالها وزعزعة استقرار المنطقة، فالتجربة الديمقراطية النسبية في المنطقة تبدو مصدر تهديد لأيديولوجياتهم التسلّطية المتطرّفة.

يبدو من المستبعد انتهاء النزاعات بين الدول بسبب تأثير تدهور المناخ على الأمن الغذائي للعديد من البلدان إلى جانب التنافس الجشع بين الشركات الكبرى في الهيمنة على الأسواق العالمية، وتحوّل مصادر الطاقة الطبيعية كالغاز والبترول إلى وسائل لفرض النفوذ وضمانة للأمن القومي، كما هو الحال في روسيا ودول الخليج العربية وإيران، وبنفس الوقت مصدر تهديد لأمن الطاقة لبعض البلدان كالدول الغربية، وهذا ما يترجم إلى عدائية من قبل من يملكون القليل إزاء من لديهم أكثر الذين سينتابهم القلق للمحافظة على مواردهم واستثمارها، كما يقول تزفيتان تودوروف والذي يرى أيضاً أنّ نظرية صدام الحضارات تُعتمد من كلّ أولئك الذين لهم مصلحة في ترجمة وتعقيد العالم من خلال مصطلحات المواجهة بين كيانين، سواء أكانوا من الشرق أو من الغرب.

أخيراً.

تعاني المنطقة من انقسامات أيديولوجية متحرّضة بفعل الديماغوجيا والبراغماتية، خاصة بين السنة والشيعة والقوميين، والتي ازدادت وتيرتها عقب سقوط الاتحاد السوفيتي وتحوّل الشيوعية إلى مصدر تهديد ثانوي للعديد من أتباع الأيديولوجيات المخالفة لها، وأصبحت هذه الانقسامات

أكثر وضوحاً بعد إسقاط النظام العراقي في عام 2003م. وانتفاضات ما يسمى بربيع الشعوب؛ يلاحظ من مؤشّرات هذا التحوّل عرقلة بعض القوى لتطبيق الديمقراطية، وتطبيع بعض الدول العربية لعلاقاتها مع دولة إسرائيل وتحوّل إيران إلى الخطر الاستراتيجي الأكبر على الأمن القومي لهذه البلدان؛ علماً أنّ إيران تمتلك موقفاً مشابهاً إزاء هذه الدول وتعتبرها تهديداً لكلّ من أمنها القومي ومشروعها لإقامة حكومة إسلامية عالمية بقيادة ولاية الفقيه إلى حين قدوم المهدي المنتظر.

وبالتالي يحطّم التطرّف المكرّس لتميكن السلطة الروابط المعنوية بين المجتمعات ويضعف الأمن الوطني للبلدان، ويغرس الأحقاد وهواجس الانتقام في البلاد الموبوءة به، فتنظيم داعش بخلاف دعايته لم يأتِ لإقامة دولة الخلافة الإسلامية كالتي كان يدعو إليها رسول الإسلام كمقاوم ومعارض لسلطة سادة قريش آنذاك، حيث يرى المفكّر أوجلان أنّ بعض القوى المناهضة للهيمنة تصيغ أيديولوجياتها في طوايا مذاهب الأديان عموماً والأديان التوحيدية خصوصاً، بل يسعى التنظيم لتشييد هرمه الخاص بدليل عدم اعترافه بالتسامح والفضيلة والعدالة الاجتماعية التي كان ينادي بها الرسول، وإصدار فتاوٍ تكفيرية ضد كل من لا يبايعه، من المسلمين وغيرهم، وتسبّب بمزيد من القهر والبؤس والأحقاد والتهجير للمجتمعات المحلية، وهذا شأن التنظيمات المتطرّفة الأخرى التي تنشط في سياق الأزمات التي تعيشها بلدان المنطقة؛ وبالتالي لا يشكّل التطرّف كوسيلة لتمكين التسلّط حلّاً للمشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لمجتمعات المنطقة بل هي عامل مُفاقم لها، أمّا العوامل التي من شأنها أن تضعف التطرّف هي بناء مجتمع المعرفة وترسيخ مبادئ العدالة وتطبيق الإدارة الرشيدة في المؤسّسات، وهذا كفيل برأب الصدع في الروابط المعنوية للمجتمعات.

الحركة الأصولية الشيعية

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

- **مقدمة.**

كثيراً ما يتم الخلط بين أتباع المذاهب وأعضاء التنظيمات المذهبية الطابع، ويتم تعميم المعتقد الذي يتعصب له تنظيم ما كراهية على المجتمع الذي يعتنقه، حيث تختلط الأحقاد المذهبية مع المواقف الرافضة لنشاط هذا التنظيم الأمر الذي يولّد كراهية وعداوة تؤدي إلى عنف يقابله عنف من الطرف الآخر، وتتراكم المشاعر السلبية إلى المستوى الذي يصبح فيه الطّرف الآخر المختلف معه مجرد وحش لا يمكن ترويضه أوالتعايش معه، وهذا ما يتسبب بتخدير للمشاعر الإنسانية وللقيم الأخلاقية وتصبح الشفقة غائبة في أعمال التنكيل بالضحية؛ حقا إنها مشكلة حقيقة تعاني منها معظم مجتمعات الشرق الأوسط؛ فالتداخل الديمغرافي في هذه الجغرافيا يجعل من إنشاء دول قومية أومذهبية عاملا رئيسيا في استمرار مختلف الأزمات، كما أن الطبيعة المحافظة لمعظم المجتمعات المحلية يجعلها غير منفتحة نسبياً على مبادئ الديمقراطية، وهذا ما يجعلها عرضة لتطفل الأيديولوجيات المتطرفة، القومية والدينية والمذهبية عليها.

إنّ تحليل ظاهرة التنظيمات المتطرفة الساعية لتمكين تسلط ما باستغلال المذهب الذي يعتنقه مجتمع ما كجزء رئيسي من ثقافته يعدّ من الأمور الصائبة في رصد وتحليل ومعالجة أزمة التناحر المذهبي، عبر الفصل النسبي بين المذهب كثقافة مجتمعية والمذهب كأيديولوجية تسلطية، إلا أن هذا لا يعني نفي تأثير المعتقد المذهبي في كلا القسمين كونه يعدّ عنصرا مهما في تكوين عقيدة القتال لدى معتنقيه منذ مئات السنين من مبدأ الدفاع الذاتي؛ وما يهُم في الأمر هوتشخيص تحول المذهب من ثقافة مجتمعية إلى أيديولوجية سياسية تتسبب بالضرر الجسيم للآخرين وتحوّلها إلى أداة للتسلط عليهم؛ وهذا ما يسعى إليه هذا البحث من خلال وصف وتحليل جانب من الحركة الأصولية الشيعية في منطقة الشرق الأوسط المزدحمة بخليط مكثف من التنظيمات العقائدية المختلفة والمتصارعة في خضم الأزمة الراهنة التي تعانيها هذه المنطقة، وللتحقيق النسبي لهذا الأمر سيتم التطرق إلى تقييم تأثير الحركة السياسية الشيعية في إشكالية الإسلام السياسي، ماضياً وحاضراً، وتقديم تحليل عن كلٍ من الاتجاه الثوري والاتجاه الديماغوجي في استراتيجيتها.

- **التطرف الطائفي في السياسة الإقليمية.**

يتسبب التطرف الديني بعزلة ثقافية عن ثقافة الوسط المحيط بخلقها حواجز وحدودٍ معنوية يمنعهما من التفاعل، والجماعة المتطرفة تستبدل هوية عضوها بهويتها وتتحول إلى وسيلة للدفاع عن الوجود المتماهي مع المعتقد؛ واحتقان التطرف في معتقد ما يدفع ببعض المتنافسين من كهنته

للبحث عن متنفس آخر غالباً ما يجدونه في مذاهبه وتحزّباتها، وهذا لسان حال معظم حركات الإسلام السياسي بشقيها السني والشيعي، حيث يمكن ملاحظة بروز تنظيمات جديدة نسبياً في كل أزمه.

تقف العقيدة السياسية والعسكرية للحركة الأصولية الشيعية في تاريخنا المعاصر وراء سعي المتطرفين لعقلنة معتقداتهم([1])؛ويجدون في الجدالات المذهبية المتطرفة وخلط العلوم الوضعية بالعلوم الشرعية (الدينية) الخيار الأفضل لتعميق إيمان الأتباع بها وجذب أتباعٍ آخرين وكأداة لحقن عقيدة قتالهم بعدوانية مفرطة، شأنهم بذلك شأن التنظيمات الأصولية السنية؛ لذا نجد حرباً طائفية بأشكال متعددة تدور رحاها في العراق وسوريا ولبنان واليمن والبحرين، تطغى على المشهد السياسي والعسكري في الشرق الأوسط، وهي حقيقة لا يمكن نكرانها؛ حيث تنامى التطرف الطائفي المُتضاد بين الشيعة والسنة خاصة في الفترة التي شهدت الصعود والانهيار الدراماتيكي لدولة تنظيم داعش (2014م- 2019م)، وازدادت الخلافات بين الدول الإسلامية حول مسألة التطبيع مع دولة إسرائيل في إطار ما يسمى بصفقة القرن لحل النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني والاتفاق الإبراهيمي بين بعض الدول العربية وإسرائيل، واستثمرت بشكل ديماغوجي في دعاية التنظيمات الإسلامية المتطرفة، الشيعية والسنية، عبر الإصرار على أن إسرائيل وحلفائها في حالة حرب مع المسلمين وكل من يساعدها ويساندها يكون هوبدوره في حالة حرب معهم.

يُلاحظ سخونة هذا التوتر الطائفي من خلال قيادة السعودية لتحالف عربي ضد التنظيمات الشيعية المتبنية لأيديولوجية ولاية الفقيه؛ حتى أن الرئيس التركي أردوغان وفي معرض خطاباته الدعائية تحدث في مقابلة مع قناة الجزيرة القطرية في شهر نيسان من عام 2017م حول هذا الموضوع ([2])" تنتهج إيران سياسة انتشار وتوسع فارسية أصبحت تؤلمنا في العراق مثلًا، فمن هم الحشد الشعبي، ومن الذي يدعمهم؟ فالبرلمان العراقي يؤيد الحشد الشعبي لكن هم منظمة إرهابية بصراحة ويجب النظر إلى من يقف وراءها..."، بينما في العديد من المناسبات يُشيد بعض المسؤولين العراقيين وقادة الحشد الشعبي بالدعم العسكري والاستخباراتي واللوجستي الذي تقدمه إيران للحشد الشعبي. إنّ ما تم ذكره يشير إلى أزمة عقائدية تعانيها مختلف المجتمعات الإسلامية؛ وقد يكون هذا الأمر سبباً في جعل التنظيمات الشيعية المسلحة غير قادرة أوغير راغبة بفك التحالف فيما بينها لاعتبارات تتعلق بالتاريخ المشترك والعدوالمشترك والمصير المشترك، وبمشاعر المسؤولية في مسألة تقديم الدعم والحماية لباقي الشيعة- إخوة المعتقد- حول العالم، والنتيجة هي تنامي الهوية الطائفية على حساب الهوية الوطنية للبلدان؛ يبدوأنها تحاول أن تكون دائماً بجهوزية عالية في خضم تنامي نزعة التطرف في الأيديولوجيات السياسية في المنطقة، وذلك في إطار كل من سياستي الدفاع الذاتي وتمكين السلطة.

إنّ تزايد قوة التنظيمات الشيعية يشكل قلقاً للمجتمعات السنية المحلية والحركات العلمانية والقومية في المنطقة، فمثلاً في إحدى اللقاءات أعرب بعض اللاجئين العراقيين السنة في مخيم

[1] أي جعل قوانينها مطابقة لقوانين العقل، وإضفاء شكل عقلاني عليها...

[2] الجزيرة؛ أردوغان: لن نسمح باقتطاع أراض من سوريا؛ الناشر: موقع الجزيرة؛ تاريخ النشر: 2017/4/20م:

الهول عن خوفهم من العودة إلى المناطق التي حررتها ميليشيات الحشد الشعبي من تنظيم داعش وأبدوا رفضاً قاطعاً للعودة في ظل الظروف الجديدة في مناطقهم؛ كما كان للحشد الشعبي دور هجومي في انتزاع المناطق المتنازع عليها مع حكومة إقليم كردستان إثر الاستفتاء على الاستقلال عام2017م ومن بينها كركوك، عززتها بتصريحات عنصرية لبعض قادتها تجاه الكرد؛ إلى جانب صدور العديد من التقارير للمنظمات المعنية بحقوق الإنسان حول الانتهاكات التي ترتكبها هذه الميليشيات؛ وقد تم إدراج بعضها في قوائم التنظيمات الإرهابية الدولية كحزب الله وعصائب أهل الحق وحركة النجباء وسرايا الجهاد وغيرها، وكذلك برزت خلافات بين الدول المتخاصمة مع إيران والبلدان التي تنشط فيها هذه التنظيمات كالأزمة القائمة بين لبنان وبعض الدول الخليج العربية، كان آخرها حادثة سحب سفراء معظم دول الخليج العربي من لبنان إثر تصريحات وزير إعلامها السابق جورج قرداحي المتحالف مع حزب الله والمؤيدة أوالمتعاطفة مع إيران ضد بعض الدول العربية؛ هذه الأمور وغيرها تشير إلى مدى تأثير التطرف المذهبي في الأزمات التي تعيشها مجتمعات الشرق الأوسط، حيث يمكن استشعارها كعائق في مسيرة الإنسان للبحث عن أمنه الإنساني واكتشاف حقيقة ذاته.

- **الشيعة في الإشكالية الموصوفة بالإسلام السياسي.**

ينقسم العالم الإسلامي كما هومعلوم إلى طائفتين رئيسيتين هما الشيعة والسنة، وكل طائفة تتشعب عنها عشرات المذاهب، وكل مذهب يتفرع عنه عدد من الطرق والفرق ذات التوجهات الفكرية، الروحانية والسياسية الخاصة بها. لدى الاطلاع على الروايات التاريخية نجد أن الانقسام الطائفي برز كنتيجة صراع سياسي تاريخي على الأحقية في تولي السلطة الإسلامية، وكارتداد عن مراحل أقدم بخصوص قضية الأحقية في الزعامة على قريش ومكة، والتي بدأت بين حلف المطيبين بقيادة بني عبد مناف وحلف الأحلاف بقيادة بني عبد الدار وبمراحل زمنية أقدم نسبياً بين قُصي بن كلاب جد القريشيين وقبيلة خزاعة، حيث تجلى ذلك مجدداً في أواخر خلافة علي بن أبي طالب بعد أن رفض معاوية وأتباعه مبايعته للخلافة، بين فريق يعتبر السلطة حقاً مقدساً للهاشميين وبالدرجة الأولى لآل البيت وتم تسميتهم بالشيعة، وفريق آخر يعتبرها حقاً لكل مسلم ينتسب لقبيلة قريش- وبالأخص بني عبد مناف بن قصي بن كلاب الذين ينتسب إليهم كل من الأمويين والهاشميين- يثبت نفسه كقائد وتتوفر فيه شروط الخلافة ويتخذ من الشريعة الإسلامية منهجاً للحكم سواء بانتخابه من قبل غالبية قادة المسلمين أواستحواذه على السلطة بالقوة أوبالتوريث، وتم تسميتهم بالسنة؛ إلا أنّ هذا التنازع أخذ طابعاً أيديولوجياً بين الطرفين مع الصراع على السلطة والذي نشب بين العباسيين

الذين تمسكوا بمنهج الخلافة على غرار الأمويين، والعلويين الذين آمنوا بالإمامة وجعلوها حكراً على آل علي بن أبي طالب([3]) وتحولوا إلى ممثلين رئيسيين للشيعة؛ ويبدوأن هذا الصراع تمازج مع الصراع السياسي التاريخي بين الغساسنة حلفاء الروم في الشام والمناذرة حلفاء

[3] د. علي الوردي؛ وعّاظ السلاطين؛ الطبعة الثانية- 1995م؛ الناشر: دار كوفان- لندن؛ ص247.

الساسانيين في العراق[4] مع تنامي النزعة الدولتية في الإسلام بعد أن كانت حركة ثورية محلية، اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية، حيث لا يزال هذا الشكل من الصراع مستمراً في تاريخنا المعاصر ويمكن تلمس ذلك على سبيل المثال في الصراع الأيديولوجي بين شقي حزب البعث في سوريا والعراق، وبين جبهة النصرة وداعش، وبين السلفيين وكلٍ من الشيعة الجعفرية والعلويين.

أما تعدد المذاهب فيعدّ نتاج صراع نسبي أواختلاف فكري ديني بين مجموعات من الفقهاء المسلمين من كل طائفة. بالنسبة لتعدد الفرق فهي مرتبطة بشكل وثيق بطموحات الزعماء الدينيين، ويجسدون ذلك الصراع السياسي التاريخي والصراع الفكري-الديني، وعلى هذا الأساس تتم صياغة أيديولوجياتهم. تحاول كل فرقة صهر مذهبها ومن ثم طائفتها ومن ثم ديانتها في أيديولوجيتها، فمثلاً في مذهب الاثني عشرية[5] الشيعي يحاول أنصار الإمام الخميني من خلال استراتيجية تصدير مبادئ الثورة الإسلامية الإيرانية فرض أيديولوجيتهم على هذا المذهب وتواجه بسبب ذلك معارضة نسبية من قبل بعض المرجعيات الدينية الشيعية في العراق ولبنان وبعض المذاهب الشيعية الأخرى كالإسماعيلية والزيدية وغيرها. يبدوأن هذه الفرقة تعمل بشكل جيد لتجعل من نفسها المدافع الأول عن الشيعة حول العالم بشكل يمنحها الشرعية لتولي منصب القيادة العالمية للشيعة، وطموحات هذه الفرقة بإقامة حكومة إسلامية عالمية سيمكّنها نسبياً من تذويب الإسلام وطائفتها ومذهبها في أيديولوجيتها. ونفس الأمر يشمل أيضاً الفرق السنية حيث يعد نموذج تنظيم القاعدة دليلاً موثوقاً على هذه المسألة. يعاني الملايين من المسلمين من هذه الصراعات والاختلافات ويعجزون عن تجاوزها، حيث فرضت على بلدانهم ظروف تنعدم فيها عوامل الأمن الإنساني والأمن الوطني إذ يبدوأن هذا الأمر يقدم تفسيراً لاختيار الكثير من المسلمين من الطائفتين للعلمانية والالتزام بالقيم الأخلاقية أوالهجرة كحل وسط للنأي بالنفس عن حالة عدم الاستقرار هذه، بينما يتوجه البعض الآخر نحوالتصوف لتحقيق نوع من السكينة النفسية والروحانية.

يعد الشيعة أكثر من تعرضوا للقمع والاعتداءات مقارنة بالسنة، فقد كانوا بمثابة المعارضة الراديكالية للدول الإسلامية المتعاقبة؛ حيث برزت العديد من الحركات المنظمة التي بدأت كحركات ثورية متطرفة كنوع من الدفاع الذاتي، إلا أنها سرعان ما كانت تحوّل طاقة التطرف المتعاظمة لديها إلى وسيلة لتمكين سلطة قادتها وإقامة دولٍ خاصة بها.

ينقسم الشيعة بشكل عام إلى أربعة فرق رئيسية وهم الجعفرية أوالاثنا عشرية، والزيدية، والإسماعيلية، والعلوية، وهناك فرق أخرى؛ والأولى هي الأكثر انتشاراً، حيث يتركز نسبياً توزّع الجعفرية في إيران والعراق وسوريا وكردستان، والإسماعيلية في سوريا وخراسان وباكستان ومناطق أخرى من العالم، والعلوية في سوريا وتركيا وكردستان، والزيدية في اليمن. هناك اختلافات مذهبية بين هذه الفرق تتعلق بمسألة الإمامة والمرجعية الدينية الشيعية التي تتبع لها،

[4] للمزيد عن التحليل الاجتماعي لهذا الموضوع من المفيد مراجعة المرجع السابق.

[5] تعتبر الطائفة الاثنا عشرية أكبر الطوائف الشيعية من حيث عدد السكان، يرى الشيعة أن علي بن أبي طالب هووأحدَ عشر إماماً من ولده (من زوجته فاطمة بنت النبي محمد) هم أئمةٌ مُفترضوالطاعةِ بالنص السماوي، وأنّهم المرجعُ الرئيس للمسلمين بعد وفاة النبي. يطلقون عليهم اسم الأئمَّة أوالخُلفاء الذين يجب اتِّباعهم دون غيرهم طبقًا لأمر من النبي محمد حسب اعتقادهم؛ ويعتقدون بأن محمد المهدي ابن الحسن العسكري وهوعندهم الإمام الثاني عشر هوالمنتظر الموعود الذي غاب عن الأنظار وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً... ويكيبيديا؛ الموسوعة الحرة.

ودرجة القدسية التي تبديها لأئمة آل البيت؛ وهذا ما قد يفسر عدم تمكن الشيعة من تشكيل وحدة سياسية متجانسة بسبب اختلافاتهم المذهبية. فالزيدية يتعصبون للإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بينما باقي الشيعة يتعصبون لشقيقه الإمام محمد الباقر؛ إن جوهر الاختلاف الأيديولوجي بين الزيدية وباقي الشيعة بأنها ترى أن الإمامة ليست بالنص على شخص محدد وإنما الإمامة هي لأي شخص من نسل علي بن أبي طالب يخرج طالباً لها؛ وهي من أقرب فرق الشيعة إلى الطائفة السنية من ناحية الأمور الشرعية. أما الإسماعيلية فيتعصبون للإمام إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق (الإمام السادس للشيعة) ورفضوا إمامة الإمام موسى الكاظم الذي أقره باقي الشيعة وتم تسميتهم بالسبعية كونهم اعتبروا الإمام إسماعيل الإمام السابع ولا إمام من بعده إلى حين مجيء المهدي المنتظر، ليتحول الإمام إسماعيل إلى الإمام السابع لدى الإسماعيلية والإمام موسى إلى الإمام السابع لدى الاثنا عشرية وهذا ما شكل مفترق الطرق لكلا الفريقين. أما العلوية المعاصرة ويسمون أيضاً بالنصيرية بعد إعلانهم الولاء للإمام محمد بن نصير النميري الذي كان بمثابة حافظ أسرار الإمامين علي الهادي (الإمام العاشر للشيعة الاثني عشرية) وابنه الحسن العسكري (الإمام الحادي عشر) واعتبروه صلة الوصل مع الإمام الثاني عشر (محمد بن حسن المهدي) والشخص الذي سيملأ الأرض عدلاً وخيراً بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً، كما أنهم يبالغون في تقديس الإمام علي بن أبي طالب ويؤمنون بفكرة التقمص، ويحافظون على خصوصيتهم الروحانية لذا يكتنف طقوسهم الدينية نوع من السرية.

برزت ثلاث فرق رئيسية امتلكت حضوراً مؤثراً في الساحة الإقليمية وهم الإسماعيلية والزيدية، والاثنا عشرية الذين يشكلون الآن غالبية الشيعة حول العالم. كان الإسماعيليون من أكثر الفرق نشاطاً في المجال العسكري والسياسي، حيث أنشأوا الدولة الفاطمية وبرز لديهم أكثر من تنظيمين متطرفين وهما القرامطة والحشاشين اللذان خاضا حرباً أيديولوجية ضد الدولة العباسية والطائفة السنية، وخلف العنف المتبادل آلاف الضحايا من الجانبين إلا أن قضاء الأيوبيين على الدولة الفاطمية، والغزوالمغولي للمنطقة واعتناق معظم الأتراك للإسلام السني والمجازر التي ارتكبوها بحق أتباع الطائفة الشيعية قضى على وجودهم في المسرح السياسي والعسكري للمنطقة؛ بينما حافظ الزيد يون على نوع من الاستقلالية في اليمن وكذلك الشيعة في إيران الصفوية.

إنّ من أبرز الأسباب التي ساهمت في تنامي قوة الحركات التي اصطلح تسميتها بالحركات الشيعية هي محبة آل البيت التي ترسخت بعد فاجعة الحسين بن علي، والتي تحولت إلى تراجيديا ذات طابع شعبي وقصة ملحمية تجسد بشاعة انتصار الظالم وشجاعة المظلوم في الدفاع عن حقه بحسب الروايات التي شخصتها؛ وكذلك فشل السلطات العباسية في تحقيق السلام والعدل والازدهار لعامة الناس بعد أن كانت قد تأسست كحركة ثورية ضد سلطة الأمويين؛ كل هذه الأمور كان لها تأثيرها على عامة الناس من مختلف الشعوب الناقمة على انعدام العدالة الاجتماعية، وشكلت مصدر إغواء للانضمام إلى أي جماعة تتبنى أيديولوجية دينية متطرفة، وكانت فرقة الإسماعيليين من أكثر هذه الحركات نشاطاً واشتهروا تاريخياً بتأسيسهم لدولتي القرامطة والفاطمية، وحركة الحشاشين، إلا أن هذه الفرقة لم تسلم أيضاً من الخلافات والانشقاقات بسبب قضايا شرعية تتعلق بمبايعة الأئمة الذين ينحدرون من الخليفة علي بن أبي طالب، فمثلاً القرامطة رفضوا إمامة عبيد

الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية، وكذلك انشقاق حسن الصباح عن الفاطميين وتأسيسه للحركة التي سميت لاحقاً باسم الحشاشين يندرج في هذا السياق.

ركزت هذه الحركات بشكل خاص على استقطاب الناقمين على السلطات الحاكمة من طبقتي الفلاحين والكادحين؛ واستطاعوا تعزيز رابطة إخوة المعتقد بين الأتباع إلى الدرجة التي تمكنوا من خلالها من إعداد مقاتلين انتحاريين وذوي عقيدة قتال مخلصة لأيديولوجية الجماعة؛ فمثلاً أقامت حركة القرامطة نظاماً ضرائبياً خاصاً بها وكان الميسورون يدفعون عن الفقراء، وأبرز جزء في هذا النظام هوما يمكن وصفه مجازياً بالمشاعية المالية في إطار ما يسمى بقانون (الألفة) والذي فرض على الأتباع جمع جميع أموالهم في موضع واحد وأن يتشارك الجميع فيها بشكل متساوي، وهذا ما أدى نسبياً إلى انعدام الفقر لدى معظم أتباع الحركة([6])، وكانت الترقية ضمن الحركة من نصيب الذي يعمل بجهد على المنافع التي يقدمها للمجموعة، يلاحظ من هذا الأمر مدى قدرة زعماء الحركة على قراءة واقعهم الاقتصادي والسياسي بشكل دقيق ومعالجة مشاكله، ويبدوأن هذا الأمر شكل دعامة قوية للنجاح النسبي للحركة في المشهد السياسي في فترة الخلافة العباسية في القرن التاسع الميلادي وانتصاراتها الكثيرة على جيش العباسيين. ولم تكن حركة الحشاشين بعيدة عن هذه الاستراتيجية.

بالنسبة لفرقة الاثني عشرية فقد استطاعت إحدى حركاتها وهي الحركة الصفوية من تأسيس دولتها الخاصة بها في أواخر القرن الخامس العشر بقيادة الشاه إسماعيل الصفوي([7])؛ وقام بفرض مذهبه على البلاد، وأنشأ قوة عسكرية عقائدية متطرفة واتخذها استراتيجية لتحقيق القوة السياسية لسلطته، حتى أن الأنظمة التي أعقبت انهيار هذه الدولة في القرن الثامن عشر لم تستطع الانسلاخ الكامل عن العقيدة السياسية هذه؛ ويبدوأنها مستمرة في تاريخنا المعاصر.

مع اندثار الحركات الشيعية- الإسماعيلية لم تبرز أية تنظيميات قوية وجديدة ذات عقيدة سياسية وقتالية لدى الشيعة، وبحسب المعطيات التاريخية فقد برزت دولة الصفويين في إيران في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وفي البلدان التي حكمتها الطائفة السنية انزوت معظم الفرق الشيعية في معاقلها، واتخذت مجموعاتها المتشتتة لمبدأ التقية([8]).

استناداً على ما سبق يمكن تلخيص العقيدة السياسية والعسكرية للحركات الشيعية المنظمة في خطابها الثوري الشعبوي المتمركز حول القاعدة الشرعية "جواز الخروج على الحاكم الظالم"، والدعوة لتحقيق العدالة الاجتماعية وإنصاف الفقراء والمظلومين؛ والتنظيم العسكري السري والتبشير بقدوم المهدي المنتظر الذي سيحرر الناس من الظلم، ومن الملاحظ أن هذه الحركات بعد أن تتمكن من تأسيس سلطة لها بأي شكل من الأشكال تبدأ هذه الخطابات والدعوات بالانحراف نحوالديماغوجية، ويتحول التطرف إلى أداة لتمكين السلطة التي تفشل في الحفاظ على ديمومتها في

---

[6] ميكال يان دي خويه؛ القرامطة/ نشأتهم، دولتهم، وعلاقاتهم بالفاطميين؛ ترجمة: حسني زينه؛ الطبعة الأولى 1978م؛ الطباعة: دار ابن خلدون- بيروت؛ ص35.

[7] للمزيد حول هذا الموضوع من المفيد مراجعة: د. حسن كريم الجاف؛ موسوعة تاريخ إيران السياسي/ من بداية الدولة الصفوية إلى نهاية الدولة القاجارية؛ المجلد الثالث؛ الطبعة الأولى 2008م؛ الناشر: الدار العربية للموسوعات- بيروت.

[8] التقية كمصطلح ديني هي إخفاء معتقد ما خشية الضرر المادي أوالمعنوي الذي قد يُلحق بصاحبه بسببه.

نهاية الأمر، الأمر الذي يفرض بروز حركة جديدة وهذا ما نلاحظه في تاريخ معظم الحركات الإسلامية بما فيها الحركات المنضوية في إطار ما يسمى بالطائفة السنية، يبدوأن هذا الأمر يؤكد رأياً للكاتب علي الوردي "... كلهم كانوا يعبدون الله وينهبون عباد الله...".

- **الحركة الأصولية الشيعية المعاصرة.**

تعود بدايات الانطلاقة الحديثة نسبياً للإسلام السياسي في تاريخنا المعاصر إلى فترة نشاط الحركة الوهابية- السعودية التي كانت تعد بمثابة حركة ثورية ضد استبداد السلطنة العثمانية، وارتكزت عقيدتها السياسية على إقامة دولة الخلافة الإسلامية العربية، تكون السلطة السياسية فيها بيد العائلة السعودية المالكة والسلطة الدينية بيد عائلة محمد بن عبدالوهاب مؤسس الفرقة الوهابية، بينما ارتكزت عقيدتها القتالية على الجهاد بعد تكفير[9] كل من يقع خارج حدودها الأيديولوجية ووجوب قتالهم حتى يعلنوا الطاعة أويتم إبادتهم؛ ولدى تتبع المراجع التاريخية عن تلك المرحلة يُلاحظ مساهمة الإنكليز في ازدياد شوكة تيارات الإسلام السياسي السني في الهند/باكستان وأفغانستان والشرق الأوسط لمواجهة تنامي الحركات الصوفية[10] والقومية والشيوعية المدعومة من دول أخرى وباتت تهدد مصالحها الاستعمارية خاصة بعد الحرب العالمية الثانية (عام 1945م) التي خسرت فيها الدول الاستعمارية الكثير من قوتها وهيمنتها على الشعوب وتضاءلت جاذبيتها الثقافية والعلمية[11]، حيث تنامت بشكل دراماتيكي تيارات الإسلام السياسي التي دعت إلى بناء دولة إسلامية أصولية، وخاضت في سبيل ذلك الكثير من الصراعات مع الحركات القومية والشيوعية في البلدان التي توصف بالإسلامية. كما وقدمت بعض هذه الدول الاستعمارية الدعم اللازم لسلطة الشاه الاستبدادية لمواجهة تمدد نفوذ الاتحاد السوفيتي، إلا أن علمانية الشاه المتطرفة واستبداده تسبب بنهضة فكرية سياسية لدى الشيعة في إيران تكللت بإسقاط سلطة الشاه عام 1979م من قبل الشعوب الإيرانية وتتأسس حركة أصولية شيعية جديدة بقيادة الإمام الخميني، ليُعاد تأسيس الحكم الشمولي بشكل آخر في بلادهم كون نسبة كبيرة من الشعب لم ينقطع ولائهم لرجال الدين، قد يكون سبب ذلك عدم تعرض الشيعة في إيران لاضطهاد ديني فظٍّ من قبل نظام الشاه على غرار ما تعرض له أقرانهم من انتهاكات في القرون الماضية، قد يكون هذا الأمر وفّر فرصة لنجاح فرقة الخميني في السيطرة على السلطة في البلاد وإقامة نظام ثيوقراطي بعد القضاء على الرافضين لأيديولوجيته من مختلف المكونات والتيارات السياسية الإيرانية، واحتكار المرجعية الدينية الشيعية في (قُم) بإقامة نظام ولاية الفقيه في البلاد التي تتحكم بما يسمى بالديمقراطية الطائفية أي حصر ممارسة الديمقراطية بشكل نسبي داخل الطائفة الشيعية وفقاً لدستور خاص بها، والسعي إلى عسكرة المعتقد الشيعي وعولمته، بخلق تنظيمات موالية في المجال الجيوسياسي

---

[9] التكفير نسبة أحد المسلمين إلى الكفر، وإخراجه عن ملّة الإسلام، ورد النهي عنه في القرآن الكريم والسنة النبوية في الكثير من الأحاديث؛ إلا أن المتطرفين من الطوائف والمذاهب الإسلامية المختلفة لا يتقيدون بهذا النهي لدوافع سياسية وبراغماتية...

[10] للاطلاع على التحليل المتعلق بإفشال إنكلترا لنماذج من هذه الثورات في كردستان من المفيد مراجعة:
عبد الله أوجالان؛ مانيفستوالحضارة الديمقراطية/ القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية- المجلد الخامس؛ ترجمة: زاخوشيار؛ الطبعة الثانية 2014م؛ بلا ناشر؛ ص124.

[11] صامويل هنتنجتون؛ صدام الحضارات/ إعادة صنع النظام العالمي؛ ترجمة: طلعت الشايب؛ الطبعة الثانية- 1999م؛ بلا ناشر؛ ص191.

والإقليمي حتى العالمي، وذلك تحت شعار تصدير مبادئ الثورة الإسلامية (الشيعية) والسعي لإقامة نظام ولاية الفقيه وحكومة إسلامية ([12]) عالمية بقيادتهم لتصبح حركة التبشير التشيُعية المعاصرة مؤطرة بهذه الأيديولوجية. وهذا ما مهد السبيل أمام نشوء الأصولية الشيعية المعاصرة التي اتخذت من كل من أمريكا وإسرائيل، وبعض الأنظمة والتنظيمات السنية العربية المتطرفة أعداء استراتيجيين لها. لقد تنامت هذه الأصولية بوتيرة متسارعة بعد أن تم تكريس الطاقات المالية والثقافية والاستخباراتية والعسكرية للدولة الإيرانية في خدمتها، واكتسبت بعداً أيديولوجياً امتد إلى خارج حدودها السياسية في سياق الأمن الجماعي الشيعي؛ بعد أن خاضت مرحلة صراعاً أيديولوجيا مسلحاً مع القوموية العربية- السنية بقيادة النظام العراقي السابق باتت أكثر قوة وهيمنة لتصبح سمعتها كرمز عصري للعالم الشيعي حاضراً في ذهنية كل شيعي حول العالم خاصة بعد انهيار عدوتها اللدودة النظام العراقي إثر اجتياح القوات الأمريكية وحلفائها للعراق عام 2003م؛ الأمر الذي أوقد النار في مرجل التطرف الشيعي الذي اطلق على السنة اسم التكفيريين، بالتوازي مع اشتداد سخونة مرجل التطرف السني الذي أطلق على الشيعة اسم الروافض([13])، وأصبح الفريقان في مواجهة حتمية مجدداً، وهذا ما يتم بالفعل في العراق وسوريا ولبنان واليمن والبحرين.

لقد أصبحت الحركات الشيعية المتطرفة والمتبنية لمذهب الاثني عشري فواعل مؤثرة في معادلة الصراع على الشرق الأوسط، واستطاعوا في العراق واليمن حماية أنفسهم بشكل جيد في مواجهة تنظيمات القاعدة وفروعها، وبلغت بهم ثقة النفس إلى السعي لإنشاء السلطة الخاصة بهم استناداً إلى أيديولوجياتهم؛ وذلك بعد مئات من السنوات من خمود الحماس العسكري العربي الشيعي في المرحلة التي تلت انهيار سلطة الشيعة العرب من الفاطميين والحمدانيين. واندثار حركتي القرامطة والحشاشين([14]) وغيرهم، بشكل خاص بعد الغزوالمغولي المدمر للمنطقة وبروز العنصر التركي في التركيبة الدولتية الإقليمية.

في تاريخنا المعاصر هناك توجهين أيديولوجيين للشيعة العرب (الاثنا عشرية) يمتلك كل منهما عقيدة عسكرية وسياسية مختلفة عن الأخرى ومتحالفين مع بعضهما على قاعدة مواجهة العدوالمشترك، وهي الأحزاب الشيعية العربية المتبنية لأيديولوجية ولاية الفقيه الإيرانية، والأحزاب التي تلتزم بالولاء لمرجعية النجف وكربلاء العراقية وجبل عامل في جنوب لبنان. أما في كردستان فلا توجد أي تنظيمات شيعية متطرفة وأغلب الشيعة الكرد كالفيليين والعلويين لا تتعدى نشاطاتهم النشاطات الدعوية والثقافية، وتسعى العديد من نخبهم السياسية إلى إقامة كيان سياسي وثقافي خاص بهم ككرد، بالإضافة إلى أن غالبية الكرد المسلمين من أتباع الطائفة السنية؛

---

[12] للمزيد حول هذا الموضوع، راجع: الإمام روح الله الخميني (المرجع الديني الأعلى)؛ الحكومة الإسلامية؛ دروس فقهية تم إلقائها على طلاب علوم الدين في النجف الأشرف تحت عنوان ولاية الفقيه 13 ذي القعدة- 1 ذي الحجة 1389هـ؛ بلا ناشر ورقم طبعة.

[13] للاطلاع على نموذج من هذه العداوة الأيديولوجية من المفيد مراجعة: الشيخ ممدوح الحربي؛ فرق الشيعة؛ الناشر: شبكة الدفاع عن السنة؛ بلا رقم طبعة وتاريخ؛ يمكن قراءته على الرابط:

https://www.cia.gov/library/abbottabad-compound/59/59B44E74DAAA792EAD48FD2A0CFFA2CC_825.DOC.pdf

[14] للمزيد راجع: برنارد لويس؛ الحشاشون/ فرقة ثورية في تاريخ الإسلام؛ ترجمة: محمد العزب موسى؛ الطبعة الثانية 2006م؛ الناشر: مكتبة مدبولي- القاهرة.

وفي تركيا لا توجد أيضاً أية تنظيمات شيعية بسبب السياسة الإقصائية ذات النزعة الطائفية- القومية (السنية- التركية) التي اتبعتها الدولة التركية وسلفتها السلطنة العثمانية لتمكين سلطتها ومحاربة الدولة الصفوية، حيث ارتكبت مجازر كثيرة بحق أتباع الطائفة الشيعية بمختلف مذاهبهم خاصة في عهد كل من السلطان سليم الأول والرئيس التركي مصطفى كمال الذي باتت انتهاكاته بحق العلويين، العرب والكرد، موّثقة في العديد من المصادر التاريخية؛ وفي إيران هناك هيمنة مطلقة لأتباع الخميني ولا توجد تنظيمات شيعية خارج نطاق سلطة البلاد، أما المعارضة الإيرانية المسماة بـ (مجاهدي خلق) فهي علمانية أكثر من كونها مذهبية.

أما في سوريا فقد تم اعتماد الأيديولوجية البعثية التي ركزت على الفكر القوموي العلماني، واكتفى الشيعة السوريون بممارسة نشاطاتهم الدينية والثقافية إلى حين انفجار الأزمة السورية عام 2011م وتنامي قوة الجماعات الأصولية السنية التي أطلقت خطابات كراهية وعدائية تجاه الشيعة. بدأت التنظيمات الشيعية المتطرفة مثل لواء أبوفضل العباس (من شيعة العراق) وزينبيون (من شيعة باكستان) وفاطميون (من شيعة أفغانستان) وغيرهم بتقديم الدعم للنظام السوري وبتحريض من الحرس الثوري الإيراني بحجة تقديم الحماية للشيعة السوريين ومراكزهم المقدسة، وانضم إليها سوريون بالإضافة إلى توافد العشرات من المقاتلين الأجانب الشيعة، وبدأت الكثير من التقارير الإخبارية تتحدث عن وجود مساع لإنشاء كيان شيعي سوري باسم حزب الله السوري على غرار اللبناني والعراقي، إلا أن هناك الكثير من العوائق برزت أمام تحقيق هذه المساعي من قبل دولة إسرائيل وبعض الدول العربية القوية كالسعودية ومصر بالإضافة إلى روسيا، وأمريكا وحلفائها، إلا أن القيادة الإيرانية على ما يبدولن تيأس عن المحاولة مجدداً.

في العراق كان الوضع مختلفاً، فهذا البلد يضم أعلى نسبة من الشيعة العرب وعدد ليس بقليل من الشيعة الكرد؛ حيث تعتبر الكوفة وكربلاء والنجف معاقل رئيسية للشيعة حول العالم وتحظى مرجعياتها الدينية باحترام كبير، وقد تعرضوا للكثير من الاعتداءات في القرون الماضية من قبل السلطات العثمانية والبعثية. لم تبرز لدى شيعة العراق أية تنظيمات سياسية تسعى لإقامة سلطة ثيوقراطية، حيث كان جلّ اهتمام مرجعياتهم النشاط الديني الدعوي ومعالجة مشاكل أتباع الطائفة، والانتفاضات التي قاموا بها كانت نوعاً من الدفاع الذاتي ضد استبداد السلطات التي سعت إلى إخضاعهم أوإقصائهم، وعلى الرغم من إقامة نظام ولاية الفقيه إلا أنّ الكثير من المرجعيات الدينية لم تكن مقتنعة بها وفضلت السلوك السلمي داخل العراق والالتزام بالهوية الوطنية العراقية، إلا أن اندلاع الحرب العراقية- الإيرانية عام 1980م جذب تعاطف معظم الشيعة مع شيعة إيران مع رفضهم المسبق لسلطة البعث العراقي، الأمر الذي أقلق نظام صدام والذي اعتبر أن الإرهاب هوالخيار الوحيد لمنع أية انتفاضة شيعية ضد نظامه وهذا ما تسبب بتمزيق الروابط الوطنية بين السلطة الحاكمة وحوالي نصف سكان البلاد، علماً أن مرجعية النجف آنذاك بقيادة كلٍ من أبوالقاسم الخوئي وعلي السيستاني كانا بعيدين عن السياسة والعسكرة واستمرا كعلماء دين، لذا فقد كانت ردة فعل النخب السياسية للشيعة هي إنشاء تنظيم عسكري في إطار الدفاع الذاتي سمي بفيلق بدر الذي اضطر إلى توسل الدعم من إيران بغياب دعم عربي له، وعدم وجود محاولات من دول عربية لاحتواء الأزمة على غرار ما فعلته الجزائر في عام 1975م، لتحدث أعمال عنف متبادلة أسقطت

الكثير من الضحايا من الجانبين مع تأجيج للأحقاد الطائفية التاريخية والتي نرى تداعياتها في تاريخنا المعاصر من خلال حالة عدم الاستقرار وتنامي نفوذ الميلشيات المسلحة وضعف الهوية الوطنية التي تعانيها الدولة العراقية الحديثة، لذا لا يمكن تفسير تطرف التنظيمات الشيعية العراقية إلا كردة فعل على تطرف القوموية العربية ذات الصبغة السنية وتنامي نفوذ الأصولية السنية بعد سقوط النظام العراقي في عام 2003م. بشكل عام هناك تياران رئيسيان في الحركة الأصولية الشيعية المعاصرة، وهما تلك المتبنية لأيديولوجية الخميني وتلك المتبنية للفكر القومي- المذهبي، ويمكن ملاحظتهما بسهولة في منطقة الشرق الأوسط، أحياناً يتصاعد الخلاف بين التيارين إلى الدرجة التي تهدد قوائم البيت الشيعي الاثني عشري، ربما يشكل هذا الأمر نقطة الضعف في تماسك وحدة صف الشيعة يمكن استغلالها من قبل الخصوم والمنافسين.

أولاً- التنظيمات التي تتبنى أيديولوجية ولاية الفقيه الإيرانية.

تنتمي هذه الأحزاب إلى الطائفة الشيعية وتتبنى المذهب الاثني عشري، وتلتزم بأيديولوجية الخميني بخصوص ولاية الفقيه وإقامة حكومة إسلامية عالمية بقيادته اعتماداً على مبدأ تحقيق الأمن الجماعي الشيعي، لم تظهر هذه الأحزاب إثر عملية اضطهاد ديني أومذهبي بل نتيجة التأثر ببروباغندا أيديولوجية الخميني وما يسمى بالثورة الإسلامية، وكغيرهم من الجماعات المتطرفة يعتبرون أنفسهم ممثلين للإسلام الحقيقي ويتبنون الجهاد لإقامة نظامهم السياسي الخاص، وتقديم الدعم لإخوة المعتقد من الحرس الثوري الإيراني، ويعتبرون الإسرائيليين والأنظمة والتنظيمات العربية السلفية وأمريكا أعداء استراتيجيين لها، حيث يقول الإمام الخميني في إحدى محاضراته[15] "... كل نظام حكم غير إسلامي هوشرك والحاكم أوالسلطة فيه طاغوت، ونحن مسؤولون عن إزالة آثار الشرك من مجتمعنا المسلم... نحن مسؤولون عن تهيئة الجوالمناسب لتربية وتنشئة جيل مؤمن فاضل يحطم عروش الطواغيت، ويقضي على سلطاتهم غير الشرعية، لأن الفساد والانحراف ينموعلى أيديهم... لا سبيل لنا إلا أن نعمل على هدم الأنظمة الفاسدة المفسدة ونحطم زمر الخائنين والجائرين من حكام الشعوب. وهذا واجب يكلف به المسلمون أينما كانوا، من أجل خلق ثورة سياسية إسلامية ظافرة منتصرة..."؛ يمكن اختصار العقيدة السياسية لهذه التنظيمات استناداً إلى أيديولوجية الخميني بالشكل التالي[16]: ابتلي الإسلام -كما يعتقدون- باليهود وحلفائهم من الذين يدّعون الإسلام وينكرون على آل البيت من ذرية علي بن ابي طالب حق الخلافة على عموم المسلمين، حيث يعملون على تمزيق الإسلام والقضاء عليه، ولوضع حد لهذا الظلم ومن أجل إسعاد ملايين الناس يجب تحطيم الحكومات الجائرة وإزالتها بتأسيس حكومة إسلامية مخلصة تحكم بالقانون الإلهي، وهذا ما يفرض ضرورة لوجود ولي الأمر القائم على النظم والقوانين الإسلامية ويمنع الظلم والتجاوز والفساد ويتحمل الأمانة ويهدي الناس إلى صراط الحق ويبطل بدع الملحدين والمعاندين؛ ولي الأمر هذا ينوب عن الإمام الغائب- الإمام الثاني عشر من أئمة آل البيت ويلقب بالمهدي المنتظر- في إدارة شؤون الرعية التي عليها إطاعته كإطاعتها للنبي وللخليفة علي بن أبي

---

15 الإمام روح الله الخميني (المرجع الديني الأعلى)؛ الحكومة الإسلامية؛ دروس فقهية تم إلقائها على طلاب علوم الدين في النجف الأشرف تحت عنوان ولاية الفقيه 13 ذي القعدة- 1 ذي الحجة 1389هـ؛ بلا ناشر ورقم طبعة. ص34.

16 نفس المرجع السابق.

طالب لذلك يجب أن يكون فقيهاً عالماً بالقانون والعدالة الإسلامية؛ كون الفقهاء- باعتقادهم- أمناء الرسل في قيادة الجيوش وإدارة المجتمع والدفاع عن الأمة والقضاء بين الناس. كما وهناك حثّ على الالتزام بالإرث المقاوم لسيد الشهداء الحسين -بحسب وصفهم- والذي أعلن الثورة على النظام الملكي وولاية العهد وفقد حياته في سبيل هذا المبدأ. لذلك يصرّون على إقامة حكومة ثيوقراطية شيعية تحكم عموم المسلمين إلى حين قدوم الإمام الثاني عشر المنتظر، كونه باعتقادهم لا يجوز أن تبقى تعاليم الإسلام وأحكامه معطلة؛ وتشكيل الحكومة الإسلامية ضرورة للجهاد والدفاع عن حياض المسلمين لضمان استقلال وكرامة الأمة، ويعتبرون أنفسهم مكلفين بإنقاذ المحرومين والمظلومين ويتوجب عليهم الجهاد المقدس لمقاومة المستكبرين وصد الخائنين وآكلي السحت([17]) والذين ينهبون أموال الشعب والمستضعفين، وإنزال العقوبة بهم وبكل من يوقع اتفاقيات نفطية وتجارية مع الغرب والشيوعيين، كونهم يعتبرون عملاء وخونة يتوجب محاربتهم، والأعداء لديهم هم كل قوى الاستعمار وعملائه من الحكام والخونة والصهيونية (إسرائيل) والمادية الملحدة. وبالتالي تتلخص العقيدة السياسية الخمينية بتمتع ولي الفقيه بكامل صلاحيات وبسلطات مطلقة فله الحق في التصرف بالأموال والنفوس إلى حين ظهور الإمام الثاني عشر أوالمهدي المنتظر، وله الحق في إصدار الفتاوى وإبطال أخرى، ورسم السياسة الخارجية والتحكم بالجيش؛ وكل من يقع خارج حدودهم الفكرية يعتبر عدواً لديه خياران إما التشيع أوقبول سلطتهم خانعاً وتشييع نسله، أوالإبادة بشكل تدريجي. بينما تتلخص العقيدة العسكرية بشن حرب جهادية لتحقيق العقيدة السياسية هذه.

يبدوأن ما يسمى بالمعسكر الغربي في فترة الحرب الباردة وجد هذا الأمر فرصة جيدة لتعزيز هيمنته بخلق اضطرابات طائفية في المناطق التي يتنامى فيها النفوذ السوفيتي، وبغرض موازنة قوة تنامي القوموية العربية والأصولية السنية بأصولية شيعية في إطار ما يسمى باستراتيجية الفوضى الخلاقة.

تمكنت عدة تنظيمات شيعية في العراق ولبنان واليمن من تنمية نفوذها الأيديولوجي في هذه البلدان وبدعم من نظام ولاية الفقيه حيث باتت أيديولوجية الخميني المهيمنة على العقيدة السياسية والقتالية لهذه التنظيمات، وبشكل خاص الحوثيين وحزب الله، اللبناني والعراقي، والعشرات من الفصائل الشيعية المنضوية تحت لواء الحشد الشعبي العراقي كعصائب أهل الحق وحركة النجباء وغيرها([18]).

---

[17] السحت في المنظور الشرعي الديني: المال الحرام وكل ما لا يحلُّ تناولُه، وكل حرام يقبح ذكرُه. وقيل: هوما خَبُث من المكاسب أوالحرام الذي لا يحل كسبه. وقيل: الرشوة في الأحكام...معجم المعاني (الإلكتروني)؛ معنى السُّحْتَ في القرآن الكريم.

[18]للتعرف على خارطة توزع الميليشيات الشيعية في الشرق الأوسط من المفيد مراجعة: فيليب سميث؛ مشروع إعداد خارطة بمواقع انتشار الميليشيات الشيعية؛ الناشر: معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى؛ تاريخ النشر: 2019/5/20م؛ الرابط:

https://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/mshrw-adad-khartt-bmwaq-antshar-almylyshyat-alshyyt

للتعرف على تركيبة الحشد الشعبي من المفيد الاطلاع على: ريناد منصور- فالح عبد الجبار؛ الحشد الشعبي ومستقبل العراق؛ الناشر: مركز كارينغي للشرق الأوسط؛ تاريخ النشر: نيسان 2017م؛ الرابط:

1. حزب الله اللبناني.

يعد حزب الله نموذجاً ناجحاً في هذا الإطار بعد أن أصبح تنظيماً عابراً للحدود؛ لقد تأسس حزب الله في خضم الصراع العربي- الإسرائيلي وفي فترة الحرب الأهلية والغزوالإسرائيلي لجنوب لبنان في بداية الثمانينات، وتنامت قوته بسبب عقيدته القتالية الجهادية وتفضيله بالدعم الكبير الذي تلقاه من الحرس الثوري الإيراني، وذلك بعد أن عمد تنظيم أفواج المقاومة اللبنانية التي تُعرف اختصاراً بحركة أمل الجناح المسلح لحركة المحرومين التي أسسها الإمام موسى الصدر عام 1978م، إلى اتخاذ نهج خاص بها والتي ارتكزت على كلٍ من الهوية الوطنية العربية اللبنانية ومواجهة الأطماع الإسرائيلية في الأراضي اللبنانية وتحسين الواقع المعيشي لشيعة لبنان، والنأي بالنفس عن الصراعات المذهبية الإقليمية، وحدثت معارك عديدة بين التنظيمين لعل أشهرها تلك التي سميت بحرب الإخوة والتي استمرت من عام 1988م وحتى عام 1990م حيث انتهت بوساطة إيرانية- سورية، فقدت حركة أمل على إثرها الكثير من قوتها العسكرية بموازاة تنامي هيمنة حزب الله على شيعة لبنان. شكلت أيديولوجية حزب الله المتطرفة وذات الطابع الثوري جاذبية كبيرة للمتطرفين من الشيعة في فترة تعرض فيها الشعب اللبناني لتدخل عسكري غربي واعتداءات إسرائيلية متكررة. بدعم من الاستخبارات السورية والإيرانية أعلن الحزب الجهاد تحت شعار مقاومة القوات الإسرائيلية الغازية والقوات متعددة الجنسيات بقيادة أمريكا، وشن سلسلة من العمليات الفدائية ضد هذه القوات كان أبرزها التفجير الذي استهدف جنود المارينز وفرقة المظليين الفرنسيين في بيروت عام 1983م والذي خلف عشرات القتلى ومئات الجرحى من هذه القوات، وتحول إلى القوة الرئيسية في المقاومة اللبنانية بعد أن أجبر القوات الإسرائيلية وحليفهم جيش لبنان الجنوبي([19]) على الانسحاب من معظم الأراضي في جنوب لبنان، لتتنامى قوته العسكرية وخبرته القتالية وتزداد شعبيته بين اللبنانيين والتي بلغت ذروتها في حرب تموز عام 2006م مع الجيش الإسرائيلي؛ لقد بلغ الحزب من القوة إلى مستوى القدرة على شل الحياة السياسة والاقتصادية اللبنانية وإعلان الحرب وخوض معارك نوعية مع الجيش الإسرائيلي، وحتى التدخل في الأزمات التي تشهدها الدول الإقليمية.

يتقيد بأيديولوجية الخميني في عقيدته السياسية ويتنافس مع حركة أمل على زعامة شيعة لبنان. تحصر حركة أمل نشاطها السياسي والعسكري داخل حدود الدولة اللبنانية في حين يعتبر حزب الله تنظيما عابرا للحدود يتجاوز دستور وسيادة الدولة اللبنانية على غرار الحرس الثوري عبر فيلق القدس، وقد لعب دوراً في الحفاظ على سلطة النظام السوري في سياق الأزمة التي تعاني منها سوريا إلى جانب تقديمه الدعم لحركة الحوثيين في اليمن وللحشد الشعبي في العراق؛ يعاني أتباع حزب الله اللبناني من ازدواجية في هوية الانتماء بين لبنان ونظام ولاية الفقيه، فقد خاضوا معارك مع السلفيين اللبنانيين بقيادة الشيخ أحمد الأسير، وتم اتهام الحزب بجرائم سياسية في لبنان من

---

https://carnegieendowment.org/files/Paper_Renad_Mansour_PMF_Final_1June.pdf

[19] ويسمى أيضاً "جيش لحد" وهي ميليشيات تشكلت حوالي عام 1978م في مدينة مرجعيون بدعم من إسرائيل من أبناء القرى الجنوبية اللبنانية والمنشقين عن الجيش اللبناني وفصائل المقاومة الفلسطينية... كان أول قائد لها الرائد سعد حداد وخلفه أنطوان لحد... شاركوا في معارك كثيرة ضد الجيش اللبناني وحزب الله اللبناني وفصائل المقومة الفلسطينية... تم حلّه عام 2000م إثر الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان...

أبرزها جريمة اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري في عام 2005م، وانفجار مرفأ بيروت في صيف عام 2020م، علماً أنّ الحزب يرفض هذه الاتهامات ويعتبرها حرباً نفسية ضده.

2. منظمة بدر.

تأسس هذا التنظيم في عام 2004م بعد بروز ميول لبعض قادة فيلق بدر([20]) تجاه أيديولوجية ولاية الفقيه كأبومهدي المهندس وهادي العامري وغيرهم، وفي عام 2012م انشقت المنظمة عن المجلس الإسلامي الأعلى في العراق وأنشأت تنظيماً سياسيا خاصاً بها. انبثقت عن هذه المنظمة تنظيمات شيعية متطرفة أبرزها كتائب حزب الله العراقيويتبوأ قادة المنظمة مراكز قيادية مهمة في مؤسسة الحشد الشعبي العراقي الذي يهيمن أمنياً واستخباراتياً على مساحات كبيرة من جنوب ووسط العراق بعد مشاركته الفعّالة في المعارك ضد تنظيم داعش. تتبنى هذه المنظمة وفروعها العقيدة السياسية والعسكرية المؤطرة بأيديولوجية ولاية الفقيه، وتركز على محاربة الأطراف التي يعاديها الحرس الثوري الإيراني([21]) وقد تحول إلى تنظيم عابر للحدود مع الدعم الذي قدمه للنظام السوري في معاركه ضد مختلف أطياف المعارضة السورية، الأمر الذي يطرح إشكالية في مدى التزامها بالهوية الوطنية العراقية؛ خاصة بعد أن برزت مواقف غير ودية من قبل التيار الصدري تجاه هذه المنظمة في السنوات الأولى من تشكيلها، حيث جاء في إحدى الخطب للزعيم الشيعي مقتدى الصدر في أحد مساجد الكوفة([22]) في الفترة التي تزامنت مع المعارك التي نشبت بين أنصاره وقوات التحالف الغربي بعد إسقاط النظام العراقي وقبل انشقاق هذه المنظمة عن فيلق بدر حيث قال: "أخص بالفتنة فيلق بدر الذي كان أكبر مساند للسيد الوالد في زمن الطاغية، فماذا حدث؟ لا أعلم ما الذي قلب الموازين، الله العالم... أحضّهم بالالتفات إلى مثل هذه الأمور، خصوصاً وأن العدوالآن يبعث ببعض الجواسيس بين صفوف جيشنا المنصور، ثم ما أن كشفناهم حتى ادّعوا أنهم من فيلق بدر... إنني لا أصدق هذا. فإن هذا التصرف إشعال للفتنة بيننا ليس إلا، فالتفتوا إلى ذلك.".

ثانياً- التنظيمات التي تلتزم بالولاء النسبي لهويتها الوطنية.

ليس من الدقة اعتبار جميع الشيعة خاضعين لهيمنة نظام ولاية الفقيه في إيران، حيث أن الكثير من مذاهب الطائفة كالإسماعيلية والعلوية والزيدية تخلوا عن أيديولوجياتهم السياسية، وانخرطوا في الحالة السياسية لبلدانهم ووصلوا إلى قمة هرم السلطة كما في سوريا، واختار الكثيرون العلمانية في حياتهم السياسية، وقد بلغ الأمر إلى وصول بعضهم إلى قيادة أحزاب قوية كحزب الشعب الجمهوري التركي، إلى جانب تركيز الإسماعيلية على مزاولة نشاطات اقتصادية وإغاثية

[20] تأسس فيلق بدر عام 1982م بإشراف محمد باقر الحكيم؛ وعُدّ بمثابة الجناح العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق أوالمجلس الإسلامي الأعلى في العراق، الذي كان بمثابة جبهة المقاومة لسلطة النظام العراقي السابق في جنوب العراق...

[21] للمزيد راجع: مايكل نايتس وآخرون؛ لمحة عامة عن "منظمة بدر"؛ الناشر: معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى؛ تاريخ النشر: 2021/10/2م؛ الرابط:
https://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/lmht-amt-n-mnzmt-bdr

[22] نجاح محمد علي؛ تعريف بمنظمة بدر؛ الناشر: موقع SWI swissinfo.ch؛ تاريخ النشر: 2005/6/3م؛ الرابط:
https://www.swissinfo.ch/ara

على المستوى الدولي كشبكة الأغا خان الدولية للتنمية؛ بينما كان للزيديين دور كبير في نشوء الدولة اليمنية علماً أن حركة الحوثيين الحالية انشقت عنهم سياسياً وتبنت أيديولوجية ولاية الفقيه. بالنسبة للشيعة الاثنا عشرية يبرز اسم مقتدى الصدر كزعيم شيعي عربي والسيد علي السيستاني كمرجعية شيعية لا يؤيدان كما يبدوأيديولوجية ولاية الفقيه ويلتزمان بالهوية الوطنية العراقية، ولم تصدر عنهما أية خطابات أيديولوجية عابرة للحدود العراقية. فبالنسبة لمرجعية (قم) في إيران يتوجب أن يتمتع ولي الفقيه بسلطات مطلقة في الدولة والنظام الاجتماعي والروحي والاقتصادي، بينما بالنسبة لمرجعية النجف العراقية فيقتصر صلاحيات ولاية الفقيه في إطار الحسبة أي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله، وإصلاح بين الناس في إطار الشريعة الدينية، وحفظ النظام الاجتماعي؛ ولا يوجد سعي لإقامة دولة مذهبية.

يعد مقتدى الصدر من أكثر قادة الشيعة العرب نشاطاً وأبرز التنظيمات الشيعية المسلحة التي تناصره هي منظمة جيش المهدي الذي أسسه في أواخر عام 2003م لحماية المناطق الشيعية في إطار الدفاع الذاتي، وسرعان ما تحولت إلى مقاومة سلطة قوات التحالف التي أسقطت النظام العراقي وطالبتها بالانسحاب من العراق، كما ورفضت قيام دولة علمانية على غرار الدول الغربية التي اتهمت التنظيم بارتكاب انتهاكات لحقوق الإنسان طالت الطائفة السنية وموظفين حكوميين؛ وحدثت أعمال عنف متبادلة استمرت حتى عام 2008م أوقعت العديد من الضحايا والقتلى بين الطرفين. يبرز الجانب العقائدي من خلال تسمية التنظيم فهم يعتبرون أنفسهم نواة الجيش الذي سيقوده الإمام المهدي المنتظر؛ يحظى التنظيم بشعبية كبيرة في جنوب العراق وكان له مساهمة فعالة في تأسيس الحشد الشعبي العراقي لقتال تنظيم داعش وتحقيق هيمنة عسكرية للشيعة على معظم المناطق العربية العراقية. يبدي التيار الصدري عاطفة عربية شيعية في عقيدته السياسية فهويرفض الخضوع الكامل لهيمنة الحرس الثوري الإيراني ويسعى لإقامة علاقات ندية معها، ويرفض بقاء القوات الأجنبية في الأراضي العراقية. مع تنامي قوة تنظيم داعش في عام 2014م وسيطرته على مناطق شاسعة من العراق قام التيار الصدري بتأسيس قوات جديدة حملت اسم (سرايا السلام) كان في قائمة أهدافها حماية أتباع الطائفة والمراكز الدينية المقدسة لدى الشيعة في العراق، وإثر إعلان تشكل الحشد الشعبي بموجب فتاوى الجهاد الكفائي[23] الذي أصدره المرجع الشيعي الأعلى في العراق السيد علي السيستاني، وهي فتوى ذات رمزية وطنية للعراقيين وتذكّرهم بفتوى الجهاد الكفائي التي أصدرها آية الله العظمى الشيخ محمد تقي الشيرازي لمواجهة الغزوالبريطاني للعراق في عام 1920م؛ سارع هذا التنظيم بالانخراط في صفوفه وشارك في معظم المعارك ضد داعش، يبدوأن تيار الصدر استطاع إعادة إحياء تنظيمه العسكري (جيش المهدي) بصورة غير مباشرة وبشكل آخر.

---

23 الجهاد الكفائي من وجهة نظر الشيعة هوالجهاد الذي لوقام به العدد اللازم لسقط التكليف عن الآخرين فيكون وجوباً على الجميع حتى يبلغ الأمر كفايته، أما الجهاد العيني فهوالجهاد الذي يجب على الجميع القيام به ولا يسقط عن أحد بوجه من الوجوه ما لم يكن عاجزاً أومعذوراً لعذر شرعي... وسبق أن أصدرت المرجعيات الشيعية هذا النوع من الجهاد في مقاومة الغزوالبريطاني للعراق عام 1920م من قبل آية الله العظمى الشيخ محمد تقي الشيرازي...
محمد سعيد المخزومي؛ ماذا لوكانت الفتوى بالجهاد العيني لا الكفائي؛ الناشر: شبكة النبأ المعلوماتية؛ الرابط:
https://m.annabaa.org/arabic/authorsarticles/2519

حاول أنصار أيديولوجية ولاية الفقيه إخضاع الجناح العسكري للتيار الصدري لهيمنته، واستطاع دفع بعض قادته للانشقاق عنه كقيس الخزعلي الذي أنشأ تنظيم عصائب أهل الحق([24]) المتبنية لأيديولوجية ولاية الفقيه، والذي انشق عنه بعض قياديه بزعامة أكرم الكعبي عام 2013م ليشكلوا تنظيماً أكثر تطرفاً وتعصباً لأيديولوجية ولاية الفقيه، اطلق عليه اسم حركة النجباء العراقية (حركة حزب الله النجباء). إلا أن الحركة الاحتجاجية الشعبية التي بدأت في صيف عام 2015م وبدعم من هذا التيار ومعارضة حكومة نوري المالكي والمتعاطفين مع نظام ولاية الفقيه لهذه الاحتجاجات يشير إلى وجود خلافات أيديولوجية داخل البيت الشيعي العراقي بخصوص مسألة الهوية الوطنية العراقية؛ وما يزيد من وضوح هذه المسألة نتائج الانتخابات البرلمانية العراقية الأخيرة في عام 2021م التي فازت فيها كتلة التيار الصدري بأعلى عدد مقاعد في البرلمان العراقي بواقع 73 مقعداً كنتيجة أولية مقارنة بالكتلة المنافسة والتي احتلت المركز الثاني بـ37 مقعداً، وما شهدته الأزمة السياسية العراقية من صعوبة في اختيار رئيس للجمهورية وتشكيل الحكومة العراقية، الأمر الذي يشير إلى استمرار شعبية التيار الصدري في الأوساط الشيعية العراقية وتدنياً في شعبية التيارات الموالية لأيديولوجية ولاية الفقيه.

بالاستناد إلى ما تم ذكره يمكن أن نقدم موجزاً عن العقيدة السياسية والعسكرية لهذه التنظيمات بالشكل التالي:

- **العقيدة السياسية([25]).**

تحاول التنظيمات الشيعية خلق واقع سياسي يضمن لها استقلاليتها وخصوصيتها الثقافية في بلدانها؛ وتسعى لتنسيق جهودها وطاقاتها وفقاً لمبدأ الأمن الجماعي "الهجوم ضد أي أحد هوهجوم على الجميع"([26]) أي اشتراك الجماعات الشيعية في صيانة أمنها بصورة جماعية؛ إلا أنها بالمقابل لا تزال تستحضر بعض الأحقاد التاريخية القديمة مع الجماعات السنية من خلال العديد من المناسبات الدينية الشيعية، الأمر الذي يفرض صعوبة في التعايش مع العالم وخاصة مع أتباع الطائفة السنية، بل تسعى إلى فرض سيادتها الدينية؛ وتعتبر نفسها صورة الإسلام الصحيح لذلك فهي لا تمانع إقامة حكومة إسلامية وفقاً للفقه الشيعي، وترى بعض التنظيمات هذا الأمر جوهرة أيديولوجياتها كتلك المتبنية لأيديولوجية ولاية الفقيه.

يُلاحظ أن العقيدة السياسية لهذه التنظيمات تتمحور حول استنساخ تجربة الحرس الثوري الإيراني بإنشاء قوات عسكرية وأمنية مذهبية الطابع ضمن القوات المسلحة الرسمية لبلدانها ويرفضون التخلي عن السلاح أوالخضوع الكامل لسلطة بلدانهم؛ هذا الأمر أصبح بمثابة خطر استراتيجي يهدد الأمن الوطني للبلدان التي تتواجد فيها هذه التنظيمات. من ناحية أخرى يحاول كل

---

[24] للمزيد عن التنظيم من المفيد الاطلاع على: مايكل نايتس؛ لمحة عامة عن "عصائب أهل الحق"؛ الناشر: معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى؛ تاريخ النشر: 2021/4/27م؛ الرابط: https://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/lmht-amt-n-sayb-ahl-alhq

[25] العقيدة السياسية بشكل عام هي سياسة أوموقف أومبدأ تتم الدعوة إليه أوتدريسه أوتنفيذه فيما يتعلق بالوصول للسلطة وممارستها لحكم المجتمع أوإدارة شؤونه.

[26] الموسوعة السياسية (الإلكترونية)؛ الأمن الجماعي - Collective Security؛ الرابط: https://political-encyclopedia.org/dictionary

تنظيم إنشاء تكتل سياسي خاص به والمشاركة في الانتخابات في البلاد لضمان هيمنة سياسية له؛ بالإضافة إلى توفير ضمانات اقتصادية للأتباع خارج رعاية سلطات البلاد التي يتواجدون فيها.

بالنسبة للتنظيمات التي تلتزم بالولاء النسبي لهويتها الوطنية فقد برزت كاستجابة للتهديدات الطائفية الطابع التي حملها كل من حزب البعث العراقي وتنظيم القاعدة وداعش ضد مقدساتهم من معتقدات ورموز ومزارات ومدن؛ لذلك فإنّ عقيدة قتالها تتمحور حول الدفاع الذاتي عن المعتقد وحماية الطائفة الشيعية، علماً أن مراسم وطقوس إحياء ذكرى كربلاء وعاشوراء وغيرها واستذكار الانتهاكات التي تعرضوا لها في القرون الماضية تؤجج روح الانتقام في نفوسهم، وتغذي نزعة التطرف لديهم؛ ويبقى مدى الالتزام بطاعة المرجعيات الدينية والطابع السلمي النسبي لفتاويهم الصمام الأمان لهذه النزعة. تطالب هذه المرجعيات بضم التنظيمات الشيعية المسلحة في القوات المسلحة للبلاد بزوال مصدر الخطر الذي استدعى تشكيلها، وهذا ما تؤكد عليه مرجعية النجف انطلاقاً من التزامها بالمادة (9) من الدستور العراقي([27]) خاصة البند (أ) والبند (ب). بينما يطالب الطرف الآخر بضرورة الحفاظ على هذه التنظيمات كمؤسسة مستقلة([28]) رديفة للقوات المسلحة للبلاد وتخصيص ميزانية لها.

- **العقيدة العسكرية([29]).**

إن ذكرى الانتهاكات التي تم التعرض لها، والموروث الثقافي الشعبي لدى الطائفة الشيعية من حكايات وذكريات وملاحم تغرز في عقل أتباعها صورة العدوالمتوحش المتربص؛ وتغذي عقيدة القتال بمعنويات ومشاعر مشروعة من وجهة النظر المذهبية. الأمر الذي يخلق شخصية منفتحة على العنف المقترن بالتطرف. يبدوأن هذا الأمر يفسر قوة المجموعات الفدائية لحزب الله اللبناني، وانضمام الآلاف من العراقيين إلى مؤسسة الحشد الشعبي دون الجيش العراقي بمجرد صدور فتوى الجهاد الكفائي، والجاذبية التي يمتلكها الحرس الثوري الإيراني لدى غالبية الشيعة.

بالنسبة للتنظيمات المتبنية لأيدولوجية ولاية الفقيه فإنّ عقيدتها العسكرية جزء لا يتجزأ من العقيدة العسكرية للحرس الثوري الإيراني، من ناحية تصنيف الأعداء ونوع الأسلحة المستخدمة في الأعمال القتالية، وتكتيكات القتال المتبعة، وطبيعة عقيدة القتال. يطلق هذا الفريق على نفسه اسم "محور المقاومة" للنفوذ الأمريكي والإسرائيلي في المنطقة واللذان يوصفان بقوى الاستكبار

---

[27] المادة (9): أ- تتكون القوات المسلحة العراقية والاجهزة الامنية من مكونات الشعب العراقي، بما يراعي توازنها وتماثلها دون تمييزٍ اواقصاء، وتخضع لقيادة السلطة المدنية، وتدافع عن العراق، ولا تكون اداةً لقمع الشعب العراقي، ولا تتدخل في الشؤون السياسية، ولا دور لها في تداول السلطة.
ب- يحظر تكوين ميليشيات عسكرية خارج إطار القوات المسلحة.
الدستور العراقي؛ يمكن قراءته على الرابط: https://investpromo.gov.iq/ar/policies-and-laws/iraqi-constitution/

[28] ريناد منصور- فالح عبد الجبار؛ الحشد الشعبي ومستقبل العراق؛ الناشر: مركز مالكوم كير- كارينغي للشرق الأوسط؛ 28 نيسان 2017 الرابط: https://carnegie-mec.org/2017/04/28/ar-pub-68812

[29] العقيدة العسكرية: هي جميع المبادئ والسياسات والقضايا الفنية أوالأساليب التي بموجبها تتمكن القوات المسلحة أوالعناصر من توجيه أعمالها. إنها تستنبط من الأفكار المتطورة المتفق عليها...العميد سامي العوض؛ معجم المصطلحات العسكرية؛ الطبعة الأولى 2008م؛ الناشر: دار أسامة للنشر والتوزيع- عمان/ الأردن؛ ص365.

العالمي، وتروج دفاعها عن المستضعفين الذين يوصفون به المهمشين والفقراء والعمال والفلاحين من الشعوب التي تعاني من استبداد السلطة التي تحكمهم وترى في فرض سلطته عليهم بمثابة الخلاص لهم من مأساتهم.

يتقيد سلوك ونشاط هذه التنظيمات باستراتيجيتي الحرب الهجينة والمنطقة الرمادية([30])؛ فمثلاً يربط البعض بين سحب القوات الأمريكية من العراق بازدياد الهجمات الصاروخية على قواعدها العسكرية من قبل تنظيمات شيعية سرية، أواستعداد حزب الله اللبناني لشن حرب على إسرائيل بدون تدخل عسكري مباشر من إيران، ونفس الأمر بالنسبة للحوثيين وشنّ حرب على المملكة السعودية، وأية مواجهة مفتوحة للجيش الإيراني مع هاتين الدولتين ستشكل هذه التنظيمات عنصر المعركة الرئيسي في جبهات التماس؛ لذلك يلاحظ تركيز هذه التنظيمات على زيادة مخزونها من الصواريخ المتوسطة والبعيدة المدى واقتناء الطائرات المسيرة ومضادات الدروع والطيران متجاوزة بذلك إطار حرب العصابات التقليدية. تعتقد هذه التنظيمات بأن الكثافة العالية لقوتها النارية التكتيكية من شأنه أن يحقق توازناً مع أسلحة خصومها المتطورة، كما ويتم استغلال مسألة هيبة جيش الخصم في حماية مواطنيه وجنوده ومراكزه الحيوية في تحقيق مكاسب معنوية، فمثلاً في حرب تموز عام 2006م شكلت مسألة حماية المدنيين الإسرائيليين ووقوع العشرات من الضحايا المدنيين اللبنانيين ورقة الضغط الأكبر على الحكومة الإسرائيلية لقبول وقف إطلاق النار مع حزب الله. من ناحية أخرى تبرز من فترة إلى أخرى أسماء لتنظيمات غامضة تتبنى قصف بعض المواقع العسكرية الأمريكية في العراق وسوريا كلواء فاتح خيبر وكتائب أهل الكهف والمقاومة الشعبية لتحرير المنطقة الشرقية السورية وغيرها.

أما بالنسبة للتنظيمات التي تتبنى الهوية الوطنية لبلادها فتندرج عقيدتها في إطار الدفاع الذاتي وتقديم الدعم للقوات المسلحة للبلاد في حالة الحرب، وتضع السلاح بمجرد صدور أوامر عسكرية من القيادة العسكرية للبلاد، وهذا ما تدعيه في أي تصريح بهذا الخصوص([31]). على الرغم من

---

[30] " الحرب الهجينة هي الوصف لنشاطات خفية أوقابلة للإنكار، تدعمها قوات تقليدية أونووية، ترمي إلى التأثير على السياسة الداخلية للبلدان المستهدفة، وبحسب تعريف (فرانك هوفمان) الحرب الهجينة هي خليط من الوسائل التقليدية وغير النظامية في سبيل تحقيق الأغراض السياسية أوخليط من التكتيكات أوأي خصم يستخدم في آن واحد، خليطا مضبوطا من الأسلحة التقليدية، والتكتيكات غير النظامية، والإرهاب، والسلوك الإجرامي، في الوقت نفسه وفي فضاء المعركة نفسه للحصول على أغراضه السياسية...". أندرورادن؛ الحرب الهجينة في منطقة البلطيق (التهديدات والاستجابات المحتملة)؛ مركز RAND للأبحاث، كاليفورنيا؛ 2017م. الرابط:
https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/research_reports/RR1500/RR1577/RAND_RR1577z1.arabic.pdf

استراتيجية المنطقة الرمادية هي مجموعة من الأنشطة والإجراءات السرية التي تستخدم الموارد الوطنية (الاقتصادية والبشرية) للبلدان بشكل غير مباشر ضد نقاط ضعف الخصم وتصعيب خيارات استجابته للتعامل مع التهديدات تجاه مصالحه ومراكزه الحيوية وتفادي اندلاع صراع عسكرياً أكبر يترتب خسائر بشرية وتكاليف باهظة، أي تنفيذ ضربات غير علنية محدودة ومدروسة متبادلة لا تستوجب الرد القوي لتحقيق أهدافاً استراتيجية... للمزيد عن مفهوم المنطقة الرمادية من المفيد مراجعة:

The Perry Group; Grey Zone; The Forge; Link: https://theforge.defence.gov.au/perry-group-papers/grey-zone

[31] من هذه التصريحات، تصريح للمتحدث باسم الحشد الشعبي أحمد الأسدي.

ذلك يجد العراقيون صعوبة في تحقيق هذا الأمر في بلادهم، فالنظام الفدرالي للبلاد وهجمات تنظيم داعش أفرز ثلاثة مؤسسات عسكرية رسمية وهي كل من قوات الجيش العراقي وقوات البيشمركة وقوات الحشد الشعبي، حيث تلمح الدعوات الرافضة لحل الحشد الشعبي أودمجه في الجيش العراقي بإمكانية تحوله إلى قوة فدرالية خاصة بالجنوب العراقي ذوالغالبية الشيعية على غرار قوات البيشمركة الكردية، خاصة بعد فشل الجيش العراقي في الصمود أمام هجمات تنظيم داعش، وتيقن الشيعة بضرورة زيادة حماية أنفسهم ومقدساتهم من خلال مؤسسة عسكرية خاصة بهم.

الاستراتيجية الكامنة في تشكيل شبكة من التنظيمات الشيعية المتطرفة.

بات من المعلوم أنّ كل منطقة تحتضن ديمغرافية شيعية كبيرة نسبياً لا تكاد تخلومن تنظيم سياسي أوعسكري شيعي، وبما أنهم يشكلون الأقلية في معظم البلدان، ويواجهون أحقاداً طائفية متبادلة، ويتعرضون للقمع والإقصاء؛ فإنّ العامل الرئيسي في عقيدتهم السياسية والعسكرية هي عامل الدفاع الذاتي.

تنامت قوة التنظيمات الشيعية المتطرفة في مطلع القرن الحادي والعشرين بسبب الدعم المادي والمعنوي والعسكري والأمني الكبير الذي تلقته من الحرس الثوري الإيراني في إطار استراتيجية الأمن الجماعي الشيعي، ورد الفعل على تنامي قوة التنظيمات السنية المتطرفة؛ إلى جانب ثورة الاتصالات والمعلومات وازدياد الوعي بضرورة امتلاك أسباب القوة التي تحمي المجتمع الشيعي من الاضطهاد وتسلط الآخرين وتحافظ على خصوصيته المذهبية والثقافية، على الرغم من أن عامل الدفاع الذاتي يشكل الدعامة الرئيسية لهذه التنظيمات إلا أن طموحات قادتها تدفعها باتجاه استغلال أي فرصة سانحة لتمكين سُلطة لها على بلدانها ونموذج ذلك واضح في اليمن ولبنان والعراق، كما أنها تعتبر عناصر رئيسية في أية حرب هجينة قد تشنها إيران ضد خصومها.

لا توجد أرقام دقيقة لعدد المجندين في هذه التنظيمات ولكن إصدار فتوى الجهاد الكفائي أوالعيني من قبل المرجعيات الدينية كفيلة بتجنيد عشرات الآلاف من القادرين على حمل السلاح في صفوفها، إلا أن تحديد رقم دقيق للمنخرطين بشكل كامل في هذه التنظيمات يعد من الأمور الصعبة. بالنسبة للتجنيد تم ملاحظة ارتياد معظم قادتها للجامعات ومرجعية قم في إيران، بالإضافة إلى الشحن المعنوي المُسبق لعقيدة القتال في المراكز الدينية للمجتمعات الشيعية المحلية. معظم رايات هذه التنظيمات تشترك بشعار اليد القابضة على البندقية وخلفها رمز يشير إلى الكرة الأرضية والذي يخص بالأساس الحرس الثوري الإيراني.

بالنسبة للتمويل فتحصل عليها من تبرعات المجتمعات التي تحتضنهم إلى جانب التمويل الذي يوفره الحرس الثوري، وبعض التنظيمات نجحت في إنشاء مصادر تمويل خاصة بها عبر الأنشطة التجارية كتجربة حزب الله اللبناني، أما بالنسبة لتجارة الممنوعات فهي تبدوكدعاية سوداء موجهة ضد هذه التنظيمات على الرغم من ذلك يمكن تشريع هذا الأمر بفتوى دينية كفتوى (الاحتطاب من

الأسدي: عقيدة الحشد الشعبي واضحة وهي الدفاع عن العراق؛ الناشر: صوت العراق؛ تاريخ النشر: 2017/4/24م؛ الرابط:

https://www.sotaliraq.com/2017/04/24

أموال الكفار) وفتوى (بيع السم للكافر) التي شرعّها فقهاء التنظيمات السنية المتطرفة([32])، والذي يقابله ظاهرة (التعفيش) من قبل قوات النظام السوري والميليشيات المتحالفة معه بحق أملاك المواطنين النازحين والمهجرين والهاربين، بمعنى أن الأذى الذي يتوجب أن يلحق بالذي لا يخضع لأيديولوجية أي تنظيم متطرف يجب ألا يقتصر فقط على القتل أوالضرر الجسدي وإنما استباحة كامل ممتلكاته وإلحاق الضرر بكيانه الفكري والنفسي.

لذا يبدوأن قوة التنظيمات الشيعية المتطرفة في تنامٍ متصاعد ولم تصل بعد إلى الذروة التي تسبق عمليه الاندحار التدريجي طالما أنها تتنامى بالتوازي مع كلٍ من تصاعد التطرف السني، ورغبة الشعوب في تجربة الديمقراطية التي لم تجربها مُسبقاً في بلدانها والتي تصطدم بممانعة فئة الانتهازيين المحلية لها الساعية وراء ضمان ديمومة سلطتها، وإصرار نظام الحكم في إيران على عولمة أيديولوجية ولاية الفقيه والتحول إلى قوة إقليمية ومن ثم دولية تمتلك أسلحة نووية برغبة منها في استنساخ التجربة السوفيتية مع البلدان التي حكمتها الحركات الشيوعية أوالأنظمة المتعاطفة معها وفقاً لأيديولوجية الخميني.

بالإضافة إلى التنظيمات التي تم التطرق لها في سياق الفقرات، فيما يلي قائمة بأسماء أهم التنظيمات الشيعية المتطرفة (من المذهب الاثني عشري) ومعلومات موجزة عنها:

1. تنظيم لواء زينبيون الباكستاني.

الاسم التنظيمي، لواء زينبيون، أعلن عن تأسيسه في سوريا عام 2015م بعد ازدياد أعداد المجاهدين الشيعة الباكستانيين في لواء فاطميون الأفغاني. يعد بمثابة فرع خارجي لتنظيم " سباه محمد أوجيش محمد " الشيعي الباكستاني الذي أسسه (مريد عباس يزداني) بين عامي 1993و1994م؛ الذي يعد بدوره الجناح المسلح لجماعة (تحريك جعفرية باكستان) أي الحركة الجعفرية في باكستان التي تأسست عام 1979م بالتزامن مع سقوط نظام الشاه في إيران، والتي كانت تركز نشاطها في مدينة فيصل آباد بوسط باكستان، وتبنت أيديولوجية ولاية الفقيه وسعت لتطبيقه في الأقاليم التي يمكن أن تخضع لهيمنتها.

---

[32] الاحتطاب من أموال الكفار قاعدة فقهية للتنظيمات الجهادية لتبرير استباحة واستحلال نهب وسلب وسرقة أموال من تصفهم بـ "الكفار"، ويمكن اعتباره شكلاً آخر من أشكال الغنائم التي يتم الاستيلاء عليها بشكل آخر من أشكال الحرب، باعتبار أن الحرب بين هذه التنظيمات والعالم لا تقتصر فقط على القتال المباشر... للمزيد حول هذا الموضوع من المفيد الاطلاع على: زبير الغزي؛ القول الصواب في مسألة الاحتطاب؛ الناشر: موقع جامع الكتب الإسلامية؛ تاريخ النشر: 2017/8/13م؛ الرابط:
https://ketabonline.com/ar/books/67008/read?part=1&page=2&index=5291144
بالنسبة لفتوى "بيع السم للكافر" فقد اشتقها فقهاء التنظيم من فتوى تنسب إلى ابن تيمية حول حكم بيع الخمر للتتار الذي اجتاحوا ونهبوا المنطقة، حيث يقول "... وأما الكفار فزوال عقل الكافر خير له وللمسلمين؛ أما له فلأنه لا يصده عن ذكر الله وعن الصلاة بل يصده عن الكفر والفسق، وأما للمسلمين؛ فلأن السكر يوقع بينهم العداوة والبغضاء؛ فيكون ذلك خيراً للمؤمنين، وليس هذا إباحة للخمر والسكر ولكنه دفع لشر الشرين بادناهما؛ ولهذا كنت آمر أصحابنا أن لا يمنعوا الخمر عن أعداء المسلمين من التتار والكرج ونحوهم، وأقول: إذا شربوا لم يصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة بل عن الكفر والفساد في الأرض ثم إنه يوقع بينهم العداوة والبغضاء وذلك مصلحة للمسلمين فصحوهم شر من سكرهم، فلا خير في إعانتهم على الصحوبل قد يستحب أويجب دفع شر هؤلاء بما يمكن من سكر وغيره...". موسوعة الاستقامة؛ الرابط:
https://mawsoati.com/origin

المعقل الرئيسي منطقة لاهور في إقليم البنجاب؛ إلا أن مسرح عمليات هذا التنظيم يتركز بالدرجة الأولى في سوريا بذريعة حماية مقام السيدة زينب في دمشق، إلا أنها وقفت إلى جانب النظام السوري ضد مختلف تيارات المعارضة السورية. وهناك نشاط لها في العراق؛ وعقيدة القتال لدى هذا التنظيم تعتبر أكثر تطرفاً من عقيدة تنظيم "جيش محمد" الذي يركز على مواجهة التنظيمات الأصولية السنية الجهادية مثل تنظيمات، عسكر جهنكوي ولشكر طيبة وجيش الصحابة التي تُكّفر الشيعة وتستبيح اضطهادهم، حيث تشير الاحصائيات إلى وقوع حوالي 395 حادثاً طائفياً في باكستان بين عامي 1990 و2001م نتيجة العنف المتبادل بين الطرفين بحسب بعض التقارير الإخبارية([33])؛ وتعتمد أيضاً على تكتيكات العنف والاغتيال السياسي، وشنّ عمليات انتقامية، وإقامة نظام استخباراتي خاص داخل التنظيم لتعزيز سياسته الدفاعية، إلى جانب الإيمان باستراتيجية الأمن الجماعي الشيعي بقيادة ولاية الفقيه.

يبدوأن تنظيم لواء زينبيون يحاول تطوير مهاراته في استخدام الأسلحة التكتيكية وخبراته القتالية من خلال المشاركة في العديد من المعارك التي تندلع بين النظام السوري والمعارضة، قد يكون ذلك بغرض زيادة كفاءة الحركة الأصولية الشيعية في باكستان وتمكين السلطة المعنوية لإيران عليهم.

2. تنظيم لواء فاطميون (الأفغاني).

الاسم التنظيمي، لواء فاطميون، تأسس عام 2014م بتحريض من الحرس الثوري الإيراني، أسسه علي رضا توسلي الذي يعتقد أنه قتل في إحدى المعارك مع جبهة النصرة في سوريا. حالياً لا يوجد معقل رئيسي لهم، ويتواجد معظم قادتهم في مسرح عملياتهم العسكرية في اليمن وسوريا والعراق؛ ويحظون بتعاطف كبير من قبل أقلية الهزارة الشيعية في أفغانستان، وهي أقلية تتكلم إحدى لهجات اللغة الآرية القريبة من الفارسية إلا أنّ ملامحهم الجسمانية تشير إلى صلاتهم الوراثية بالمغول والتتار.

بالنسبة لعقيدة قتاله، يعد هذا التنظيم استمراراً للحركة الجهادية الشيعية في أفغانستان التي حاربت الغزوالسوفيتي لدوافع دينية- مذهبية، ومن بعدها حركة طالبان ومن ثم تنظيم داعش، التي ارتكبت الكثير من الانتهاكات بحق الشيعة الأفغان. تبنت هذه الحركة أيديولوجية ولاية الفقيه مع نجاح الإمام الخميني في الهيمنة على السلطة عام 1979م.

إنّ الخبرات القتالية التكتيكية التي اكتسبها التنظيم في مشاركته بالحرب الدائرة في سوريا واليمن بعد عام 2011م، إلى جانب الدعم العسكري واللوجيستي والاستخباراتي الكبير الذي يتلقاه من الحرس الثوري، يرشحه كأبرز تنظيم شيعي متطرف في آسيا الوسطى وقد يتخذ أسماء أخرى في المستقبل كحزب الله الأفغاني أوغير ذلك.

---

[33] عمر فاروق؛ باكستان: مخاوف من توتر سني ـ شيعي؛ الناشر: موقع الشرق الأوسط؛ تاريخ النشر: 2008/10/3م- العدد 10902؛ يمكن قراءته على الرابط:
https://archive.aawsat.com/details.asp?issueno=10626&article=489224#.YdFxLGjP3IV

إلى جانب تولي التنظيم مهمة الدفاع عن الشيعة في أفغانستان وتمكين مشاركتهم في إدارة البلاد، من المتوقع أن ينخرط في شبكة التنظيمات الشيعية المتطرفة في العالم التي تدعمها السلطة الإيرانية.

3. الحوثيون.

الاسم التنظيمي، حركة أنصار الله والتي اصطلح تسميتها بالحوثيين نسبة إلى مؤسسها. أسسها بدر الدين الحوثي عام 1994م، الذي قتل عام 2004م في معارك مع الجيش اليمني. المعقل الرئيسي، جبال صعدة في شمال اليمن.

كان للشيعة الزيدية دور سياسي وثقافي واقتصادي مؤثر في تاريخ اليمن؛ إلا أن سيطرة الحكم الشمولي على اليمن بقيادة علي عبدالله صالح وتنامي نفوذ التنظيمات السنية المتطرفة فيها، أثار مخاوف المجتمع الشيعي الزيدي وأفرز حاجة لإقامة نظام دفاع ذاتي خاص بهم وبالتالي صياغة عقيدة قتال تلائم المخاطر التي تهددهم، وهذا ما دفع بجماعة بدر الدين الحوثي المتأثرين بجاذبية أيديولوجية ولاية الفقيه إلى تأسيس حركتهم والانشقاق سياسياً عن المذهب الزيدي بغرض استثمار التطرف الشيعي كوسيلة لتمكين سلطتهم، وبالفعل تم خوض معارك عديدة مع النظام اليمني ومع المملكة السعودية عام 2009م التي وجدتها تهديداً لأمنها القومي. استطاع التنظيم استثمار الحراك الشعبي في اليمن حيث انخرط فيها بكل طاقته على غرار انخراط الإخوان المسلمين في الانتفاضة الشعبية المصرية، ليتحول إلى قوة سياسية وعسكرية مهيمنة على اليمن عام 2015م مع انهيار النظام اليمني ومقتل علي عبد الله صالح. إن أيديولوجية التنظيم وتلقيه الدعم الكامل من إيران استشعر التهديدات المتعلقة بالأمن القومي للمملكة السعودية مجدداً والتي شكلت تحالفاً من بعض الدول العربية وشنت حرباً شاملة على القوات الحوثية لا تزال رحاها مستعرة والضحايا هم من الشعب اليمني. من خلال رصد العقيدة السياسية والعسكرية لهذا التنظيم يلاحظ أنه يشكل عنصراً مهماً في الحرب الهجينة التي تخوضها إيران ضد بعض أنظمة الحكم العربية والتنظيمات السنية المتطرفة، ومن المحتمل أن يلعب دور القبضة الإيرانية في فرض هيمنة المذهب الاثني عشري على الزيدية.

مع سيطرة التنظيم على نصف مساحة اليمن وامتلاكه لمخازن الأسلحة الخاصة بالجيش اليمني والصواريخ البالستية وطائرات مسيرة والقدرة على التأثير في حركة الملاحة بمضيق باب المندب، من المحتمل أن يشارك في أية معارك مستقبلية بين حزب الله وإسرائيل بدعمٍ إيراني، حيث يشير قادة التنظيم إلى هذا الأمر في الكثير من تصريحاتهم الدعائية المتعلقة بالقضية الفلسطينية([34]). وقد يندرج عدم وجود تدخل دولي لإنهاء الصراع في اليمن وإيقاف الحرب بين التحالف العربي والحوثيين في السياسة الدفاعية الغربية بخصوص أمن دولة إسرائيل.

[34] للاطلاع على أحد هذه التصريحات من المفيد الاطلاع على: وكالة القدس للأنباء؛ حركة أنصار الله تلوح باستهداف تل أبيب بعد التصريحات الصهيونية؛ تاريخ النشر: 1442/12/5 هـ- 2021/7/15م؛ الرابط: http://qodsna.com/ar/350115

جرت محاولات لإنشاء تنظيمات شيعية متطرفة في السعودية والبحرين والكويت ونيجيريا، كحزب الله الحجاز وحزب الله الكويت والجبهة الإسلامية لتحرير البحرين والحركة الإسلامية في نيجيريا، إلا أنها قُمعت بشدة بسبب تهديدها للأمن القومي لتلك البلدان وانخراطها في استراتيجية تمكين الهيمنة الإيرانية في المنطقة كونها متعصبة لأيديولوجية ولاية الفقيه، ولا يمكن ترجمة نشاطها المسلح وكذلك عمليات قمعها إلا في إطار حرب الأحقاد المذهبية، الأمر الذي أثر سلباً في نظام الدفاع الذاتي للمجتمع الشيعي والهوية الوطنية على حدٍ سواء في هذه البلدان. على الرغم من ذلك لا تزال خلاياها النائمة تشكل تهديدات جدّية في تلك البلدان، فمثلاً بدون التنسيق مع هذه الخلايا لن يتمكن الحوثيون من استهداف بعض المراكز الحيوية في المملكة السعودية بشكل مباشر كاستهداف مطاري أبها والرياض الدوليين ومطار جازان وشركة أرامكوالنفطية. بالنسبة للهجمات بالصواريخ الباليستية فيمكن نسبها إلى الحوثيين بشكل مباشر، أما بالنسبة للطائرات المسيرة فلا يمكن الجزم بوقوف الحوثيين خلف معظمها.

من ناحية أخرى هناك جهود مبذولة لتقوية تنظيم حسينيون (حركة المقاومة الإسلامية في جمهورية أذربيجان) الذي يقوده توحيد إبراهيم بيغلي (المعارض لنظام إلهام علييف) من خلال إخضاعهم لتدريبات عملية في المعارك التي تجري في الجغرافيا السورية، يبدوأن هناك استراتيجية إيرانية لإقامة سور من التنظيمات القوية حول حدودها السياسية ففي أفغانستان هناك لواء فاطميون وفي باكستان هناك لواء زينبيون وفي العراق هناك منظمة بدر وكتائب حزب الله العراق وغيرها، وفي أذربيجان تنظيم حسينيون حيث تثير النشطات الإسرائيلية المتصاعدة في هذا البلد مخاوفا لدى القيادة الإيرانية إلى جانب وجود ضرورة أيديولوجية لديها بإخضاع أذربيجان ذات الغالبية الشيعية. تبذل إيران جهوداً كبيرة لمحاصرة أعدائها المفترضين والتقليديين بتنظيمات مشابهة كحركة الحوثي وحزب الله اللبناني، وفي سوريا يبدوأن انخفاض وتيرة الأعمال القتالية فيها وازدياد التركيز على الجهود الدبلوماسية قد يدفع بقادة التنظيمات الشيعية السورية إلى تشكيل حزب الله السوري أوأي تنظيم تحت مسمى آخر ينخرط في الهياكل العسكرية للجيش السوري حيث تبدوالفرقة الرابعة مرشحة لاحتضانها بالإضافة إلى احتمال تأسيس واجهة سياسية لها كحزب أوككتلة سياسية للمشاركة في أية انتخابات مستقبلية بالتزامن مع زيادة وتيرة التشيُع في المناطق السنية، في الوقت الراهن تعتبر ما تمسى بالمقاومة الشعبية لتحرير المنطقة الشرقية القاعدة التي يمكن الاستناد إليها في إقامة كيان عسكري محلي بذريعة محاربة قوات التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب التي تصفها بالقوات المحتلة، وتحاول خلق وعي جماعي داخل المجتمع السوري بكونها المقاومة الوطنية الرئيسية في البلاد حيث تلعب على وتر المشاعر القومية العربية والحماس الثوري لأيديولوجية ولاية الفقيه؛ هذا التنظيم بالإضافة إلى ما يسمى بتنظيم الدفاع الوطني من المحتمل أن يشكلا الواجهة السورية لأي تنظيم سري يتبنى أيديولوجية ولاية الفقيه ويتغلغل بين المجتمعات المحلية في المنطقة.

هناك العشرات من التنظيمات الأخرى التي لا تتوفر معلومات دقيقة عنها تحمل اسماء ذات أبعاد أيديولوجية ككتائب الأشتر والمقداد وأهل الكهف وفاتح خيبر والإمام علي وغيرها، إلا أن نشاطاتها محدودة قد يكون الغاية منها إدراجها في عمليات الحرب الهجينة وحماية التنظيمات

الأخرى من العمليات الانتقامية من قبل التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب أوتضليل عمليات ملاحقتها من قبل السلطات المحلية للبلدان التي تنشط فيها، بالإضافة إلى استثمارها في العملية الدعائية بغرض زيادة جاذبيتها وتأجيج عقيدة القتال لدى أفراد المجتمع الشيعي وتحريضهم على الالتحاق بالتنظيمات المتطرفة وتقديم الدعم المادي والمعنوي لها.

التطرف الشيعي في متراجحة الثورة والديماغوجيا.

تبدو العقيدة السياسية والعسكرية للتنظيمات الشيعية صلبة وصامدة أمام الأيديولوجيات الأخرى، وستبقى هكذا طالما احتفظت بخطابها الشعبوي في ظل فشل الأنظمة والتنظيمات السنية والعلمانية في الاستجابة لمشاكل السكان وتحقيق الأمن الإنساني والوطني في بلدانها. وما يمنحها القدرة على تحييد المخاوف من أيديولوجيتها والدعاية السوداء ضدها في البلدان العربية، دعايتها بنصرة القضية الفلسطينية والحوار الإسلامي- الإسلامي.

إنّ ما سيساهم في تنامي وانتشار التنظيمات الشيعية المتطرفة في المستقبل القريب تزايد معدلات المواليد داخل المجتمع الشيعي، وتأثير كل من الدعاية الثورية- الدينية الموجهة للمتظلمين والمستضعفين والإغراءات الاقتصادية في تشيُع العديد من أتباع الطائفة السنية، في ظل ظروف اقتصادية وسياسية غير مستقرة وانعدامٍ نسبيٍ للأمان الذي بات سمة مميزة لبلدان الشرق الأوسط([35])، وازدياد وتيرة الأحقاد الطائفية التي يؤججها المستفيدون من الفتنة الطائفية من السياسيين من كل من الزعماء ورجال الدين([36])، وكذلك الحرب النفسية التي تُشن على سكان المنطقة في إطار استراتيجية "فرّق تسد" أوالفوضى الخلاقة([37]). إلا أنَ المستفيدين من الفتنة الطائفية وحشد الأتباع حول التطرف الطائفي بغرض تمكين سلطتهم يواجهون منافسة قوية من أولئك الذين يحاولون حشد الناس حول هويات أخرى، كالهوية الطائفية السنية، والهوية الوطنية في شمال وشرق سوريا وجنوب ووسط العراق، والهوية العثمانية في المناطق المحتلة من شمال سوريا والعراق، والهوية القومية العربية؛ ولا يستطيع أي طرف فرض هيمنة مطلقة على

---

[35] للمزيد من التحليل حول مستقبل العلاقات الطائفية في الشرق الأوسط من المفيد الاطلاع على:
جيفري مارتيني وآخرون؛ مستقبل العلاقات الطائفية في الشرق الأوسط؛ الناشر: مركز RAND- 2017م؛ الرابط:
https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/perspectives/PE200/PE242/RAND_PE242z1.arabic.pdf

[36] هيذر إم روبنسون وآخرون؛ الطائفية في الشرق الأوسط/ التداعيات على الولايات المتحدة؛ الناشر: مؤسسة RAND/ 2018م- كاليفورنيا؛ ص15. الرابط:
https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/research_reports/RR1600/RR1681/RAND_RR1681z1.arabic.pdf

[37] بحسب الموسوعة السياسية (الإلكترونية) بخصوص نظرية الفوضى الخلاقة: "... والنظرية تعني باختصار أنَّه عندما يصل المجتمع إلى أقصى درجات الفوضى المتمثلة في العنف الهائل وإراقة الدماء، وإشاعة أكبر قدر ممكن من الخوف لدى الجماهير، فإنَّه يُصبح من الممكن بناؤه من جديد بهوية جديدة تخدم مصالح الجميع. إنَّ الفوضى الخلاقة هي عبارة عن فجوة وفراغ ينعكس عن استقرار المجتمع وتماسكه، وهونتيجة رغبة في التغير أملتها تطلعات الفاعلين إلى تحقيق الحراك والتغير في شتى المستويات وخاصة منها السياسية والاقتصادية، وهي غالباً ما يتم تمويلها من الخارج. حتى وإنْ كانت عوامل التغيير داخلية فإنَّه يتم استثمارها وتطويعها بما يخدم مصالح الآخر الغربي الذي يسعى إلى الحفاظ على مصالحه...". الموسوعة السياسية (الإلكترونية)؛ نظرية الفوضى الخلاَّقةCreative Chaos Theory - ؛ الرابط:

https://political-encyclopedia.org/dictionary

المنطقة، وهناك صراع وتنافسٌ محتدم على هذا الأمر، وهذا ما يقود تفكير المرء مرة أخرى إلى استراتيجية الفوضى الخلاقة وإذا افترض جدلاً بحاكمية هذه الاستراتيجية على السياسة الدولية المتبعة في الشرق الأوسط فإننا نلاحظ تنامياً في الحركة الأصولية الشيعية منذ مجيء الإمام الخميني إلى طهران بعد التأكد من انهيار نظام الشاه الذي كان خاضعاً لرصد دقيق من استخبارات الحلف الأطلسي ومن ثم خوض حرب الخليج الأولى (الحرب العراقية- الإيرانية) التي استمرت لسنوات حيث كان المجتمع الدولي يقف متفرجاً على الاثنين تارة ويقدم السلاح لأحد الفريقين تارة أخرى، ومن ثم إقرار الحصار على العراق في فترة التسعينات وارتكاب نظامه مجازر دموية بحق الشيعة والكرد، ومن ثم إسقاط النظام العراقي عام 2003م واستنزاف قوة الدفاع الذاتي للمجتمعات السنية العربية في سياق الصراع بين تنظيم القاعدة وقوات التحالف الدولي الغازية للعراق، ليأتي عام 2011م وتزداد القوة التنظيمية للجماعات الشيعية في الشرق الأوسط إلى الدرجة التي أصبحت فيها قوة مهيمنة في عدد من البلدان كاليمن ولبنان وسوريا والعراق وعنصر تهديد للأمن السياسي لبلدان أخرى كالبحرين والسعودية وباكستان، وهذا ما يزيد التكهنات بإنشاء شكل جديد من السلطة بزعامة الحركة الأصولية الشيعية والتي من المتوقع أن تفرض سيطرتها على الآخرين من أتباع المعتقدات، الروحانية والسياسية، المختلفة عن أيديولوجية هذه الحركة بغرض تمكين سلطتها، وبالتالي استمرار قمع الحريات وانتهاك الحقوق، الأمر الذي سيفرض على مجتمعات المنطقة ومن مبدأ الدفاع الذاتي احتضان الأفكار الثورية سواء أكانت مؤدلجة بالأصولية الدينية- السنية أوبالقومية العربية أوبالحركة العلمانية- الديمقراطية. وهذا ما يشير إلى أن حالة عدم الاستقرار هذه أوالفوضى سيكون إيقاعها مضبوطاً من قبل الدول الكبرى التي تسعى جاهدة لضمان مصالحها لمئة سنة أخرى في المنطقة، ما يدل على هذا الأمر هوما يجري من أحداث وأزمات في بلدان الشرق الأوسط في ظل تواجد مكثف سياسي وعسكري واستخباراتي للدول الكبرى في المنطقة وفقدان المجتمعات المحلية لقدرتها على تأمين أمنها الإنساني والوطني. وهذا ما ينمي فرضية التحول إلى التطرف بتأثير كلٍ من العوامل الذاتية والموضوعية والسياسات التآمرية الدولية.

شعار الحرس الثوري الإيراني.	حزب الله اللبناني.	كتائب حزب الله العراقي.	عصائب أهل الحق.
حركة النجباء.	منظمة بدر.	حركة حسينيون.	حركة الحوثيين.
لواء زينبيون.	لواء فاطميون.	المقاومة الشعبية لتحرير المنطقة الشرقية	حزب الله الحجازي.

شعار جيش المهدي، وشعار سرايا السلام. الجناحين المسلحين للتيار الصدري.		شعار حركة أمل.
يلاحظ اختلافها عن شعار التنظيمات المتبنية لأيديولوجية ولاية الفقيه.		

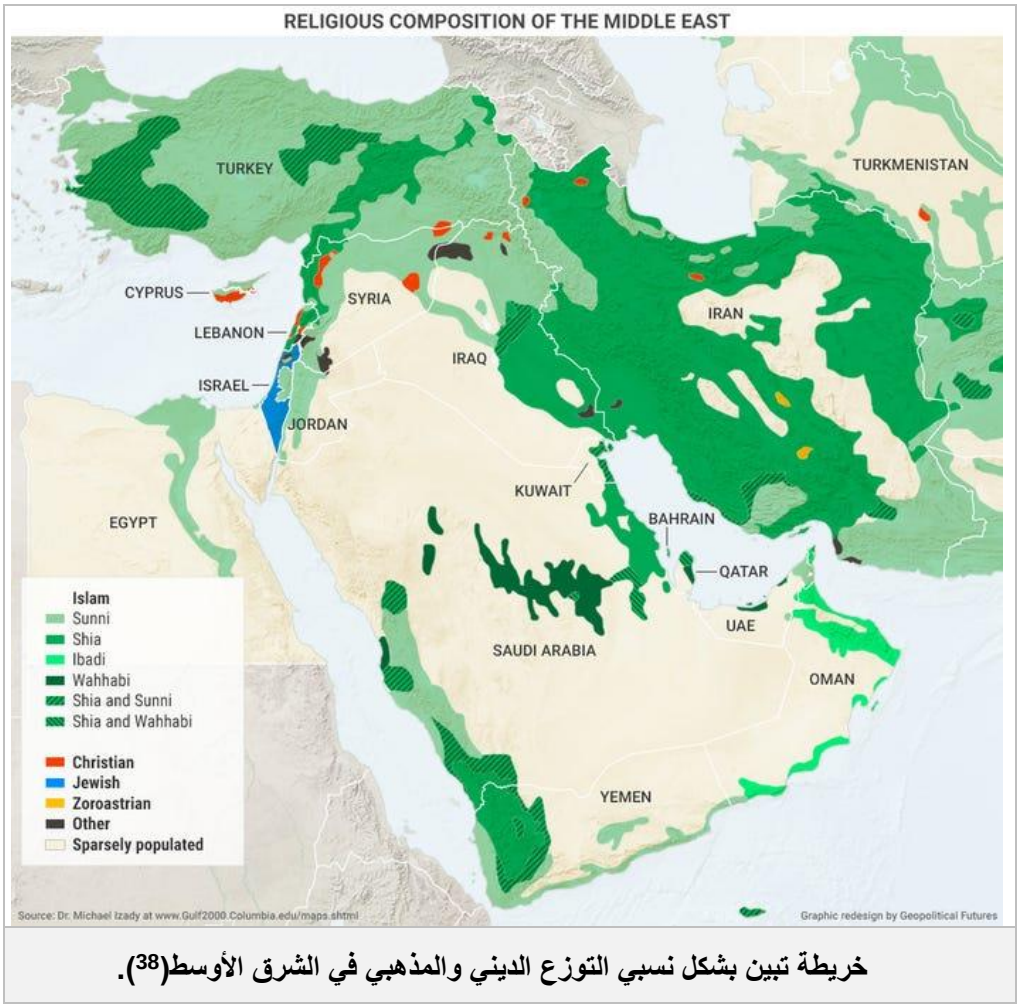

خريطة تبين بشكل نسبي التوزع الديني والمذهبي في الشرق الأوسط[38].

[38] George Friedman; These 7 maps explain the Middle East; Mauldin Economics Feb 24, 2016; Link:
https://www.businessinsider.com/these-7-maps-explain-the-middle-east-2016-2

دمشق وإشكالية القرار الاستراتيجي

حسان القطب

مدير المركز اللبناني للأبحاث والاستشارات

انطلاق الثورة السورية، وانتفاضة الشعب السوري، أربكت قادة النظام السوري، وبدا النظام عاجزًا عن التعامل مع نتائج الانتفاضة، من حيث فهم ومعالجة أسبابها، وتجنّب إراقة الدماء والحفاظ على تماسك أجهزته وخاصّةً الجيش السوري، الذي سرعان ما تفكّك نتيجة العنف والقسوة التي تمّ التعامل بها مع المنتفضين من الشعب السوري بكافّة مكوّناته.. باعتبار أنّ النظام السوري مستندًا إلى نظامه الأمني الصارم، كان قد اعتبر أنّه خارج سياق التطوّرات المتسارعة في المنطقة مطلع عام 2011.. من الثورات والانتفاضات التي انطلقت تباعًا وأسقطت أنظمة ورموزًا.. والتي أُطْلِق عليها اسم (الربيع العربي)...

النظام السوري قبل الانتفاضة والثورة اعتبر نفسه قادرًا على رسم استراتيجيته بنفسه، والتي تقوم على حماية النظام واستقراره، بالانخراط في تدخّلات خارجية تشمل دول الإقليم وخاصّةً تلك التي تحيط به، وبالتالي فإنّ قوّة تدخّله سوف تخيف وترعب قوى الداخل من التفكير في الخروج عليه، وكذلك دول الخارج من محاولة التدخّل في شؤونه الداخلية أومساندة قوى سورية داخل الكيان السوري.. كما عمل النظام ومع بداية استلام الرئيس الراحل حافظ الأسد على تكريس دور نظامه في أن يكون ضمانة استقرار إقليمي بالنسبة للدول الكبرى أوكعامل تفجير في حال التعرّض له، مستفيدًا من أدوات خارجية تعمل بأمرته، أولتهديد بإثارة فتن عرقية أودينية في الداخل السوري، بحيث يبقى النظام السوري حاجة إقليمية ودولية.. تجب المحافظة عليه أوالتعايش معه في الحدّ الأدنى...

لكن بعد انطلاق الثورة السورية، وحاجته إلى دعم خارجي من إيران، وروسيا، وجد نفسه في موقع لا يُحْسَد عليه، إذ أصبح بحاجة جدّية وحقيقية لموازنة ودراسة مواقفه وممارساته وقراراته بما يتوافق أوينسجم مع الاستراتيجية السياسية والأمنية الإيرانية والروسية، بحيث يتوافق معها بل وينخرط في تفاصيلها حتى لا يصطدم بها، نظرًا لحاجته المُلحّة لدعمها ومساندته العسكرية والمادية والبشرية، مدركًا أنّه بدون وقوفها إلى جانبه سوف يسقط وينهار سريعا.

وهنا لا بدّ من قراءة التفكير الإ ستراتيجي للنظام السوري

عادة ما تقوم الإستراتيجية الوطنية على حفظ مصلحة الوطن والشعب، والعمل على النهوض بالاقتصاد، وتحسين الظروف المعيشية والاجتماعية، واستثمارالكفاءات الوطنية وخاصّةً جيل الشباب، وكذلك تطوير البنى التحتية، والاستثمار في مختلف القطّاعات من زراعية وصناعية وسياحية ومصرفية..

الحالة السورية مختلفة تمامًا، فإستراتيجية النظام الحالي منذ وصوله إلى السلطة عام /1970/، أي منذ تولّي الرئيس الراحل حافظ الأسد السلطة عقب انقلاب عسكري، ومع وصول ابنه بشار الأسد إلى سدّة الرئاسة بطريقة استعراضية بعيدة عن الديموقراطية وحرية الاختيار والتنافس بين أحزاب أوشخصيات سياسية.. بل وصل إ لى السلطة بما يطلق عليه (الجمهوريات الملكية)إن استراتيجية هذا النظام أوالعائلة الحاكمة تقوم على بناء دولة خاضعة لسلطة عائلة ومكوّن سوري واحد هوالطائفة العلوية.. وبالتالي تصبح إ ستراتيجية النظام قائمة على حفظ السلطة ضمن هذه المعادلة، وليس وضع إستراتيجية تقوم على حماية الوطن والنظام وتطوير الدولة ومؤسّساتها والنهوض بشعبها ومجتمعها مهما اختلفت مسمّياته أوانتماءاته... وما طبع سلوك النظام السوري لخدمة إستراتيجية حفظ النظام وديمومته.. منهجان أساسيّان.. المساومة، والابتزاز..

الإستراتيجية السورية أواستراتيجية العائلة الحاكمة كان لها أوجه مختلفة ويمكن تقسيمها كالتالي:

إستراتيجية الإمساك بالسلطة:

وتقوم على إعلان العداء لإسرائيل والتأكيد على العمل لتحرير مرتفعات الجولان المُحتلّة، ولكن بشكل استعراضي، مما يبرّر لهذه السلطة قمع كلّ معارضة سياسية أوحتى إعلامية، بذريعة العمالة لإسرائيل أوبتهمة إضعاف الحسّ الوطني والقومي والإساءة إلى الشعب السوري..

كذلك تمّ تكريس التجنيد الإجباري للشباب السوري بشكل يستهلك طاقات الشعب السوري الشابّة، خاصّةً وإنّ مدّة الخدمة العسكرية تتجاوز الثلاث سنوات أحيانًا، ما يتسبّب بالإحباط للشباب السوري ويبعده عن متابعة دراسته أوالانخراط في عمل منتج، كما يجبر من يريد الإعفاء من التجنيد إلى أن يدفع مبالغ طائلة لصالح الفريق الحاكم، وهوما يؤدي إلى تراكم الثروات بيد مجموعة من المتنفّذين ضمن السلطة السياسية..

وربط النظام سلطته بالفكر القومي العربي الذي يحمله حزب البعث الحاكم، ما جعل من مكوّنات سورية أخرى لا تحمل الهوية العربية، تبدووكأنّها دخيلة على المجتمع السوري، وبناءً على ذلك تمّ حرمانها من تبوّء مواقع أساسية في السلطة السياسية والأمنية والإدارية وجعلها في حالة حرمان، وبالتالي وضعها أودفعها لتكون في حالة الاستعداد للتمرّد والانتفاض على السلطة الحاكمة.. عند أيّة إشارة ضعف..

كما عمل النظام على تفكيك المكوّنات السورية وفصلها عن بعضها البعض، من خلال تكريس الانقسام العرقي والديني، بين العرب والكرد، وبين السُنّة والعلويين والمسيحيين والدروز... وهذا

ما أشار إليه صراحةً بشار الأسد مع انطلاقة الثورة السورية فقال حينها إنّ " سقوط نظامه سوف يؤدّي إلى حرب دينية ومذهبية في سوريا".. وتجب الإشارة مجدّدًا إلى أنّ إبقاء حالة الحرب في سوريا سواء مع إسرائيل أوغيرها أعطى السلطة الحاكمة كلّ الصلاحيات لقمع المواطنين وإضعاف المكوّنات الأخرى في حضورها ودورها وبروز شخصياتها، لأنّها سوف تُتّهم بالخيانة وعرقلة الاستعدادات القومية لتحرير مرتفعات الجولان...

■ **استراتيجية المحافظة على السلطة**

قامت هذه الاستراتيجية، على تشظّي وشرذمة المجتمع السوري إلى مكوّنات دينية وعرقية، وحتى سياسية، بحيث يكون الانقسام والتباعد والخلاف بين هذه المكوّنات هوسيّد الموقف والطابع الذي يغلب على علاقاتها فيما بين بعضها البعض، وبالتالي، يصبح النظام الذي يستند إلى الطائفة العلوية، ضمنًا وفعلًا، وإلى حزب البعث العربي الاشتراكي شكلًا، (حزب البعث) هوالقاسم المشترك بين هذه المكوّنات وهوالعامل الإيجابي الذي يتولّى معالجة سلبيات العلاقة بين سائر القوى والمكوّنات.. وهوضمانة انصهار الجميع في بوتقة استقرار الوطن وتقدّمه، ومنع انقسامه وانهياره..

لذلك فإنّ النظام ومنذ تولّي الرئيس الراحل حافظ الأسد السلطة قد حافَظَ على مُسَلّمات أساسية، تضمن استقرار النظام وتبعد عنه الاتّهامات بالتلكّؤ والتخلّي عن الأراضي المحتلّة في الجولان، وأحيانًا كانت تتمّ الإشارة إلى لواء إسكندرون والذي كان يُطْلَق عليه "اللواء السليب".. والذي تمّ ضمّه إلى تركيا إبّان عهد الاستعمار الفرنسي..، إلى أن تمّ التخلّي عنه رسميًا.. إذ كما نشرت جريدة الشرق الأوسط، في عددها الصادر في 26يناير/كانون الثاني من عام 2019، فقد ورد في البند الثاني ما يلي: (تتخلّى دمشق عن أيّ مطالبة بحقوقها في لواء إسكندرون (إقليم هاتاي) الذي ضمّته تركيا في 1939، بموجب الملحَق رقم /3/)..

لقد أعطى النظام الحاكم نفسه الصلاحيات المطلقة للتصرّف بالأرض والسيادة كما بأرواح المواطنين ومستقبلهم.. لذا فإنّ هذا المشهد والنهج المتّبع أعطى النظام منذ انطلاقته وإلى الآن الذريعة المناسبة لكمّ الأفواه واعتقال المعارضين وتبرير الممارسات التعسّفية.. وهي التالية:

- إنّ (القضية الفلسطينية)، هي القضية المركزية للعالم العربي..
- (تحرير الجولان المحتلّ) هوأولوية السلطة في دمشق.
- (الوحدة العربية) هي شعار حزب البعث وعنوان حِراكه السياسي..

في موضوع القضية الفلسطينية، كان تحرّك النظام السوري باستمرار مناقضًا للتوجّهات الفلسطينية وأهداف منظّمة التحرير الفلسطينية، بل وعمل على الحدّ من حضورها ودورها وحاربها بكلّ قوّة عام 1970، وبعد صراع مرير بين المملكة الأردنية الهاشمية وفصائل منظّمة التحرير الفلسطينية، لم تتحرّك دمشق بقيادة حافظ الأسد لدعم الفلسطينيين إلّا بحدود ضيّقة، و"لرفع العتب" لا أكثر.. وعندما خرج مقاتلومنظّمة التحرير من الأردن، دفع بهم نظام دمشق إلى لبنان مباشرة، حيث كان قد تمّ توقيع اتّفاق (القاهرة) بين لبنان ومنظّمة التحرير الفلسطينية، والذي أعطى المنظّمة حرية الحركة في منطقة (العرقوب) جنوب لبنان والمتاخمة للحدود اللبنانية مع فلسطين المحتلّة

وكذلك مع الحدود السورية لجهة مرتفعات جبل الشيخ.. ما أدخل لبنان في دوّامة صراع دموية بعد تضخّم الوجود الفلسطيني المسلّح في لبنان، وانطلاق العمليات الفلسطينية من الحدود اللبنانية باتّجاه الأراضي المحتلّة، ما جعل من الحدود اللبنانية ساحة مواجهة وصراع مفتوح... فالتمسّك بالقضية الفلسطينية وإطلاق شعار "تحرير فلسطين وإعادة الحقوق الفلسطينية" كان عنوان وشعار المرحلة لترسيخ وتكريس سلطة النظام والتقرّب من عواطف الشعب السوري المرتبطة بالقضية الفلسطينية والمتعاطفة مع معاناة الشعب الفلسطيني..

إضافةً إلى أنّ النظام السوري يستخدم الشباب الفلسطيني لخوض حروبه وتنفيذ اغتيالاته.. وفي 2022/11/7، نشرت جريدة الشرق الأوسط خبرًا يفيد التالي.. (أفاد «المرصد السوري لحقوق الإنسان»، الأحد، بأنّ «لواء القدس» الفلسطيني انخرط في القتال إلى جانب الروس في الحرب الروسية على أوكرانيا).. وهذا يعني أنّ النظام السوري يسدّد ديونه للدولة الروسية التي وقفت إلى جانبه من دماء الشعب الفلسطيني.. بينما من المُفْتَرَض أن يتوجّه الشباب الفلسطيني ولواء القدس لمواجهة دولة إسرائيل وتحرير أرضه، وليس القتال في أماكن ودول أخرى نيابةً عن النظام السوري..!!

تحرير الجولان، كان مطلبًا شعبيًا سوريًا عقب السقوط المذلّ للمرتفعات بساعات قليلة ودون مقاومة حقيقية نتيجة تواطؤ القيادة العسكرية وربّما عدم أهليّتها لخوض معركة حربية حقيقية.. وبما أنّ عنوان التحرير ومطلب التحرير كان فوق كلّ اعتبار ويتجاوز كلّ المتطلّبات التي يحتاجها الشعب السوري، من خدمات وتقديمات وتحسين شروط الحياة.. فأصبحت معركة التحرير شرطًا أساسيًا لقيادة المسار السياسي وبالتالي الأمني في الداخل كما في العلاقة مع الخارج.. وهذا ما دفع النظام إلى ممارسة كافّة أشكال التسلّط وترسيخ سلطته على المكوّنات السورية.. تحت شعار: (لا صوت يعلوعلى صوت المعركة)...

الوحدة العربية وهي شعار حزب البعث، التزم النظام بهذا العنوان والمصطلح (وحدة، حرية، اشتراكية)... لرسم سياساته الخارجية التي تقوم على ممارسة دور إقليمي يتجاوز حجمه وقدراته، مستفيدًا من غياب مشروع عربي حقيقي، ومن العاطفة الجيّاشة للأمّة العربية نحوإعادة وحدتها المفقودة عقب اتفاقية (سايكس – بيكو).. فكان التدخّل السوري تحت سلطة حافظ الأسد في العراق ولبنان وفلسطين والأردن، وغيرها.. والتهديد المستمرّ بإثارة القلاقل في مختلف الدول العربية التي لا تتناغم معه سياسيًا أوتتعاون معه اقتصاديًا.. بهدف ابتزازها.. وهذا ما جرى على سبيل المثال حين تمّ التدخّل السوري في لبنان، برعاية عربية وطلب دولي لحماية الأقلّية المسيحية في لبنان من مشروع التوطين الفلسطيني المفترض..؟؟ كما تمّ ضرب الحركة الوطنية اللبنانية بذريعة أنّها تحمل فكرًا يساريًا أمميًا ولا تؤمن بخيار وحدة الأمّة العربية.. كما تحالف نظام الأسد مع دولة إيران غير العربية، في عهد الخميني (خلال الحرب العراقية - الإيرانية).. وتجاهل الأسد عروبة دولة العراق متذرّعًا بالخلاف والعداء بينه وبين صدام حسين حاكم العراق آنذاك.. وبالتباين بين حزب البعث السوري الذي يقوده الأسد، وحزب البعث العراقي الذي يقوده صدام حسين.. وانعكس الصراع في ساحات عربية ومنها لبنان بشكلٍ خاص من اغتيالات وتفجيرات ومطارَدات، على المستوى

اللبناني والفلسطيني، حيث كان لكلّ دولة فصيل فلسطيني تابع لها ويخوض معاركها.. تنظيم الصاعقة، وهوتابع لنظام الأسد.. وجبهة التحرير العربية، وهي تابعة لنظام صدام حسين..

ماذا أثمرت أوما هي تداعيات هذه العناوين الإستراتيجة الثلاثية على الواقع السوري داخلياً ؟

- سمحت للنظام بممارسة سياسة القمع بحرية مطلقة، وغير مسبوقة.. مستفيدًا من طابع الشعارات التي رفعها.. وهي (تحرير الجولان، وفلسطين).. والسعي لإنجاز وتحقيق (الوحدة العربية)..
- أخفى مذهبيّته وطموحاته الانعزالية، تحت شعار "الوحدة العربية"، وقدّم نفسه للعالم العربي على أنّه وحدوي ومناهض للاستعمار..
- فتح الباب واسعًا لأنصاره، للانخراط في صفوف الجيش واستلام المواقع الرئيسية، وأسّس ميليشيات موازية بقيادة رفعت الأسد، تحت اسم "سرايا الدفاع" لحماية نظامه وديمومة سيطرته..
- ترك باقي المكوّنات تعمل في مختلف القطاعات لرفع الإنتاج وضخّ المال اللازم في خزينة الدولة.
- التركيز على عروبة النظام ووحدة الأمّة إذ كان الهدف من ذلك استيعاب المجتمع السوري والتقرّب من الأمّة العربية، ولكن هذا الشعار فتح جرحًا لدى أبناء الأعراق السورية الأخرى.. غير العربية، وخاصّةً الكردية وهوالمكوّن الأكبر في سوريا، بحيث شعر بأنّه خارج سياق الوطن والكيان، وإنّ وجوده في سوريا غير مرغوب فيه، أوأنّها تعتبرهم من مواطني الدرجة الثانية حيث لا حقوق ولا حضور ولا دور ولا طموحات لهم في حين أنّ عليهم واجبات تجاه الدولة...

لقد بدا واضحًا من خلال متابعة سياسات هذا النظام طوال العقود الخمس التي طبعت حكمه وسلطته، أنّه نظام يعمل على حماية وجوده، وهيمنته، وبقائه على رأس السلطة، مستندًا إلى جمهوره وبيئته، وطائفته، مستفيدًا من طاقات المكوّنات الأخرى، ومستثمرًا في العمل على شرذمتها وإضعاف دورها وحضورها، وبالتالي عمل على تثبيت وتعزيز وترسيخ وتعميق الخلاف بين المكوّنات الدينية، حتى يبقى على رأس السلطة، قادرًا على إدارة شؤون البلاد مستندًا إلى دعم عربي ودولي، لأنّه يقدّم نفسه ضامنًا للاستقرار والأمن الإقليمي، وخاصّةً بما يتعلّق بالملف الفلسطيني، وكذلك الشأن اللبناني، الذي أداره منذ عام / 1975/ وحتى عام / 2005 / تاريخ خروجه من لبنان، تحت عنوان حماية الأقلّيات ورعاية الخلاف بين المكوّنات اللبنانية.. والشأن الفلسطيني كان يستخدمه لرسم علاقاته مع محيطه العربي، ايجابًا وسلبًا.. بحسب الضرورة والطلب.. ولترسيخ دوره الإقليمي على أنّه الضامن لاستمرار الالتفاف حول الشعب الفلسطيني واحتضان قضيّته.. ممّا يعفيه من الكثير من الممارسات والإساءات.

ماهية الاستراتيجية التي ترسم علاقة النظام السوري بالمكونات السورية وخاصة الكرد؟

عمل النظام السوري على استغلال التباين، بين المكونات السورية، وعلى زرع الخوف بين بعضها البعض، وبما أن المكون السوري الأساس هومن المسلمين السنة، من عرب وكرد، فقد عمل على زرع الخلاف العرقي، فالجمهورية العربية السورية، تعني بما لا يقبل الشك والنقاش أن الدولة بمؤسساتها وشعبها عربية، وبالتالي فإن دور أي مكون غير عربي سوف يكون محدودا جداً أوبالأحرى ستكون العلاقة بين الدولة السورية العربية، والمكون غير العربي، (والمكون الكردي، هنا يشكل الأقلية العرقية غير العربية الأهم والأكبر ويشكلون 10%، من سكان سوريا)..جعل وضع العلاقة مع هذه الأقلية غير متوازنة وغير واضحة المعالم، بل سوف يشعر المواطن الكردي بأنه مواطن من الدرجه الثانية ويتم التعامل معه على أنه مقيم في دولة سوريا العربية، وليس مواطناً سورياً كأي مواطن آخر يتمتع بكافة الحقوق، وهذا واقع مؤلم وغير مقبول.هذا دون أن نتجاهل أن الكثيرين من أبناء المجتمع الكردي كانوا دون جنسية أووثائق تثبت الهوية.. طوال عقود من الزمن فالخطوة الأساس في استراتيجية النظام، كانت تقسيم المجتمع السوري إلى مكونات عرقية، فأصبح المكون العرقي خارج الانخراط في مؤسسات النظام السياسية والعسكرية وحتى الإدارية. إلا بحدود ضيقة وبما يخدم استقرار النظام والولاء له.. فالمواطنة من حيث المفهوم والنهج والسلوك غير موجودة وغير متوافرة، بل ولا يمكن الحديث عنها.. واستفاد النظام السوري من التشرذم الكردي، في أربع دول (إيران والعراق وتركيا وسوريا).. بحيث لا توجد مرجعية قومية ترعى شؤون الكرد في الدول المختلفة والتي ينتشر فيها المكون الكردي، كما أن أكراد هذه الدول كانوا يعانون من المشكلة ذاتها (تهميش وتغريب وتغييب).. والانتفاضات الكردية في مختلف هذه الدول كانت تحت عنوان الحصول على الحقوق والعيش بكرامة المواطن الأصيل لا اللاجيء أوالطارىء.. والحفاظ على الهوية والثقافة كإرث قومي تاريخي وهوية عرقية يجب الحفاظ عليها.. ولكن التعامل الرسمي كان خلاف ذلك تماماً من حيث القمع والكبت ومنع الإعلان عن الهوية الثقافية والانتماء إلى حضارة تاريخية ساهمت في بناء ماضي ومستقبل المنطقة.. وهنا يستحسن إلقاء نظرة موضوعية على الواقع الكردي القانوني والاجتماعي في سوريا من خلال الاستناد إلى ما نشره موقع المفكرة القانونية..

جرى الإحصاء في 5-10-1962 في محافظة الحسكة، ونجم عنه انقسام الكرد في سورية إلى:

كرد يتمتعون بالجنسية السورية، وكرد مجردون من الجنسية ومسجلون في القيود الرسمية على أنهم أجانب

وكرد مجّردون من الجنسية،وغير مقيدين في سجلات الأحوال المدنية الرسمية، وأطلق عليهم وصف مكتوم القيد، وهومصطلح إداري سوري يشير إلى عدم وجود الشخص المعني في السجلات الرسمية.

وبموجب هذا الإحصاء تم تجريد حوالي 120 ألف كردي سوري من الجنسية السورية، وفقدوا بالتالي حقوق الملكية بعدما أصبحوا عديمي الجنسية.

وفي تقرير أصدرته في عام 2005، قالت منظمة العفوالدولية إنه نتيجة للتزايد الطبيعي للسكان أصبح عدد المحرومين من الجنسية السورية من الأكراد في ذلك العام يتراوح ما بين 200 و360 ألف شخص.

وكان من أبرز النتائج التمييزية لهذا الإحصاء:

- حرمان المواطنين المجردين من الجنسية من الحقوق السياسية والثقافية والاجتماعية كافة.
- حظر تشكيل الأحزاب الكردية على اعتبار أنها أحزاب قومية،وتجريم المنتميات والمنتمين إليها، علما أن الحزب الذي يحكم البلاد هوحزب قومي من قومية أخرى.
- تغيير أسماء القرى :حيث قامت الحكومات السورية المتعاقبة بتغيير أسماء عدد من القرى الكردية،وأطلقت عليها أسماء عربية "بهدف إزالة ما يشير إلى هويتها الكردية.
- حظر إنشاء مدارس تدرس اللغة الكردية وتجريم التحدث بهذه اللغة في المحافل الرسمية.

وبقيت مشكلة الحرمان من الجنسية قائمة لحوالي خمسين عاما، من عام 1962 حتى عام 2011، حين أمر رئيس الجمهورية السورية بشار الأسد، وتحت ضغط الانتفاضة الشعبية في آذار 2011، بتشكيل ثلاث لجان:إحداها لدراسة سبل حل مشكلة إحصاء عام 1962 الاستثنائي. وبعد نحو24 ساعة على لقاء الرئيس السوري بزعماء عشائر كردية وشخصيات اجتماعية في دمشق، أصدر الرئيس المرسوم التشريعي "رقم (49) لعام 2011، بمنح المسجلين في سجلات أجانب الحسكة الجنسية العربية السورية. ورغم أن المرسوم التشريعي قد صحح أوضاع الأكراد السوريين المسجلين في سجلات أجانب الحسكة، بموجب المادة الأولى منه، إلا أنه لم يشمل الأكراد المجّردين من الجنسية وغير المقيدين في سجلات الأحوال المدنية الرسمية، أي ما يعرف بمكتومي القيد. كما أن التعليمات التنفيذية للمرسوم نصت على تقديم "طلبات الأسرة كاملةً باسم رب الأسرة". وهذا ما يعيدنا إلى التمييز الجندري في حرمان المرأة السورية من حقها بنقل جنسيتها لأبنائها. وفي أيلول 2013 أقر مجلس الوزراء السوري خلال الاجتماع الأسبوعي للحكومة "مشروع قانون بإعفاء من منح الجنسية السورية وفقا لأحكام المرسوم التشريعي رقم 49 لعام 2011 الخاص بمنح الجنسية للأكراد، من شرط المدة لجهة مرور خمس سنوات على اكتساب الجنسية كأساس لاكتساب الحقوق أوتحمل الالتزامات،وذلك حيثما تقتضي القوانين النافذة اشتراط هذه المدة."...

تجانس النظرة للمكون الكردي من قبل النظام السوري كما تركيا وإيران والعراق

تشابه كامل في طريقة وطبيعة التعامل مع المكون الكردي، من قبل الدول الأربع التي ينتشر فيها الكرد أوالتي تم تقسيم بلاد الكرد فيما بينها (سوريا، العراق، تركيا، إيران)... طبعا هناك فروقات في طريقة التعامل أومن حيث الحصول على بعض المطالب والحقوق التي تجعلهم جزءاً من الدولة وكيانها، ولكن يبقى التعامل مع الكرد في كافة هذه الدول على أنهم مكون عرقي يشكل حالة انتفاضة ممكنة ومفترضة، في أية لحظة تظهرفيها علامات الوهن أوالضعف على الدولة المركزية.. ولذلك نجد أن الحالة الاستثنائية الوحيدة الآن والتي يتمتع فيها الكرد بشبه حكم استقلالي هي الحالة العراقية.. ومع ذلك حين طرح الزعيم الكردي مسعود البارزاني، مشروع الاستقلال

على الاستفتاء، لم تتجاوب معه كافة الدول الكبرى بما فيها الولايات المتحدة، رغم حصوله على الموافقة الشعبية وكانت النتيجة انسحابه من الحياة السياسية وبقاء وضع شمال العراق على ما هوعليه..واليوم نشهد انتفاضة كردية في الإقليم الكردي الإيراني كجزء من انتفاضة الشعب الإيراني على حكم ملالي إيران، بعد قتل المواطنة الإيرانية الكردية، (مهسا أميني).. على يد شرطة الأخلاق، وبعد مقتلها تبين أن الكرد في إيران كانوا ممنوعين من استخدام الأسماء الكردية.. وإن اسمها الحقيقي هو(جينا أميني).. وفي تركيا رغم أن الواقع التركي الاجتماعي والسياسي أفضل قليلا عما هوفي سوريا وإيران، إلا أن الضغوطات لا تزال تمارس على المجتمع الكردي، واتهام كل حراك سياسي كردي بأنه إرهابي ويعمل على تقويض استقرار تركيا.. وتهديد وحدتها ومستقبل شعبها..

النظام السوري منع قيام أحزاب سياسية كردية، ويعتبر أن دورها يشكل خطراً على استقراره وهيمنته، كذلك فإن هذه الاحزاب تتناقض في تسميتها مع الفكر القومي العربي الذي طرحه النظام السوري كأساس لسلطته وطبيعة نظامه.

والموقف والقلق التركي من المكون الكردي، وخوف تركيا من نهوض كيان كردي مجاور سواء في سوريا اوالعراق ممكن أن يترك أثراً سلبياً على المكون الكردي في تركيا ويدفعه للمطالبة بوضعٍ مماثل في تركيا.. تدخلت تركيا في شمال سوريا لضرب الأحزاب والقوى الكردية السورية، بذريعةً تعاملها مع حزب العمال الكردستاني أوأنها تحمل الأفكار نفسها... متهمة إياها بالإرهاب.. وبالتالي تهديد الأمن التركي.. واستفاد النظام السوري من هذا الواقع بحيث بدأ يسعى لفتح ثغرة في علاقاته مع تركيا برعاية روسيا التي تهيمن على الواقع السوري اليوم إلى جانب إيران.. التي تحمل الهواجس نفسها التي تتبناها تركيا.. ويحاول النظام السوري تقديم نفسه على أنه ضمانة الاستقرار على حدود الدولتين السورية والتركية، وإن الأحزاب الكردية والميليشيات الكردية المناهضة للنظام السوري والتي تطالب بالمساواة في المواطنة والحقوق والواجبات، هي خطر وجودي وقد تطالب بالاستقلال وهذا ما سوف يترك أثراً سلبياً على تركيا في المستقبل..

كذلك فإن النظام السوري يتحرك على خط موازٍ تماماً بحيث يحاول استغلال الضغوطات العسكرية والسياسية التركية على كرد سوريا، والتهديد بشن حملة عسكرية على شمال سوريا والمناطق التي تهيمن عليها الاحزاب الكردية ومن يتحالف معها. لتقديم نفسه للمكون الكردي على أنه السلطة المركزية التي تحمي كافة السوريين بما فيهم الكرد. متجاهلاً عقودا من التهميش والاستغلال والحرمان التي عانى منها كرد سوريا على يد هذا النظام وقياداته..

حضور الولايات المتحدة الأميركية المباشر في شمال سوريا إلى جانب الإدارة الذاتية، وتهديدات تنظيم داعش الذي رغم الإعلان عن القضاء عليه، لا زال يشكل عاملاً أساسياً في بقاء هذه القوات مما يعطي الحالة الكردية الفرصة للتفاوض من موقع أكثر قوة شرط ألا تتعرض للاستفراد من قبل سوريا وروسيا وتركيا.. وبالتالي الإجهاز على هذه الحالة السياسية التي قدمت الإدارة الذاتية نموذجاً لضمان الاستقرار وترسيخ التعايش بين المكونات السورية المختلفة..

حتى الآن القيادة السورية الحالية التي استفادت من الدعم الإيراني والروسي وعشرات الميليشيات الطائفية والمذهبية التي استخدمتها إيران لدعم النظام وبقائه حتى الآن ولوشكلاً حيث تعاني سوريا وشعبها من أزمات أمنية وسياسية واقتصادية وحالات فقر وتهجير ونزوح غير مسبوقة لكن لم تستوعب إلى الآن أنه قد حان الوقت لتغيير طريقة التعامل مع الواقع السوري والانخراط في عملية تسوية حقيقية تقوم على إطلاق الحريات السياسية والإعلامية والسماح بإنشاء أحزاب وطنية متعددة تشمل كافة القوميات والإثنيات والعرقيات بما فيها الدينية منها.وإن الديموقراطية والدولة المدنية والانتماء الوطني وترسيخ الهوية الوطنية هي الحل الأمثل والحقيقي لاستقرار سوريا ولتعميق اللحمة بين السوريين على كافة انتماءاتهم..

هل من إمكانية للتوافق بين الإدارة الذاتية في شمال وشرق سوريا مع النظام الحاكم في دمشق؟

المعادلة هنا متشابكة بعض الشيء، فالنظام السوري، الذي لم يتعامل مع المجتمع الكردي والإدارة الذاتية بموضوعية واحترام وشراكة وطنية ودون إعطائه أية حقوق طوال عقود لا يمكن الركون إليه أوالاعتماد عليه أوإعادة العلاقة معه بروح الانسجام والتوافق، والانخراط إلى جانبه في صراعه مع معظم أبناء الشعب السوري.. كما أن نظرة النظام للإدارة الذاتية لطالما كانت تستند إلى اتهامها بالعمل على الانفصال والتعامل مع المحتل "الأميركي".. متجاهلاً كيف كان وضع مجتمعها قبل الانتفاضة، وكيف تحول وتطور بعد الانتفاضة والثورة وتحت رعاية الإدارة الذاتية، حيث أعيد الاعتبار لثقافة ولغة وحضور وعادات كافة المكونات السورية التي تعيش في كنف الإدارة الذاتية في شمال شرق سوريا.. وإذا كان من دعمٍ أميركي للإدارة الذاتية التي تضم كافة القوى الفاعلة في المنطقة من عرب وكرد، فإن هذا مرده إلى التعامل بعنف من قبل قوات النظام التي اعتادت على إخضاع خصوم النظام بقوة السلاح..

تركيا تضغط على الإدارة الذاتية، سياسياً وعسكرياً وتتهمها بالإرهاب وبأنها جزء من حزب العمال الكردستاني المحظور، ولا تحاول تركيا فتح نافذة حوار مع الإدارة الذاتية على الإطلاق، بل أصبحت تتعامل معها على قاعدة القمع والتهديد بالاجتياح وتدمير البنية التحتية وتهجير الكثير من المواطنين السوريين من المدن والقرى السورية التي اجتاحتها القوات التركية خلال هجومها الذي توقف تحت الضغط الدولي.. والآن تعود تركيا للتهويل والتهديد بالقيام بعملية عسكرية ضد قوات قسد (قوات سوريا الديموقراطية) التي تعتبر الذراع العسكري للإدارة الذاتية في مواجهة قوى التطرف (داعش) كما في مواجهة قوات النظام التي تحاول إخضاع سكان المنطقة من جديد لسلطة نظام دمشق دون إعادة النظر بالسياسات السابقة والتي أدت إلى اندلاع الثورة والانتفاضة الشعبية..آ

ونظام دمشق من ناحيته يحاول الاستفادة من الضغط التركي والتهديد بالاجتياح العسكري ليمد يد التعاون للإدارة الذاتية بوساطة روسية لتعود إلى سيطرة النظام ومن يؤيده من ميليشيات أجنبية وخاصةً الإيرانية منها..

إذاً العلاقة تبادلية بين نظام دمشق وأنقرة.. حيث تستفيد دمشق من الضغط التركي، وفي المقابل تحقق أنقرة أهدافها في تسليم شمال شرق سوريا ومناطق الإدارة الذاتية لنظام دمشق وبالتالي تتجنب تركيا القيام بعملية عسكرية لن توافق عليها الولايات المتحدة وقوات التحالف الدولي..

هنا لا بد للإدارة الذاتية أن تدرك أن عودة سيطرة نظام دمشق لن يخدم إلا السلطة الحاكمة، وبذريعة حماية المنطقة من أي عدوان تركي سوف تتعرض له الإدارة الذاتية وجمهورها ومواطنيها إلى حملات القمع والاعتقال وخسارة كل ما تم إنجازه طوال سنوات.. ويمكن هنا الاستفادة من التجربة التي وقعت فيها المعارضة السورية في مناطق سيطرتها شمال وجنوب دمشق حين رضيت بالتسوية السياسية تحت ضغط القصف الروسي والهجمات التي شنتها الميليشيات العراقية والإيرانية واللبنانية.. وكانت النتيجة إطلاق حملة تهجير واستيلاء على الأراضي واعتقالات متواصلة وتعذيب الناشطين وحتى اغتيال العديد منهم..

القرار الاستراتيجي الرسمي في دمشق يقوم على ضمان استمرارية النظام بشكله الحالي وبنمط تفكيره التسلطي والديكتاتوري، القائم على تثبيت سلطة عائلة الأسد ومن يعمل إلى جانبها دون أي احترام لخصوصيات وثقافات المكونات السورية سواء العرقية منها أوالدينية..

اتفاق أضنة الذي وقعه نظام الأسد الأب، مع تركيا خلال القرن الماضي يؤكد أن نظام دمشق مستعد لتقديم أية تنازلات مطلوبة لحفظ النظام وديمومته وليس تحقيق مصالح الشعب السوري.. كما أن بنود الاتفاق ونص الاتفاقية مرفق.. يتضمن الكثير من النقاط التي تستهدف المكون الكردي حصراً باعتبار أن كرد شمال سوريا والعراق وتركيا هم أساس المشكلة ولب الصراع.. وإن الاتفاق على إضعاف حضور ودور المكون الكردي والذي أصبح واقعا ملموسا إلى جانب شركاء من مختلف المكونات، ويتمثل اليوم بالإدارة الذاتية.. مما يعني أن هدف النظام في دمشق من سياسة مد اليد هو إضعاف الإدارة الذاتية حتى تخضع تحت التهديد التركي، وليس تغييراً في الموقف الرسمي يبديه نظام دمشق..

إن أية علاقة توافق مستقبلية يجب أن تتطلب دراسة وعناية ومتابعة وضمانات إقليمية ودولية.. حتى لا تتكرر السياسات المسيئة والقمعية التي كانت تطبع المرحلة الماضية.

النظرة المشتركة للكرد تعتبر المقاربة الأقرب لعلاقة تركيا مع النظام السوري :

رغم التباين بين النظامين السوري والتركي، إلا أن النظرة بينهما مشتركة بالنسبة للمكون الكردي، وبالتالي فإنهما سوف يتناسيان أويتجاهلان التباين بينهما، والتناقضات والتصريحات والمواقف المتشنجة التي سبق أن أطلقوها بحق بعضهما البعض، كذلك المناوشات العسكرية التي اندلعت بين الجيشين السوري والتركي.. وإذا وجد النظام التركي أن فرضية بقاء هذا النظام في سوريا ممكنة إلى حدٍ بعيد، وإن المجتمع الدولي، وخاصةً الولايات المتحدة قد صرفت النظر عن إسقاط النظام واستبداله بنظامٍ آخر.. فإن النظام في تركيا لن يتورع عن إيجاد قواسم مشتركة أوحلول لإطلاق تسوية مع النظام الحالي برعاية روسية، وبقبول ورضى من إيران التي سوف

تستفيد من أية تسوية بين تركيا وسوريا على حساب الكرد، لأنها تشكل دافعاً لها لممارسة المزيد من القمع بحق الشعب الكردي في إيران، كما أن التسوية بين النظامين سوف تخفف من الأعباء العسكرية والمالية التي تتحملها إيران لدعم استقرار وبقاء النظام السوري على قيد الحياة.. خاصةً وإن روسيا منخرطة في حربٍ طاحنة في أوكرانيا وتستهلك سلاحها وجيشها وميزانيتها، والآن إيران بدأت تتورط مع روسيا في حربها من خلال تزويدها بالصواريخ والمسيرات.. كما أن إيران نفسها بدأت تعاني من انتفاضة داخلية تهدد استقرار النظام وديمومته.. لأن المطالب التي حملها المحتجون تطال أسس النظام ورموزه ولا تحمل مطالب معيشية ممكن تنفيذها أوتحقيقها.. وهذا يذكرنا بالانتفاضة الشعبية الإيرانية التي اندلعت في يناير1978،وأطاحت بشاه إيران في شباط عام 1979 حينذاك قبل أن يبتلع الخميني الثورة ويقضي على قادتها لينفرد بقياداتها وإدارتها إلى أن وصلت إيران إلى ما وصلت إليه الآن...

من هنا ندرك أن مصلحة نظام سوريا وإيران كما روسيا وتركيا تقضي بالتفاهم إن لم يكن الآن فقد يكون مستقبلاً للتوصل إلى تسوية سياسية بين نظام سوريا والنظام التركي، بهدف أن تقضي التسوية على الطموحات الكردية في تحسين ظروفهم ودورهم وحضورهم على الساحة السياسية في سوريا كما في باقي الدول المعنية بالقضية الكردية..ولا يمكن أن نتجاهل أن ميليشيات الحشد الشعبي العراقية مستاءة كثيرا من شبه استقلالية كرد العراق، والاعتداءات التي يطلقها أتباع هذه الميليشيات المؤيدة لإيران على المناطق الكردية تتكرر، واتهام الكرد بالتعاون مع اسرائيل أصبح أمراً متكرراً.. كما أن إيران تتهم كرد العراق بإيواء ثوار إيران الكرد ويتم ممارسة سياسة الضغط العسكري والقصف المدفعي والصاروخي بين الحين والآخر.. على كردستان العراق حتى أصبح أمراً روتينياً.. وهذا ما تقوم به تركيا أيضاً على شمال العراق، إلى جانب عمليات الاغتيال بين الحين والآخر..

وهنا يجب التنبيه إلى اللقاءات المتكررة إعلامياً أوحتى خلف الكواليس بين أجهزة المخابرات السورية والتركية لتبادل المعلومات والخبرات ورسم مسار سياسي ممكن البناء عليه لإعادة العلاقات بين النظامين.. انطلاقاً من قلق النظامين من الحراك الكردي والانفتاح الكردي على دول الجوار كما على دول المجتمع الدولي.. التي بدأت تتفهم دور وحضور الكرد ومعاناتهم.. كما أن دور الأحزاب الكردية في مواجهة حالات التطرف ومنع المتطرفين من التمدد بكلفة عالية بشرية ومادية.. جعل من الأحزاب الكردية موضع ثقة واحترام إلى جانب العلاقات المميزة التي تربط كرد سوريا والعراق مع الولايات المتحدة.. مما يمنع الحشد الشعبي العراقي والنظام التركي والنظام السوري من شن حرب إبادة بحق المجتمع الكردي..

الخلاصة :

من الملاحظ أن أنظمة الدول التي تحتضن المكون الكردي في الدول الأربعة، تمتاز بأنظمة ديكتاتورية قمعية حتى لوتظاهر بعضها بممارسة الديموقراطية.. وبالتالي فإن فرصة السماح للكرد بتأسيس أحزاب سياسية أوالتعبير عن ثقافتهم وممارسة تقاليدهم ستبقى موضع تجاذب وقمع ومواجهة..

إن هذه الأنظمة إنما هي أنظمة قومية ترفع من شأن قوميتها، ولا تحترم القوميات الأخرى التي تعيش في كنفها وتحت سلطتها..

إن هذه الدول لا تحتكم إلا لسلطة القمع الأمني وتستند في ممارسة سلطتها إلى القوة والمؤسسة العسكرية التي تعمل على حماية النظام،وتساعده على فرض سيطرته وهيمنته دون هوادة وبقوة الحديد والنار..

ما ينطبق على هذه الدول مجتمعة يمتاز به بشكلٍ خاص النظام السوري، الذي لا يمكن الوثوق به، بعد تاريخه القمعي الطويل والمستمر منذ عقود، وما قدمه مؤخراً أي قبل سنوات من احتواء للمكون الكردي كان بهدف احتضان الحالة الكردية واستيعابها حتى لا تصبح جزءاً من الانتفاضة الشعبية السورية، كما حتى لا تطالب بإدارة شؤونها وتقديم نموذج يمكن البناء عليه..

إن تفاهم الأنظمة القمعية في مختلف هذه الدول وتعاونها على إحباط أي انتفاضة كردية أومجرد المطالبة بحقوق ودور واحترام عاداتها وثقافتها ولغتها.. هوالقاسم المشترك بينها وبالتالي لا يمكن البناء على أي تحالف كردي مع أي دولة من هذه الدول..

إن اتهام الأحزاب الكردية بالعمالة أوبالانخراط في مشاريع تدميرية أوتقسيمية لا يمكن تجاهلها بل،يجب الرد عليها بتوضيح الواقع الكردي الصعب والمرفوض والمستمر منذ عقود طويلة وخاصة في سوريا

إن الجنسية السورية ليست تقدمة أومكرمة من النظام الحاكم في سوريا، بل هي حق لكل مواطن يعيش على الأراضي السورية، بما فيهم الكرد وبالتالي يجب اعتبار أن النظام السوري يظهر التراجع أوتقديم مواقف ايجابية عندما يشعر أنه قد حشر في زاوية ضيقة أوأنه مضطر للتراجع قليلا بانتظار فرصة جديدة للانقضاض على خصومه وخاصةً الكرد.إن الإدارة الذاتية في شمال وشرق سوريا، كانت علامة فارقة في تطبيع العلاقات بين المكونات المختلفة التي تعيش في المنطقة التي تشرف عليها.. كما أنها قامت بإحياء الثقافات والعادات والممارسات والأعياد كما اللغة،وهذا ما أعاد الحياة إلى بيئة تم منعها من ممارسة حقها الطبيعي في العيش بحرية وكرامة واحترام..

وخوف نظام دمشق والأنظمة المجاورة من نجاح تجربة الإدارة الذاتية هومن أن تتكرر في تركيا وإيران وفي ترسيخ حضورها ودورها شمال شرق سوريا.. بحيث تصبح أمراً واقعا لا يمكن التخلص منه. ونجاحها في تحقيق الأمن،ومواجهة التطرف وترسيخ السلم الأهلي والعيش المشترك بين كافة المكونات التي تعيش في تلك المنطقة، يجعل من الإدارة الذاتية أكثر جدية ومصداقية، من نظام دمشق الذي فشل في احتواء مختلف مكونات الشعب السوري حتى وصلت سوريا إلى خوض حربٍ أهلية...

إن الحذر ضروري،ومتابعة مسيرة تثبيت الحقوق والدور الإيجابي أمر لا بد منه، والتفاوض مع النظام السوري يجب أن يكون على قاعدة حفظ الحقوق واحترام الثقافة الكردية،وإعطاء المواطن السوري الكردي كافة الحقوق ,والانتقال بالنظام في سوريا من حكم الحزب الواحد

والعائلة الحاكمة والطائفة المهيمنة إلى دولة المواطنة لكافة المكونات وإعطاء الجميع حرية العمل السياسي والانفتاح الإعلامي واحترام حرية الرأي والتعبير بما يضمن حقوق كافة المواطنين وينتقل بسوريا إلى مرحلة النهوض الاقتصادي والاجتماعي والخروج من نفق التبعية والاستيلاء على الثروات الوطنية التي هي حق لكل شعب سوريا مهما كان انتماؤه أوثقافته...

لذلك فإن قرار التوافق أوالتفاهم بين الإدارة الذاتية ونظام دمشق، يجب مراجعته بعناية ولا يجب أن يتخذ تحت ضغط الهجمات الجوية التركية أوضغط الوساطة الروسية التي تحاول أن تستفيد من الضغوطات التركية لإنهاء ملف الإدارة الذاتية الذي يقلق روسياأيضاً، لإعادة تعويم نظام دمشق الذي سقط بسلوكه الديكتاتوري، ونهجه غير المتوازن في التعامل مع كافة المكونات السورية كما مع دول الجوار أيضاً.

النزوح وتأثيراته

علي جمعة

مقدمة

لا تزال مشكلة النزوح والتهجير من أهم المشاكل التي عانى ويعاني من إفرازاتها العديد من الشعوب،حيث أدت إلى خلق ظواهر واتجاهات وقيم سلبية عديدة على المستويات الاجتماعية والنفسية والثقافية والاقتصادية، فهي لا تنطوي على عملية الحراك المكاني للأسر بحثا عن الملاذ الآمن بل ترتبط بها متغيرات مهمة لاسيما منها عملية الاندماج التوافقي المجتمعي وأيضا عملية الاستبعاد الاجتماعي.

إذ يشير المراقبون من المختصين في المجال الاجتماعي والنفسي بأن الجوانب الأمنية السيئة، والحرمان، والفقر، والبطالة، قد تصنف كأسباب مهيمنة تؤدي إلى حدوث اضطرابات وانفعالات نفسية مثل (الاكتئاب والاغتراب والقلق والخوف) فضلا عن توليدها لاتجاهات سلبية لديهم اتجاه ذواتهم ومجتمعاتهم وباقي المكونات المحيطة بهم.

ويحاول معدّ هذه الورقة البحثيّة، أن يرصد أهم هذه المتغيرات من وجهة نظر اجتماعية وانزياحاتها النفسية على المجتمعات الواقعة تحت تأثيرها، كون هنالك اعتبارات علمية تضفي على هذا المشروع أهمية خاصة، تمثلت بقلة الدراسات المتعلقة بهذا الجانب، فضلا على اتساع تأثيرات النزوح على نفسية ووضعية الواقعين تحت تأثيره، حتى بعد زوال فعله على معظمهم وعودتهم إلى حياتهم الطبيعية. وقد هدفت هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن تأثيراتها على:

1 – المستوى الاقتصادي المؤثر على الاندماج التوافقي- الاقتصادي.

2 – المستوى الاجتماعي المؤثر على الاندماج التوافقي – المجتمعي .

3 – المستوى الأمني المؤثر على الاندماج التوافقي – النفسي.

إضاءة تعريفية لمصطلح النزوح ومتعلقاته

يرى البعض بأنّ النازح، هوذلك الشخص المكره على ترك مساحته المكانية، أوالاضطرار لذلك والانتقال إلى مكان آخر بعيدا عن خارطته الجغرافية المعتادة داخل رقعة الوطن الواحد؛ تفاديا

لآثار نزاع أوصراع مسلح أوحالة عنف قهري، تنتهك خصوصياته الجسمانية أوالعقائدية وتنتقص سلبا من حقوق مواطنته أوإنسانيته؛ التي كفلها له الدستور وقوانين حقوق الإنسان المتعارف عليها (76 : 1)

وقد ينتج عن هذه الحالة تولد مشاعر واتجاهات وقيم سلبية؛ نتيجة لعدم تكيفه وتوافقه مع المكان الجديد أوعدم تقبل أفراده له، مما يؤدي إلى شعوره بالعزلة والاغتراب (6 : 5)، ولعل لحرمانه من موارده وحقوقه التي كان يتمتع به كامتياز مكاني في مكان لجوئه، أثره في توسيع هذه الفجوة وتقليص مستوى المشاركة الاجتماعية في الموطن الجديد أوالتفاعل واستيعاب مفردات المجتمعات المحتضنة.

وتتعدد أسباب حدوث هذه الظاهرة بتعدد تصنيفاتها ، فبعضهم صنفها من وجهة نظر مسبباتها إلى :

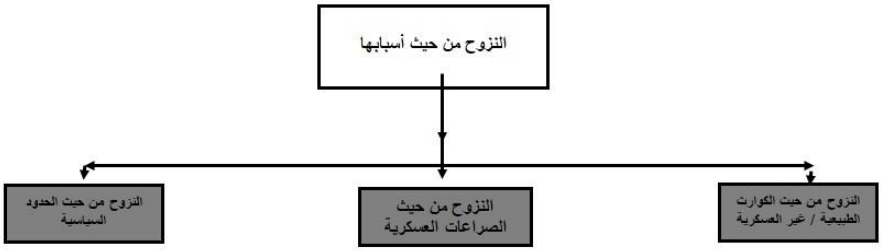

(44 : 2)

وهذه بدورها تقسم وبحسب مدة استمرارها إلى :

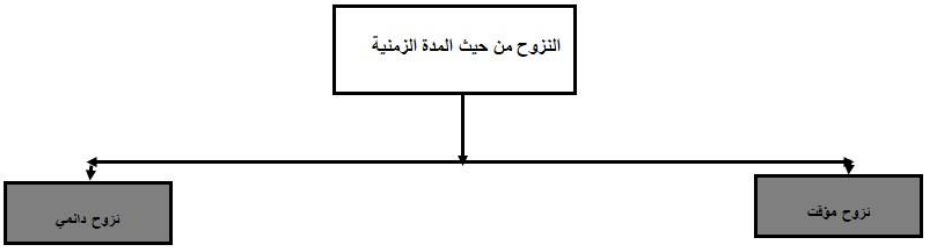

(36 : 11)(51 : 9)

مفهوم الاستبعاد (النزوح) الجبري / الطارئ

يعد هذا المفهوم من المفاهيم المفصلية والتوصيفية المهمة لطبيعة ما حل بالبنية الاجتماعية في مجتمعاتنا، بعد أحداث حزيران من العام 2014، إذأن هذه البنية تُعنى بوجود علاقات ثابتة ضمن نسق واحد ساعٍ لتحقيق الانتماء الاجتماعي للفرد والذي يمثل حاجة أساسية له، فالفرد بحاجة إلى قطب اجتماعي يحدد من خلاله هويته ويعمل على بناء شخصيته، فضلا عن احتياجه إلى كينونة اجتماعية يلتصق بها كي تمكنه من بناء هيكلية تيسر له التوافق والتخاطب مع الآخرين.(13 : 72)

ويجب الفصل ما بين النزوح / التهجير الاختياري – الداخلي، والتشرد / التهجير – القسري ، والترحيل - الخارجي، الذي يطلق على من وقع عليه بصفة اللجوء، كما ويجب الفصل ما بين النزوح الاختياري أوالإجباري / القسري، وهما بكلتا الحالتين لا يعطيان من وقع عليه أوضاعاً قانونيةً خاصةً كما هوالحال مع اللاجئين، ومع هذا فلا يعطيانه حرية الاختيار الممنوحة للنازح / المهاجر هجرة اختيارية، إلا أنها تميزه عن المشرد الداخلي / النازح القسري الذي يفتقد إلى ظروف الاستعداد النفسي والمادي فضلا على قلة فرصه بالعثور على المأوى ، الأمر الذي قد يضطره للسكن في مخيمات تفتقر إلى أبسط مقومات العيش الكريم، أوفي هياكل لمعسكرات قديمة أومنشآت غير مكتملة، أوبيوت مؤجرة لقاء مبالغ خيالية، تاركين كل ما كانوا ينعمون به سابقا من مساكن وأموال وحاجيات ومصادر للعيش، معتمدين على ما يتم منحه إياهم كمساعدات عينية، لا تسد أبسط متطلباتهم، مما يدفعهم إلى البحث عن مصادر أخرى للعيش، كوسائل مساعدة ومعادلة لقلة الخدمات، منها ما يكون مشروعا؛ كالبحث عن عمل من الصعب الاحتفاظ به في حالة العثور عليه، ومنها ما يكون غير مشروعا كالتسول وغيرها، وهذا أدى إلى ازدياد العديد من الظواهر السلبية كنسب التسرب من مقرات الممثليات المدرسية التي أعدت لهذا الغرض من قبل المتعلمين (10 : 86)، ازدياد نسب البحث عن عمل لجنس الإناث، والذي قد يجبرهن على قبول العمل بأي صورة، وفي بيئات قهرية /غير ملائمة (12 : 93)، وهذا بالطبع سيؤثر سلبا على تركيب الكثير من البنى العائلية وواجبات أفرادها، مما يؤثر سلبا عليها، وقد يؤدي إلى تسهيل تفكك معظمها، ممن لا تستطيع مقاومة مستوى الضغط القهري المسلط عليها، فضلا عن تأثيرها (الأنوي) السلبي لهم على الحساب (الجمعي) لسكان تلك المناطق المنزوح إليها ومستوى التفاعلات الاجتماعية مهم، وقد تسهم – فيما بعد - إلى توليد نوع من الصراع المخفي عن العين وفقا لتوصيف أرفنج زايلتن لطبيعة المعادلة العلائقية داخل المجتمعات المحتقنة قهريا من وجهة نظر ثقافية وبنائية واقتصادية (14 : أنترنيت).

إذ سيعمد اتباع مبدأ اللاعدالة في التوزيع والحرمان النسبي واضطراب القاعدة المعاشية إلى الاسهام في إذكاء أوار محفزات لرد فعل ناشئ ضد بعض مفاهيم (المجتمعات المستقبلة) القيمية (17 : أنترنيت)، الأمر الذي قد يؤدي إلى إفشال عمليات التبادل الاجتماعي المتوازنة فيما بينهم وبالتالي التأثير ومستوى تحقيق التوافق والاندماج ضمن تلك البيئات المحتضنة، وكما يمكن توضيحه بما يأتي :

مفهوم الاندماج التوافقي المجتمعي

يمكن النظر إليه بأنه التماثل والاتساق في الفكر والعمل بين المواطنين عن طريق تحقق رغبات ذاتية داخلية تسرع من عملية انسجامه مع المجموعة فيعاضدها بكل جهد فيما تسعى إليه وترغب فيه (15 : أنترنيت). وكما هومعلوم فإن للاندماج مجموعة عوامل توضحه ومنها :

أ-الاندماج السياسي: وهومجموعة التجاذبات والتفاعلات والميول بين مختلف أعضاء مجموعة معينة تعمد القيادات السياسية المسيطرة على مصادر القرار في البلد إلى إنتاجها وظيفيا وتسويقها؛ لتسهل من حدوث حالة التكامل المتضمنة الإيمان والثقة بما تدونه من قوانين ومبادئ ويتم ذلك عن طريق مجموعة من الوسائل ومنها (7 : 123).

أولاً: الحزب أوالمكوّن النقابي: وتنحصر أعماله على نشر الوعي، والتبشير بمبادئ وبرامج الأحزاب المهيمنة، ودمجهم فيها؛ من أجل خدمة الأهداف التي تطمح إليها.

ثانياً وسائل الإعلام المتمثلة بالوسائل المرئية كالتلفاز أوالمسموعة كالإذاعات أوالمقروءة كالصحف، والمجلات والتي تسهم في لعب أدوار مهمة وكبيرة في دمج الأفراد بالدولة، وذلك بعرضها وتصويرها للأحداث التي تهمهم بلغة بسيطة ، فتعبر عن انشغالاتهم وتطرح لهم الحلول، وعلى هذه الصورة تؤثر كل منها في دمجهم على النحوالمرجومنه.

بـ - الاندماج الثقافي: ويقصد به التوافق بين معايير ثقافية معينة، وهنالك علاقة طردية بينهما إذ تزداد درجة التوافق مرتفعة بزيادة درجة الاندماج.

ويتم دمج الأفراد ثقافياً بالتركيز على التراث الثقافي: الذي يضم عاداتهم، وأفكارهم ومعتقداتهم القيمية، وتلعب وسائل الإعلام الثقافية من كتب ومجلات ومحاضرات ومسرحيات في الترويج لها بغية دمجهم حتى يصبحوا مؤمنين بثقافتهم ويدافعون عنها، ويشاركون في نشرها وتطويرها، وبدورها هي تؤثر عليهم فتغير من سلوكيا تهم واتجاهاتهم، وتبلور أفكارهم وترسم لهم مستقبلهم المنشود.

جـ الاندماج الاقتصادي: من خلال التأكيد على استيعابية البرامج الاقتصادية، لمراحل تطوير المجتمع وواقع أفراده اقتصاديا، وتوفير فرص عمل؛ تسهم في زيادة الاستقرار وتحقيق فاعلية إدماجهم.

إذ أن اضطراب القاعدة المعاشية، ستكون له انعكاساتها السلبية المؤدية إلى عدم حدوث مبدأ التوافق، ويؤدي إلى ظهور متعلقات تهدد أمن وسلامة المناطق المحتضنة لهم.(5 : 187-199)

المظـاهر الإيجابيـة لعملية الاندماج التوافقي المجتمعي

يرى البعض بأن لعملية الاندماج التوافقي المجتمعي عددا من الإيجابيات ومنها :

أ-**الجانب المعنوي** : والمتمثل بـ:

- شعور أفراده بالاعتزاز بالنفس.

- شعورهم بالتفاؤل.
- شعورهم بكفالة امتيازاتهم المجتمعية .

بـ- **الجانب النفسي** : والمتمثل بـ:

- إشباع رغبات أفراده بالأمن.
- شعورهم بالإطمئنان .(16 : أنترنيت)

المظـاهر السلبية لعملية الاندماج التوافقي المجتمعي

أ- عدم الاستقرار: إن عدم اندماج الفرد مع مجتمعه سواء في عمله أوفي علاقاته الاجتماعية يجعله يعيش في حالةعدم استقرار دائم، مما ينعكس سلبا على حياته وحياة عائلته.

ب- القلق والأمراض النفسية: يصاب الأفراد بالملل، وفقدان قيمة العمل الذي يقومون به نتيجة عدم اندماجهم في المجتمع، فتتكون لديهم أمراض نفسية، وتدفعهم في بعض الأحيان إلى ارتكاب الجرائم، واستعمال العنف لحل مشاكلهم وتضعف معنوياتهم، فيصبحون عرضة للخطر (8 : 129).

أبعاد الاندماج التوافقي المجتمعي

يرى العديد من المختصين بأن هناك بعدين للاندماج الاجتماعي هما :

أ- **الاندماج المعياري القيمي**: المقصود منه تبني الفرد لقيم ومعايير المجتمع أوالجماعة التي تمكنه من الاندماج والقبول بين أفراده فالقيم والمعايير لها دور وظيفي في التوجيه لعموم الأفراد مع الأخذ بعين الاعتبار المكانة التي يحتلها الفرد داخل الجماعة وتفاعلاته أوالوسائل التي يتهيأ بها من أجل المشاركة في مختلف النشاطات الاجتماعية وفي هذا الإطار يبرز مفهوم التنشئة الاجتماعية ومفهوم الرقابة الاجتماعية وفيما يخص دراستنا هذه هوالاندماج المعياري للنازحين من الزاوية المرهونة باحترام قيم ومعايير الجماعة والخضوع المطلق للسلطة.

بـ-**الاندماج التفاعلي**: المقصود به جملة التفاعلات الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد وخاصة علاقات التعاون المتبادلة هذا البعد يتضمن أويعتبر بمثابة المقاييس لجملة من المفاهيم كمفهوم الشبكة الاجتماعية ومفهوم السند والدعامة الاجتماعية أي شبكة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية بين الأفراد كنوعية العلاقات الأسرية، والأشخاص الذين يتلاقون بصفة متكررة وكل ما يشكل مصدرا للسند الاجتماعي وذلك في إطار القيم والمعايير التي يسير وفقها المجتمع والجماعة (7: 129 – 133)

النازحون بين الاندماج التوافقي المجتمعي والنزوح

من خلال ما تقدم فإن المجتمعات التي تتعرض لفعل النزوح وما بعده، تلاقي تأثيرات عنيفة، ومتغيرات سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية شاملة، فالمؤثرات العنيفة تجلت في قوة ووحشية

الضربات والعمليات الحربية التي دارت على أرضه وفي أحيائه السكنية وبين أفراد مجتمعه، راح ضحيتها مئات الآلاف ونزح مئات الآلاف وأرعبت صورتها الوحشية عقول الأفراد والمؤسسات، التي أدت إلى حصول تغير اجتماعي ونفسي، كان له مترتبات أمنية واقتصادية واجتماعية.(6 : 107)

ولعل لهذا المتغير الدخيل على هذه البيئات أثره في حصول انحرافات وإعاقات اجتماعية وقيمية وثقافية بل وحتى عقائدية، أسهمت بشكل أوبآخر في التأثير على حياة الفرد لديهم؛ كونها تعمل كوسائل ضاغطة تسهم في جلد ذواتهم وإثارة أنواع من الغضب والإحساس بعقدة الذنب غير المبررة وغير القادرة على استيعاب حجم الكارثة التي ألمت بهم (6: 111)، وقد حاول معدّ هذه الورقة البحثية من التنبيه لها، والتحذير من كوارثها والمتمثل بالخراب البنيوي(النفسي والثقافي والفكري) للإنسان المقهور الواقع تحت تأثيراتها.

المصادر والمراجع

المعاجم :

1. *بيروتشود، ريتشارد وآخرون (2004) : معجم الهجرة، المنظمة الدولية للهجرة، ط1، مكتب القاهرة للمهام الإقليميه القاهرة، مصر.*

الكتب العربية :

2. *إسماعيل، خالد وآخرون(2016) : النزوح الكبير..أزمة النازحين في العراق بعد حرب داعش، ط1، مركز بلادي للدراسات والأبحاث الاستراتيجية بغداد، العراق.*
3. *الحسن، إحسان محمد (1991) : رواد الفكر الاجتماعي / دراسة تحليلية في تأريخ الفكر الاجتماعي، ط1، دار الحكمة، بغداد، العراق.*
4. *عمر، معن خليل (1989) : نحونظرية عربية في علم الاجتماع، ط1، جمعية الاجتماعيين، دولة الإمارات المتحدة .*
5. *اللحام، أ.د. أحمد عبد العزيز (2016) : الأضرار النفسية والاجتماعية للهجرة غير المشروعة، ط1، دار جامعة نايف للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية.*

الدوريات والبحوث :

6. *الدهيمي، عمر (2010) : الهجرة السرية في الجزائر، ورقة عمل مقدمة لندوة مكافحة الهجرة غير المشروعة، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، المملكة العربية السعودية.*
7. *سمير، عياد محمد (2008) : الهجرة في المجال المتوسطي.. العوامل والسياسات، الملتقى الدولي حول الجزائر والأمن المتوسط : واقع وآفاق، الوكالة الوطنية الجزائرية لتنمية البحث الجامعي*
8. *كريم، حمزة (2007) : التهجير القسري الداخلي في العراق، بحث مقدم للمساهمة في مشروع التنمية الوطني (بناءالإنسان العراقي) الفصل الخامس بالأمن الإنساني، بغداد، العراق.*
9. *محمد، فتحي عيد (2010) : التجارب الدولية في مكافحة الهجرة غير المشروعة ، ط1، جامعة النايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، المملكة العربية السعودية.*

10. وليد، عبد جبر(2017) : أزمة النازح والأمن الإنساني في العراق " تحديات التكيف ومخاضات الانتماء" ، (دراسة ميدانية للأسر النازحة في بغداد وأربيل)، مجلة البحوث التربوية والنفسية، جامعة واسط، كلية الآداب، العدد 45، الكوت، العراق.

الرسائل والأطاريح :

11. اللامي، ابتهال جبار محمد (2016) : الإرتقاء بإدارة النزوح الداخلي في ظل الطوارئ والأزمات في وزارة الهجرة والمهجرين، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة بغداد، بغداد، العراق.

أنترنيت

13. الحمزاوي، سعيد (2014) : سوسيولوجيا الهجرة، متاح على الشبكة العالمية عن طريق الرابط : https://platform.almanhal.com/Files/2/98007، تمت زيارته بتأريخ 25/ 3/ 2018: الساعة 2,17 صباحا

14. الرامي، عبد الوهاب (2009) : واقع الهجرة غير الشرعية، موقع قصة الإسلام الألكتروني، متاح على الرابط التالي : https://www.asjp.cerist.dz/en/article/15805 تأريخ زيارة الرابط (15 / 2 / 2018)، الساعة 7,13 مساء.
15. العتابي، عباس عبد الحسين كاطع(2017) : الجماعات النازحة دراسة أنثروبولوجية في النهروان، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، بغداد، العراق.
16. علي، خالد حنفي(2013) : البيئة الانتقالية المحفزة على العنف بعد الثورات، مجلة السياسة الدولية، مركز الأهرام للدراسات والبحوث، منشور على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) متاح على الموقع الآتي: www.siyassa.org.eg تاريخ زيارة الموقع 2020/5/5 الساعة 11:00 مساء

17. موسوعة الجزيرة، مقالة بعنوان تعرف على مفهوم الترحيل، منشور على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت)، متاح على الموقع الإلكتروني:
https://www.aljazeera.net/encyclopetia/conceptsandt,erminology2016
تاريخ زيارة الموقع 2019/3/26 الساعة 11:00 صباحا.

بحر قزوين إلى أين ؟

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

مقدمة.

يبدو أنّ النظام الدولي القائم قبيل المواجهة العسكرية بين روسيا وحلفائها من جهة، وأوكرانيا وحلفائها من الدول الغربية من جهة أخرى سيكون مختلفاً بدرجة كبيرة وبوتيرة لم يشهدها العالم منذ سقوط الاتحاد السوفياتي عام 1991م، وذلك استناداً إلى ما قد ينتج عن هذه الحرب من تغييرات سياسية وعسكرية عبر نشوء تحالفات وظهور أقطاب جديدة نسبياً متنافسة في سبيل الهيمنة على السياسة الدولية فهذه الحرب المستمرّة قد تغيّر النسيج الجيوسياسي لأوروبا، يمكن ملاحظة بوادر هذا الأمر من خلال دعم سويسرا للخطوات الغربية ضد روسيا في مسألة فرض العقوبات على الرغم من حيادها في معظم الحروب المندلعة في العالم، واستيقاظ الألمان وتخصيصهم لميزانية كبيرة 2% من الناتج القومي أي ما يعادل حوالي 100 مليار دولار لتحديث المنظومة الدفاعية لديها، وإرسال الغرب لأسلحة فتّاكة إلى الجيش الأوكراني، بالتزامن مع انقسام العالم سياسياً بين موالٍ للغرب وموالٍ للروس مع محاولة بعض الدول البقاء على الحياد، كلّها توحي بالتغييرات المحتملة التي قد تشهدها العلاقات بين الدول وانعكاسها على معادلات النظام الدولي والإقليمي بعد الحرب الروسية - الأوكرانية.

بلا شك ستكون للحرب الروسية - الأوكرانية تداعياتها وتأثيرها في مختلف بقاع العالم قد تظهر في المدى القريب أو البعيد، لذا من غير المستغرب أن تكون هذه الحرب بداية لحروب وتوتّرات دولية وإقليمية جديدة خاصة أنّ هناك أسبابًا تشير إلى هذه التوتّرات ومنها صعود بعض القوى الإقليمية الطامحة في التحوّل إلى قوّة فاعلة ومؤثّرة في السياسة الدولية أو التحوّل إلى قوّة عظمى هدفها الهيمنة على الشعوب والدول المجاورة لها كاستراتيجية لضمان مزاعم أمنها القومي، ما يشير إلى استمرار هذه النزعة بقاء العديد من الملفّات والقضايا كأزمات عالقة بين عددٍ من الدول منذ فترات طويلة، بعضها عائدة إلى بداية القرن العشرين وما شابها من تقسيمات استعمارية للمنطقة، وبعضها الآخر برزت بعد الحرب العالمية الثانية كأزمات تركيا مع جيرانها والقضية الفلسطينية وتداعيات الحرب الباردة ...إلخ، من دون إيجاد حل يرضي الأطراف المتنازعة، أو حسم أحد أطراف النزاع القضية لصالحه وتحقيق استراتيجيته، الأمر الذي يبعث ببوادر تغييرات جديدة في السياسية العالمية عبر صعود قوى مهيمنة أخرى وقد أشار إليها المفكر عبدالله أوجلان

في كتابه مانيفستو الحضارة الديمقراطية عبر وصف هذه الأزمة التي تحصل اليوم بأنّ القوى المهيمنة يعاد تشكيلها بعد كلّ أزمة خانقة وغائرة.([1])

من المحتمل أن تُغيّر الحرب الأوكرانية – الروسية العديد من المفاهيم السياسية والعسكرية التي كانت سائدة قبيل المواجهة بينهما، وتحفّز بعض الدول على اللجوء إلى خيار التدخل العسكري لمعالجة التهديدات التي تواجهها وتعرض أمنها القومي المزعوم للخطر، الأمر الذي يفرض إعادة النظر في مسألة العلاقات بين بعض الدول، وعلى رأسها العلاقات الإيرانية – الأذربيجانية المتوتّرة منذ استقلال الأخيرة عن الاتحاد السوفياتي، والتي وصلت في بعض الأحيان إلى مرحلة القطيعة الدبلوماسية والمواجهة العسكرية بين الطرفين، خاصة أنّ هناك العديد من الملفّات والقضايا الشائكة التي تختلف عليها الدولتان والتي يبدو أنّها ازدادت مؤخّراً، هذا الأمر بالإضافة إلى سياسات الأمن القومي الخاصة بالدول المطلّة على بحر قزوين كمصدر رئيسي للخلافات بينها، ونجاة نظام الحكم في كازاخستان من الانهيار إثر محاولة التنظيمات الإسلامية المتطرّفة في السيطرة على البلاد، وكذلك تداعيات الانسحاب الأمريكي من أفغانستان المتزامنة مع تنامي النفوذ التركي في المنطقة واستمرار التوتّر بين أرمينيا وأذربيجان وغير ذلك، يشير إلى أنّ حوض قزوين قد يكون بؤرة توتّر محتملة في غرب آسيا؛ وقد يتأثّر مستقبل العلاقات الإيرانية الأذرية بتداعيات الحرب الروسية- الأوكرانية في ظلّ ازدياد النشاطات العسكرية في هذه المنطقة وما سينجم عنها من ظروف سياسية وعسكرية من شأنها أن تحدّد شكل البيئة الأمنية الجديدة للجغرافيا الواقعة بين بحر قزوين وبحر الأسود، بالتأكيد ستتأثّر منطقة الشرق الأوسط بتأثيرات هذه البيئة بشكل مباشر أو غير مباشر بشكل سينعكس إيجاباً أحياناً وسلباً أحياناً أخرى على السياسة والاقتصاد والأمن في مناطق شمال وشرق سوريا.

خصائص العلاقات الإيرانية- الأذربيجانية.

تتّصف العلاقات الإيرانية- الأذرية منذ عام 1991 م (أي بعد زوال المنظومة السياسية التي كانت قائمة هناك) بعدّة خصائص والتي تتمثّل بانعدام الثقة بين الطرفين حيث هناك تنافس كبير بينهما على المجال الحيوي، فكلّ طرف يسعى للتحوّل إلى قوّة إقليمية مؤثّرة والسيطرة على ثروات حوض قزوين الذي يُعتبَر من المناطق الغنية بالثروات الطبيعية عبر امتلاكها لاحتياطات هائلة، وبنفس الوقت هناك عوامل تساهم في تقارب الدولتين في بعض الأحيان، كون هناك توافق ثقافي وتاريخي نسبي بين الدولتين اللتين تعتنقان نفس المذهب (الشيعي الاثنا عشري) ولهما تاريخ مشترك بحكم تشارك أراضي جمهورية أذربيجان وإيران التاريخ نفسه منذ عهد الميديين والإمبراطورية الأخمينية وغيرهم، حتى مجيء الروس في القرن التاسع عشر، إلى جانب ذلك يوجد تداخل ديمغرافي بين الدولتين، فهناك عدد كبير من الأذريين في إيران والذين يشغل بعضهم مناصب سياسية وعسكرية في الدولة الإيرانية كخامنئي الذي ينحدر من أصول أذرية.

[1] للمزيد راجع كتاب مانيفستو الحضارة الديمقراطية، المجلد الخامس، القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية، الطبعة الثانية، نيسان 2014م، صفحة 559.

يبدو أنّ المصالح الاستراتيجية للجمهورية الإسلامية الإيرانية مرتبطة في بعض جوانبها بمنطقة جنوب القوقاز، والتي كانت حتى القرن الثامن عشر جزءاً من الأراضي الإيرانية في فترة الدولة القاجارية، إلّا أنّها خسرت هذه المناطق بشكل تدريجي مع القرن الثامن عشر بموجب معاهدات كلستان 1813 و تركمانشاي 1828-1826م([2]) بعد أن خضعت تلك المناطق لسيطرة الإمبراطورية الروسية ولاحقاً للاتحاد السوفيتي، وينتهي بها المطاف بدول مستقلّة بعد انهيار الأخير، على الرغم من اعتراف إيران باستقلال تلك الدول التي كانت تاريخياً خاضعة لها في آسيا الوسطى والقوقاز إلّا أنّها من الناحية الإيديولوجية لاتزال تطمح بإعادة ضمّها.

بعد تفكّك الاتحاد السوفياتي عام 1991م أعلنت العديد من الدول استقلالها ومن ضمنها أذربيجان، نالت جميعها اعتراف دول العالم بها، ما عدا إيران التي تريّثت في الاعتراف بها لمدّة خمسة أشهر لمعرفة توجّهات القيادة الأذربيجانية التي حاولت تطوير علاقاتها براغماتياً مع مختلف دول العالم، بغرض تحقيق نوع من التوازن مع الاختلافات الإيديولوجية والسياسية والفكرية في مجالها الحيوي، لتبدأ بين الطرفين علاقات دبلوماسية واقتصادية وسياسية بقيت في الكثير من الأحيان ودّية؛ إلّا أنّ عدداً من النقاط الخلافية حالت دون تطوّر العلاقة بين الطرفين إلى المستوى الإستراتيجي، بل تحوّلت في معظم الأحيان إلى أزمة دبلوماسية وعسكرية بين الطرفين لعلّ أبرز العوامل المحرّضة لها طبيعة البنية السياسية للنظام الحاكم والتوجّهات الخارجية لكلّ دولة منهما، إلى جانب مخاوف أذرية من هيمنة إيرانية أو روسية على أمنها القومي، قد يكون هذا الدافع السبب في تعزيز باكو لعلاقاتها مع الدول الغربية وتركيا وبالتالي التقرب من حلف الناتو الذي يعدّ أحد الأطراف المناوئة لروسيا والجمهورية الإسلامية الإيرانية التي فضّلت بدورها التقارب مع روسيا والصين والابتعاد عن المحور الأميركي الغربي؛ إلى جانب الصراع على ثروات بحر قزوين، والرغبة الإيرانية في استتباب الأمن في حوض قزوين وفق عقديتها السياسية لضمان مصالحها؛ تجلّى ذلك في محاولاتها لضبط التوتّرات الخطرة والمتعلّقة بمشكلة إقليم ناغورني كاراباخ التي كانت قائمة بين أذربيجان وأرمينيا لمدّة ثلاثة عقود من الزمن، حيث رغبت إيران في لعب دور الوسيط بينهم، وذلك عبر رعايتها للمفاوضات بين الرئيسين الأذري والأرميني لتسوية النزاع وإيجاد حلّ مشترك يرضي الدولتين آنذاك.

في عام 2001م شهدت العلاقات الثنائية بين الدولتين أزمة حقيقية تتعلّق بحقوق كلّ طرف في بحر قزوين والثروات المكتشفة فيها، كادت أن تصل إلى حافّة المواجهة العسكرية بعد أن حاولت أذربيجان استثمار ثرواته بصورة أغضبت الإيرانيين([3])، التي هدّدت أذربيجان باستخدام القوّة العسكرية في حال عدم تراجع سفن التنقيب والتي كانت تعود ملكيتها لشركة بريطانية، لتتجنّب أذربيجان المواجهة العسكرية مع إيران وتغادر سفنها المنطقة.

[2] موسوعة المعرفة(الإلكترونية)؛ الحرب الروسية الفارسية (1826-1828)؛ الرابط:
https://www.marefa.org

[3] للمزيد راجع إبراهيم المقدادي؛ موسوعة إيران والتشيع السياسي/ الجزء الأول؛ الناشر مركز المزماة للدراسات والبحوث/2019؛ بلا رقم طبعة.

التوجهات المختلفة لكلّ دولة والصراع الجيوسياسي بينهما في الهيمنة على منطقة القوقاز وثرواتها، ومشكلة الإقليم المتنازع عليه بين أذربيجان وأرمينا وتداعياتها على الأمن القومي الإيراني، أوصل العلاقات في بعض المراحل إلى مستويات حسّاسة ومتدهورة، والتي طفت إلى السطح مجدّدا خاصة بعد التغييرات والتحوّلات في خارطة النفوذ في تلك المنطقة التي تعاني بالأساس من أزمات مزمنة، لذا قد تنهار في أيّة لحظة حالة الهدوء النسبي الموجودة هناك وتتحوّل إلى بؤرة توتّر، خاصة أنّ دول تلك المنطقة تحظى بدعم بعض القوى الدولية والإقليمية التي قد تدعمها في حال حدوث مواجهات عسكرية في تلك المنطقة.

العوامل الموتّرة للعلاقات الإيرانية- الأذربيجانية.

يبدو أنّ هنالك عدّة أسباب تقف خلف توتّر العلاقات الإيرانية- الأذرية، والتي تنقسم إلى أسباب سياسية آنية تتعلّق بالنفوذ الأميركي والإسرائيلي في باكو، والعمليات التآمرية لبعض القوى الإقليمية والدولية التي تسعى لفرض هيمنتها على هذه المنطقة، أو تعزيز جبهات التماس مع الخصوم والمنافسين في هذه المنطقة، إلى جانب وجود أسباب إيديولوجية- تاريخية تتعلّق بالحدود الجغرافية، فالقوميون الأذريين يرون بأنّ هناك جزءًا من أراضي أذربيجان ضمن دولة إيران، لذا يجب توحيدها مع دولة أذربيجان القائمة، واستنادًا إلى ذلك يطلقون على دولة أذربيجان القائمة بأذربيجان الجنوبية وعلى القسم الموجود في إيران بأذربيجان الشمالية، زد على ذلك لكلّ طرف طموحات جيوسياسية في المنطقة يعبّر عنها صانعو سياساتهم وتحرّكاتهم الخارجية، يبدو أنّ هذه العوامل باتت بمثابة العناصر الرئيسية في إدارة السياسة الخارجية والعقيدة الأمنية لكلا الطرفين، وإصرار كلّ طرف على موقفه من شأنه أن ينشط التأثير السلبي لهذه العوامل على العلاقات بين الطرفين.

فمع بداية شهر تشرين الثاني من عام 2021م أجرت إيران مناورات عسكرية تحت مسمّى (فاتحو خيبر) على حدودها المتاخمة لأذربيجان، والتي تعدّ الأكبر من نوعها في هذه المنطقة منذ سقوط الاتحاد السوفيتي، حيث هدّدت إيران أذربيجان باستخدام القوة العسكرية في حال استمرارها بالنهج التصعيدي ضدّها وتهديد المصالح الإيرانية وأمنها القومي في المنطقة بحسب تصريحات قاداتهم، وقد بدأت الأزمة بين الدولتين بعدما قرَّرت أذربيجان فرض رسوم جمركية على الشاحنات الإيرانية التي تمُرّ عبر منطقة كاراباخ الخاضعة لسيطرتها في طريقها إلى أرمينيا، بعد أن تمكّنت من السيطرة على مرتفعات ناغورني كاراباخ في تشرين الأول من عام 2020م، بعد قتال عنيف مع القوات الأرمنية ممّا تسبّب بتقليص الحدود الإيرانية- الأرمينية إلى أقل من 50 كيلومتراً، إلى جانب تنامي العلاقات الأذربيجانية مع كلّ من أمريكا وإسرائيل وتركيا إلى مستويات مقلقة بالنسبة لإيران، والذي من شأنه أن يزيد من وتيرة التنافس في المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية والحيوية؛ كلّ هذا وغيره ينبّئ بحدوث تغييرات استراتيجية في منطقة القوقاز يراها قادة إيران تهديداً مباشراً لأمنها القومي.

يبدو أنّ هذه المتغيّرات والعلاقات المتدهورة بالأساس بين الطرفين قادت إيران لإجراء مثل هذه المناورات التي تندرج ضمن دبلوماسية ما تُعرف "بدبلوماسية البوراج"([4]). فإيران ممتعضة بشدّة من النهج والسياسة التي تتبعها القيادة الأذربيجانية في سياستها الخارجية القائمة على تعزيز العلاقات مع القوى العدوة والمنافسة لها، وإفساح المجال للتمركز والتغلغل في منطقة القوقاز بحسب ما تدّعيه الحكومة الإيرانية التي تراها بداية لإنشاء محور ذي قوة جيوسياسية معادية لها وموالية للغرب، الذي يمكن أن يدعم مثل هذا المحور كقوة موازنة لإيران وحتى لروسيا؛ حالياً يضمّ هذا المحور كلًّا من تركيا وأذربيجان وباكستان، التي ارتقت علاقاتهم إلى توقيع اتفاقيات للشراكة الاستراتيجية العسكرية والسياسية والأمنية فيما بينها، ولشكر حلفائها على دعمهما في الحرب مع أرمينيا استضافت أذربيجان مناورات عسكرية مشتركة مع الحليفين المذكورين، إلّا أنّ الأمر الذي يثير مخاوف إيران المستقبلية الحلف التركي - الأذري القائم على أساس إيديولوجي قومي وتوقيعهم لإعلان شوشة عام 2021م، حيث تسعى تركيا من هذه الاتفاقات والتفاهمات إلى تعزيز نفوذها في الدول الناطقة بالتركية ومن ضمنها أذربيجان ودعمها اقتصادياً وعسكرياً خدمة لاستراتيجيتها وتأسيس ما تُسمّى بالجامعة الطورانية أو الوطن التركي، وقد كان لدعمها دور كبير في قلب المعارك لصالح الأذربيجانيين في حربهم مع أرمينيا بعد أن أمددتها بالمستشارين العسكريين والمرتزقة والطائرات المسيّرة.

ومن ناحية أخرى يبدو أنّ العلاقات الأذربيجانية- الإسرائيلية والتي تتطوّر بشكل مطّرد في السنوات الأخيرة، تقلق إيران بشدّة، فهي بالنسبة للأخير العدوة الإقليمية والإيديولوجية، وترى نفوذها في هذه المنطقة بالتحديد تهديداً خطيراً لأمنها القومي، وما يؤكّد عمق تلك العلاقات بين الدولتين تأمين أذربيجان لما يقارب من 48% من احتياجات إسرائيل من النفط والغاز([5])، في حين تمدّها الأخيرة بمختلف صنوف الأسلحة القتالية، وتعدّ ثاني أكبر مصدر للأسلحة إلى باكو بعد روسيا، وقد قدّمت إسرائيل معدّات عسكرية ومعلومات استخباراتية وأمنية مهمّة لأذربيجان أثناء حربها مع أرمينيا، الأمر الذي يثير ذعر إيران التي تتّهم أذربيجان أيضاً بأنّها منحت القوات الإسرائيلية حقّ استخدام قواعدها العسكرية الجوية أثناء تنفيذ ضربات عسكرية على إيران، كما تحمّلهم مسؤولية الهجمات التي استهدفت البرنامج النووي الإيراني واغتيال العالم النووي محسن فخري زاده في 27 تشرين الثاني من 2020م عبر اتّهامها بتقديم تسهيلات لجهاز الموساد لتنفيذ المهمة انطلاقاً من الأراضي الأذربيجانية وتوجّه بعض المنفّذين للعملية إلى أراضيها، ثم سفرهم إلى إسرائيل بعد انتهاء مهمّتهم السرية.

التعاون الإسرائيلي- الأذربيجاني زاد من إحباط إيران التي أقدمت على تهديد الأخيرة أثناء المناورات العسكرية على حدودها، بأنّه في حال استمرارها بالسماح للنشاطات الاستخباراتية والاقتصادية لإسرائيل في أراضيها قد تقوم إيران بإجراءات استثنائية ضدّها، هذه اللغة التهديدية

[4] يشير هذا المصطلح إلى إبراز دولة ما لقوتها العسكرية وتهديدها لدولة أخرى بالحرب المباشرة لردعها واستجابة تلك الدولة لمطالبها وتحفظاتها تجاه موضوع ما.

[5] عدنان أبو عامر، إسرائيل وأذربيجان... المصالح المتبادلة والتحالف الاستراتيجي، مركز الجزيرة للدراسات، تاريخ النشر أيار 2012م، الرابط:
https://studies.aljazeera.net/en/node/3402

برزت في تصريح المتحدّث باسم الخارجية الإيرانية سعيد خطيب زاده الذي صرّح بأنّ إيران "لن تتسامح مع وجود الكيان الصهيوني بالقرب من حدودها، وستتّخذ الإجراءات الأمنية التي تراها ضرورية"([6]).

وهناك موضوعًا آخر يعكّر العلاقة بين الطرفين كتوفير أذربيجان الدعم للمعارضة الإيرانية لعلّ أبرزها "حركة الصحوة الوطنية لأذربيجان الجنوبية" التي تأسّست عام 2002م، فقد تسبّب نشاطها بأزمة دبلوماسية بين البلدين في عام 2013م([7])؛ تتمحور إيديولوجية هذه الحركة باستقلال أذربيجان الجنوبية عن الدولة الإيرانية وانضمامها إلى أذربيجان الشمالية، لذا هناك مخاوف لدى طهران من محاولات تصاعد النزعة الانفصالية لدى الأذريين في داخلها لا سيّما أنّهم يمثلون أكثر من ربع سكانها، وقد تمّت ملاحظة ذلك بعد تعاطفهم الكبير مع باكو في حربها الأخيرة وهي تحاول من جانبها التأثير في تعبئة الروح الوطنية لديهم الذي ازداد بعد الانتصار على القوات الأرمنية وذلك بالخروج إلى الساحات للاحتفال بهذا النصر، أمّا بالنسبة للعامل الإيديولوجي الكامن وراء توتّر العلاقات فيتمثّل بشكل رئيسي في فشل إيران في تصدير ثورتها على الرغم من أنّ غالبية الشعب الأذربيجاني يعتنق المذهب الشيعي الاثنا عشري والذي يعتبر المذهب الرسمي لدى الدولة الإيرانية.

أما أذربيجان فهي تحاول من جهتها نسج علاقات قوية مع مختلف القوى الفاعلة في منطقة القوقاز كنوع من أنواع السياسة الدفاعية، وخاصة القوى المنافسة والعدوة لطهران للحيلولة دون وقوعها تحت الهيمنة الإيرانية نظراً لأهميتها الاستراتيجية الكبيرة ضمن حسابات إيران الإقليمية التي لا تقبل دولة شيعية علمانية وشمولية مستقلّة عن مجال النفوذ التقليدي، وهذا ما ينبّئنا عن شكل الموقف وردّة الفعل التي ستتّخذه إيران في حال لو تحوّلت أذربيجان إلى دولة منافسة لها، الأمر الذي يؤرّق الأذريين بشكل كبير والذين هدّدوا إيران بأنّهم سيشركون قوى إقليمية ودولية في حال تمادت الأخيرة ووجّهت ضربة عسكرية لها إثر التهديدات التي تزامنت مع المناورات العسكرية قرب حدودها؛ فإيران تعدّ بالنسبة لباكو خطراً إيديولوجياً كبيراً كونها تشجّع وتساند بطريقة سرية إلى حدّ ما نشاطات إيديولوجية شيعية معادية لسلطة عائلة علييف من الممكن أن تتسبّب بإحداث الفوضى وحالة من عدم الاستقرار في البلاد التي تعاني من هشاشة في تطبيق الديمقراطية، وهذا ما يمهّد الطريق أمام إيران لتصدير أيديولوجيتها ذات المظهر الثوري والقائمة على نشر التشيّع والتفريس على غرار ما تفعله في كل من العراق ولبنان وسوريا في الوقت الحالي، وما يقلق الأذريين أكثر تشكيل الحرس الثوري الإيراني في سياق الأزمة السورية لفصيل عسكري تحت مسمّى "حسينيون" الذي يضمّ مقاتلين شيعة أذربيجانيين، مهمّته القتال إلى جانب قوات النظام السوري بعد أن تمّ إخضاعهم لتدريبات عسكرية وإيديولوجية، وتطوير خبراتهم في استخدام

[6] هدى الحسيني، ما بين أذربيجان وإسرائيل يقلق إيران!، موقع الشرق الأوسط، رقم العدد 15661، تاريخ النشر تشرين الأول 2021م، الرابط:
https://aawsat.com/home/article/3244881

[7] د. ناجي خليفة الدهان، التوتر بين أذربيجان وإيران، أبعاده ومآلاته،مركز أمية للبحوث والدراسات الاستراتيجية، تاريخ النشر 2021/12/11م، الرابط:
http://www.umayya.org/articles/umayya_articles/25090

الأسلحة التكتيكية التي قد تؤثّر على معادلات الصراع فيما بينهم، وهذا ما يثير مخاوف الدولة الأذرية تجاه السلوك الإيراني حيث تصفها في خانة العمليات التآمرية.

بالطبع للعامل الاقتصادي دوره في الخلافات الحادّة بين الطرفين والمتعلّقة بالثروات ومسألة حقوق كلّ طرف في حوض قزوين، فإيران وروسيا تتبنّيان الطرح الذي يدعو إلى اعتبار البحر حوضًا مائيًّا لجميع الدول المتشاطئة عليه، وأن يكون تقاسمه وفق قطاعات متساوية أي بنسبة 20% لكلّ دولة، أما دول جمهوريات آسيا الوسطى(أذربيجان وتركمانستان وكازاخستان) فهي تدعو إلى تقسيم البحر على أساس امتداد كلّ دولة عليه؛ أي حصة روسيا 19% وإيران 13% وكازاخستان 27% وتركمانستان 23% وأذربيجان 18%([8])، الأمر الذي اعترضت عليه إيران بشدّة كون حصّتها هي الأقل بالنسبة للدول المتشاطئة الأخرى، إلّا أنّ روسيا وافقت عليه فيما بعد، فإيران تصرّ على تفعيل الاتّفاقيات المُبرَمة مع الاتحاد السوفياتي في أعوام 1921 و1940م التي تمنحها حصّة أكبر، كما تختلف إيران وأذربيجان أيضاً حول تقاسم موارد طاقة بحر قزوين الضخمة، فالأخيرة تحاول منافسة الغاز والنفط الإيراني وحتى الروسي في أسواق الطاقة وبدعم غربي، وذلك عبر مشاريع مدّ شبكة من الأنابيب كأنبوب نابوكو، وأنبوب باكو- أرضروم للغاز الطبيعي، وأنبوب باكو- جيهان النفطي([9])، التي لا تمرّ أية واحدة منها في الأراضي الإيرانية، لذا تعدّها إيران بمثابة تهديد خطير لأمنها الاقتصادي، كونها تعاني بالأساس من عقوبات اقتصادية شديدة.

إلى جانب هذه الأسباب المذكورة لا يمكن فهم التوتّرات القائمة بين طهران وباكو بعيداً عن الصراعات التاريخية والجيوسياسية التي حدثت في منطقة القوقاز، وطموح كلّ من إيران وروسيا وتركيا والصين في الهيمنة على المنطقة، بوصفها دولاً إقليمية معنية بترتيب المشهد السياسي والأمني والاقتصادي في هذه المنطقة الحسّاسة، وتبقى الإيديولوجيا التي تحرّك الصراع السياسي والعسكري والاقتصادي هي الضابط للتطوّرات المحتملة في البيئة الأمنية التي تحيط بها تلك الدول.

خيارات التعامل الممكنة مع الأزمة.

يبدو أنّ العلاقة بين أذربيجان وإيران باتت تعاني من أزمة حقيقة في هذه المرحلة خاصّة مع التحرّكات والمناورات العسكرية التي قامت بها القوات الإيرانية على حدود دولة أذربيجان، والنشاط الكثيف في العمليات التآمرية، السياسية والاستخباراتية والاقتصادية بين الطرفين على الرغم من الهدوء النسبي، ورغبة كلّ طرف في احتواء الطرف الآخر لعدم تطوّر الصراع لمراحل خطيرة، إلّا أنّه يمكن لكلّ طرف أن يلجأ لخيارات للتعامل مع الطرف الآخر، قد تكون خيارات تصعيدية أو قد يسعى الطرفان إلى تخفيف حدّة الأزمة عبر الطرق الدبلوماسية والسياسية.

[8] محفوظ رسول، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية - جامعة الجزائر 3 ، الأمن الطاقوي الروسي بين الفرص والقيود، تاريخ الإنشاء آب 2017م ص10.
[9] المرجع السابق.

تشترك إيران مع أذربيجان بحدود تمتدّ لمسافة 700كلم، الأمر الذي يربك السلطات الإيرانية تجاه أي تغيير جيوسياسي في تلك المنطقة، خاصة أنّها تتمتّع بأهمية استراتيجية وحيوية وتاريخية، فهي لم تنسَ بعدُ علاقاتها التاريخية ودورها الثقافي المؤثّر في تلك الجغرافيا، وما زالت تستحضره في عقيدتها السياسية إلى اليوم، وتنظر في نفوذها وتواجدها في هذه المنطقة كنوع من تأمين المنافع الحيوية ذات التأثير المباشر على أمنها القومي، هذه الطموحات تؤثّر بشكل كبير على علاقاتها مع أذربيجان، فالعلاقات بين الدولتين لا يمكن وضعها إلّا في خانة المتزعزعة والمتدهورة والمبنية على التناقضات العرقية والتاريخية والجغرافية بين الطرفين اللذين يحاولان البحث عن الحلول السياسية، لتحاشي أيّة مواجهة عسكرية بينهما في كلّ مرة، فإيران تسير بحذر شديد في منطقة القوقاز، فهي لا تحتاج إلى زعزعة استقرار حدودها الشمالية في ظلّ التحديات التي تواجهها بالفعل في الخليج الفارسي والعراق وأفغانستان، وتحاول قدر الإمكان الابتعاد عن المواجهة العسكرية في الوقت الحالي.

قد تؤثّر الحرب الأوكرانية- الروسية على العلاقات المستقبلية بين الدولتين عبر إحداث مزيد من التباعد أو التقارب بينهما، خاصة في حال وقوف أذربيجان مع المحور الغربي ووقوف إيران مع روسيا، فالواقع الموجود يوحي وكأنّهما في هدنة غير معلنة وحرب مؤجَّلة، وما يشير إلى ذلك عدم ارتقاء علاقات التقارب بينهما إلى المستوى الاستراتيجي بعد. هذه العلاقات المتوتّرة والمتقلّبة في بعض الفترات والتغييرات الجيوسياسية الحاصلة على حساب إيران في أذربيجان، إلى جانب الصراعات الدولية والإقليمية في كلّ من منطقة القوقاز، والشرق الأوسط وشرق أوروبا وآسيا الوسطى لها تأثيرٌ في تأزيم العلاقات الإيرانية- الأذربيجانية لما للدولتين من أهمية كبيرة في سياسات الدول المتصارعة.

إنّ طبيعة هذه العلاقات قد تقود الدولتين مستقبلاً إلى سيناريوهات مختلفة؛ فقد تلجأ إيران إلى سيناريو المواجهة العسكرية لمعالجة التحدّيات المذكورة سابقاً، إلّا أنّ هذا السيناريو قد يكون محفوفاً بمخاطر كبيرة، وتصبح بمثابة تهديد خطير لإيران، لأنّ أذربيجان تُعتبَر منطقة حيوية بالنسبة لكلّ من روسيا وتركيا وإسرائيل، وأيّ تهديد لمصالحهم سيؤثّر حتماً على علاقاتها مع إيران في مناطق أخرى على غرار سوريا، كما أنّ أذربيجان تتمتّع بعلاقة جيدة مع الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا التي قد تدعمهما في حال حدوث أيّة مواجهة عسكرية بينهما على غرار دعمها المقدم لأوكرانيا وتايوان، بالإضافة إلى ذلك ستلاقي إيران في مواجهتها كلًّا من باكستان وتركيا اللتين وقّعتا اتفاقية الدفاع المشترك مع أذربيجان، والذين يصفون تكتّلهم بـ (الأخوة الثلاثة).

ومن الأسباب الأخرى التي تعيق أيّة عملية عسكرية محتملة لأذربيجان هو التدهور الاقتصادي وحالة الحصار المفروضة على إيران من قبل الدول الغربية بسبب برنامجها النووي، وكذلك وجود عدد كبير من المواطنين الأذريين لديها، الأمر الذي سيؤثّر سلباً على داخل إيران عبر إثارة البعض منهم وخاصة المتعاطفين مع أذربيجان لتمرّدات وانتفاضات؛ لذا قد يكون سيناريو الصدام العسكري في الوقت الحالي بعيداً ومُكلِفاً، إلّا أنّه غير مستبعَد لدى الإيرانيين في حال زيادة أذربيجان لقوّتها وتهديدها لأمنهم القومي المزعوم، عبر السماح بزيادة النفوذ التركي والإسرائيلي (التي قرّرت فتحت سفارة لها في أذربيجان بعد موافقة برلمانها) وتحويل الأخيرة للأراضي

الأذربيجانية كمسرح لعملياتها المستقبلية ضدّ المنشآت النووية الإيرانية، على الرغم من ذلك قد تحصل إيران على فرصة أخرى بعد أن تقوم بعض الأطراف الدولية بغضّ النظر وحتى تحريضها في نفس الوقت لخوض مواجهة عسكرية مع أذربيجان، وذلك بعد الوصول إلى اتفاق نووي برضى جميع الأطراف ولمصلحة غربية في دعم المواجهة مع روسيا، والتخلّص من احتكارها للغاز المصدّر إلى أوروبا، واستخدام إيران كأداة تأثير في أزمات المنطقة من خلال الاستفادة من الغاز الإيراني وعوامل قوّتها الإقليمية، وبنفس الوقت خلق مستنقع لها في أذربيجان يستنزف الطاقة العسكرية والاقتصادية الإيرانية على غرار ما تلاقيه روسيا في أوكرانيا، وقد يؤدّي ذلك إلى احتمال بروز مواجهة بين روسيا وإيران التي لن تكون من مصلحة روسيا التي قد تبادر إلى تقديم محفّزات لإيران، كالسماح لها باجتياح أذربيجان وتعزيز نظامها الدفاعي الجوي من خلال منظومة (س 300) أو حتى حماية مواقعها الحيوية من الضربات الإسرائيلية، إلّا أنّ الاحتمال الذي قد يؤرّق الروس هو تغاضي الغرب عن غزو إيراني لأذربيجان بموجب صفقة خاصة على حسابها.

تفادياً لسيناريو المواجهة العسكرية والحرب غير المحمودة العواقب، قد تلجأ إيران لتفعيل خيارات أخرى لمواجهة أذربيجان كتلك التي تعرف بالعمليات التآمرية([10])، وذلك عبر زيادة نشاط ميليشيات حسينيون والاعتماد عليهم كمجموعات عسكرية على الحدود مخصّصة لمواجهة سلطة باكو، وتحفيزهم لنقل نشاطهم للداخل الأذربيجاني خاصة أنّ لإيران باعًا طويلًا في تشكيل تنظيم سياسي كامل مع مجموعات قتالية، وما يشهد على ذلك تجربتها في دعم حزب الله اللبناني، أو قد تقدّم إيران الدعم لأيّة عملية داخلية تطيح برئيس أذربيجان الحالي إلهام علييف أو تهيئة ظروف لذلك مستقبلاً، ولم تخف توجّهاتها ونيّتها في ذلك، عندما صرّح رئيس هيئة الأركان العامة في القوات المسلّحة الإيرانية اللواء حسن فيروز آبادي، في خطابه في تشرين الأول 2011 **"بأنّ إلهام علييف مثله مثل الحكّام العرب الذين يواجهون انتفاضات شعبية، سيواجه مصيراً قاتماً لعدم اتّباعه المبادئ الإسلامية"**([11])، أو قد يلجأ الحرس الثوري الإيراني مثلاً إلى تنفيذ ضربات محدودة وبشكل غير مباشر لبعض الأهداف الأذربيجانية ذات الطبيعة الاستراتيجية، بنفس الأسلوب الذي تتّبعه إيران ضدّ خصومها في منطقة الشرق الأوسط، من خلال الضربات المحدودة لأهداف بعينها وفق لاستراتيجية الحرب الهجينة التي تخوضها في المنطقة، أو قد تعمل إيران على تحريض أرمينيا لاسترجاع مرتفعات كاراباخ التي خسرتها لصالح أذربيجان، ويبدو أنّ هذا السيناريو يحبّذه القادة الإيرانيون، وما يشير إلى نواياها بذلك اندلاع قتال عنيف بين الطرفين في شهر آب من هذا العام، والذي تسبّب بسقوط ضحايا من قبل الطرفين المتنازعين؛ يبدو أنّ اشتعال أو افتعال أو دعم إيران لمثل هذه الخطوات من قبل أرمينيا في المستقبل سيحقّق لها البعض من أهدافها الاستراتيجية؛

---

[10] تعرف العمليات التآمرية على أنها برنامج يضم عدة عمليات استخباراتية يتم التنسيق بينها غالباً ما تدار على فترة زمنية طويلة نسبياً، وذلك للتأثير على الجمهور أو الفئة المستهدفة للقيام بشيء ما أو الامتناع عن تنفيذ شيء ما، وتعرف أيضاً على أنها محاولة إحدى الدول للتأثير على الأحداث في الدول الأخرى من دون أن تكشف عن تورطها.
شادي عبدالوهاب، الخيار الصامت، توظيف "العمليات التآمرية" في إدارة التفاعلات الدولية، مركز المستقبل، أيار وحزيران 2017م.

[11] إف ستيفان لارابي وعاليرظا نادر، العلاقات التركية الإيرانية في شرق أوسط بات متغيرًا، مؤسسة راند، تاريخ النشر 2013م، ص17.

وذلك عبر استنزاف قدرات أذربيجان بحروب جانبية وهجينة لإنهاكها بالصراعات والأزمات، وبالتالي التمكّن من احتواء نفوذها المتنامي نسبياً في منطقة القوقاز.

رغم العقبات والعلاقات المتدهورة في بعض الفترات بين الطرفين، إلّا أنّ الأمن الإقليمي المشترك، والتعاون الاقتصادي خاصة في مجال الطاقة يشكل فرصة كبيرة لتقوية العلاقات بين الدولتين، لا سيّما أنّهما جارتان ويتشاركان بحدود جغرافية طويلة، كما أنّ كلا الطرفين غير مستعدّين لتحمُّل تكلُفة الحرب الباهظة، فأيّة حرب بينهم سيعرّض الدولتين لدمار كبير وخطر حدوث انقسامات سياسية وتدخلات خارجية خاصة أنّهما تعانيان من أزمات اقتصادية كبيرة، فأذربيجان خرجت حديثا من حربها مع أرمينيا، وإيران تعاني من عقوبات اقتصادية غربية، ولديها عجز هائل في الميزانية بالتزامن مع أوضاع معيشية كارثية، واحتجاجات داخلية متصاعدة، وهو ما يتناسب والقُدرات والتحدّيات التي تواجهها إيران على الصعيدين الداخلي والخارجي، وما يشير إلى احتكام الطرفين للغة الحوار هو اجتماع الرئيس الإيراني والأذربيجاني في تشرين الثاني 2021م، وتوقيعهم لاتفاقية ثلاثية مبدئية لتصدير الغاز من تركمانستان إلى جمهورية أذربيجان عبر الأراضي الإيرانية، رغم التوترات والمناورات والتهديدات بالمواجهة العسكرية التي جرت بينهم قبل ذلك الاجتماع.

بمعزل عن هذه السيناريوهات المطروحة تبقى أذربيجان بوضعها الحالي عائقًا أمام نجاح السياسة الإقليمية الإيرانية، خاصّة أنّ استراتيجيتها القائمة على تصدير ثورتها يفرض عليها احتواءها، لذا ستحاول إيران الاستفادة من التوتّرات العالمية كالغزو الروسي لأوكرانيا والانسحاب الأميركي من أفغانستان والتوتّرات الصينية- التايوانية، وقرب توقيع الاتّفاق النووي مع الغرب، وتنامي الأزمة الداخلية التركية، فضلًا عن سعيها المتواصل لاستثمار موقع أذربيجان المتميّز كحجر أساس لاستراتيجيتها المستقبلية في مجال الطاقة على الساحة الدولية وغير ذلك، بشكل يعزّز من نفوذها ويمكّنها من استغلال الفرص الجيوسياسية التي قد تحدث في هذه المنطقة ذات العمق الاستراتيجي، والتي تنظر إليها كخاصرة رخوة لها.

تداعيات الأزمة المحتملة على سوريا.

يبدو أنّ القوى التي تنشط وتمتلك حضورًا مؤثّرًا في سوريا تنشط في أذربيجان أيضاً، لذلك قد تكون هناك تداعيات لأيّ صراع مهما كان شكله على هذه المنطقة، وهناك مصلحة للدول الغربية في توريط إيران بمثل هكذا حرب من أجل تنفيذ أجنداتها وتغيير سلوك إيران في المنطقة.

بشكل عام قد لا يكون لهذه الأزمة تأثير استراتيجي كبير على سوريا بسبب التباعد الجغرافي لمنطقة الصراع، إلّا أنّه من المحتمل أن تؤثّر هذه الأزمة -في حال اندلاعها- على علاقات ونفوذ القوى المنخرطة في الأزمة السورية، وقد يكون ثمة تأثير ما على شرق وجنوب كردستان بدرجة أكبر من روجآفا، بسبب التقارب الجغرافي بينهم ومعاصرتهم للأحداث والتطورات التي قد تبرز في تلك المنطقة، هذا وبالإضافة إلى عدم وجود تبادل تجاري كبير بين دول حوض قزوين ومناطق شمال وشرق سوريا، على الرغم من ذلك قد تتحوّل منطقة حوض قزوين إلى بؤرة للجماعات المتطرّفة التي قد تتّخذ من المناطق السورية المحتلّة من قبل تركيا كقواعد انطلاق لها، كونها مرتعًا

لجميع التنظيمات الإرهابية بما فيها داعش وحرّاس الدين، لذا قد تستغلّ تركيا أيّة صفقة مع الغرب لدعم أذربيجان عسكرياً ضدّ إيران مقابل احتلال المزيد من مناطق شمال وشرق سوريا، وما يشير إلى نوايا القوى الدولية والإقليمية لإحداث بؤر توتّر جديدة في تلك المنطقة الاتهامات الروسية للقوات الأمريكية الموجودة في قاعدة التنف بتدريب عناصر من التنظيمات القوقازية المتطرّفة([12]).

لا شكّ في أنّ أيّة مواجهة عسكرية تخوضها إيران مستقبلاً مع أذربيجان أو مع دولة أخرى في المنطقة، ستؤثّر بشكل أو بآخر على مناطق نفوذها، وستعرّض الخريطة السياسية والعسكرية للدولة التي تشهد حضوراً إيرانياً لتغييرات جديدة وعلى رأسها سوريا، والتي لن تسلم من تداعيات المواجهة العسكرية التي قد تحصل بين الدولتين، خاصة أنّ السلطة في دمشق مرتبطة مع إيران باتفاقية للدفاع المشترك تمتد منذ أيام حافظ الأسد، ويبدو أنها مازالت سارية المفعول للوقت الراهن، وظهر ذلك غداة مشاركة الحرس الثوري الإيراني والميلشيات الموالية لها بالدفاع عن النظام السوري وحمايته من الانهيار المؤكّد بعد اندلاع الأزمة في سوريا في آذار عام 2011م، هذا وبدوره يسعى النظامان لتحسين وتطوير علاقاتهما لتصل إلى مستويات استراتيجية في المجالات الاقتصادية والأمنية باستمرار، الأمر الذي يفرض على السلطة في دمشق المشاركة وتقديم الدعم لإيران في أيّة حرب قد تخوضها مستقبلاً، كونهم يشكّلون بمشاركة حزب الله اللبناني محور المقاومة بحسب ادّعاءاتهم، لذا فأيّة تغييرات محتملة في معادلات الصراع في حوض قزوين التي تشهد توتّرات بين الفينة والأخرى ستتأثّر بها سوريا وقد تقدّم السلطة في دمشق تنازلات لكلّ من روسيا وأمريكا والإدارة الذاتية في حال تراجع الدعم الإيراني لها، وهذا ما لا يريده البعثيون والمتعاطفون مع إيران، هذا وقد تتحوّل الأراضي السورية مجدّداً إلى ساحة لتصفية الحسابات بين القوى المتنافسة والمحتلّة لجغرافيا البلاد، فكلّ طرف لديه علاقات مع كلّ من إيران وأذربيجان بشكل أو بآخر، وترتقي علاقات البعض منهم إلى مستوى الشراكة الاستراتيجية والدفاع المشترك ،كتلك التي تربط تركيا بأذربيجان التي ستساندها بكلّ تأكيد في حال تعرضها لاجتياح إيراني، وذلك بتهديد مصالحها في سوريا عبر تحريض الجماعات المرتزقة لشنّ هجمات معاكسة على مناطق تمركز الميليشيات الإيرانية، وفتح جبهة جديدة ضدّها للتخفيف الضغط وكدعم للقوات الأذربيجانية، وخاصة في منطقة حلب ذات البعد الاستراتيجي لإيران وتركيا، فالأولى تسعى إلى ربطها تاريخيا كامتداد جغرافي للدولة الحمدانية الشيعية التي حكمت تلك المنطقة لعدّة عقود، والثانية تنظر إليها كجزء من مناطق الميثاق الملّي وذات قيمة اقتصادية عالية، والتي يتعين على الأتراك السيطرة عليها مجدّدا، لذا فهناك خلاف إيديولوجي وتاريخي وإن لم يكن بشكلٍ علني بين الدولتين على هذه المدينة.

هذا وفي نفس السياق من المؤكّد بأنّ أيّ اجتياح إيراني لأذربيجان سيكون قوامه واعتماده الأكبر على الميليشيات التي رعاها وهيّأها الحرس الثوري منذ عقود طويلة لخدمة مشاريعها

[12] موقع روسيا اليوم، الاستخبارات الروسية: واشنطن تلملم فلول الدواعش في سوريا لإرسالهم إلى أوكرانيا، تاريخ النشر 4 آذار 2022م، الرابط:
https://arabic.rt.com/world/1331140

واستراتيجيتها في المنطقة، لذا ففي حال الاجتياح قد تضطرّ إيران لسحب البعض من ميلشياتها وعلى رأسها الميلشيات الأذرية والأفغانية للمحاربة نيابة عنها، الأمر الذي قد يضعف دور المليشيات الإيرانية على الجغرافية السورية، ويحدث حالة من الخلل ونقص في أعدادها في بعض المناطق، ما من شأنه فتح باب الارتزاق وبشكلٍ علني أمام أبناء بعض العشائر العربية خاصّة من مناطق شمال وشرق سوريا للانضمام إلى ميلشياتها، كما تفعل في الوقت الحالي بشكل خفي عبر إغرائهم بالسلطة والمال؛ الانشغال الإيراني قد يفسح المجال أمام كلّ من روسيا وتركيا لزيادة نفوذهم على حسابها، وقد تقومان بعقد تفاهم يتضمّن طرد الميلشيات الإيرانية من بعض المناطق الحيوية والاستراتيجية بالنسبة لكلّ طرف منهما، وزيادة مستوى التفاهم السياسي والعسكري وتعزيزها بتفاهمات جديدة تكون إيران خارجها.

هذا وقد تتحيّن روسيا لمثل هكذا فرصة لزيادة مستوى نفوذها على حساب إيران واسترجاع هيبتها، خاصة بعد الانتكاسات والخسائر الاقتصادية والعسكرية التي تعرّضت لها في حربها مع أوكرانيا، والتي تسبّبت بانهيار معنويات جنوده على مختلف جبهات القتال، لذا ستحاول التغلغل أكثر في المؤسّسات السياسية والعسكرية المقرّبة من إيران، كمحاولة منها لقلب موازين القوى في مناطق النظام السوري لصالحها، وقد تقوم روسيا بعقد صفقة مع إسرائيل وأمريكا في سوريا مفادها تشجيع وحتى المساهمة في إخراج الميلشيات الإيرانية للمحاربة في أذربيجان لتحقيق أمرين، أوّلهما التخلّص منهم ليلقوا حتفهم هناك، وثانيا تحسين علاقاتها المتوتّرة مع إسرائيل والغرب واستثمار هذا الملفّ لحلّ ملفّات أخرى متعلّقة بها، هذا وبنفس الوقت قد تساهم هذه الصفقة بين الطرفين في إيجاد مخرج للأزمة السورية التي تخطّت عقدًا من الزمن، فبحسب الاستراتيجية الأمريكية هناك عدد من الأهداف تسعى لتحقيقها في سوريا والتي تتصدّرها محاربة التنظيمات الإرهابية وعلى رأسها داعش، ومواجهة النفوذ الإيراني وحماية أمن إسرائيل والحيلولة دون تشكيل ميلشياتها لبنية تحتية عسكرية وجبهة متقدّمة بالقرب من الحدود الإسرائيلية وتشكيلها لمصدر تهديد دائم لها، لذا فإسرائيل وحليفتها أمريكا تعارضان بشدّة تواجد المليشيات الإيرانية في سوريا، وستحاولان بشتّى الوسائل تقليم أظافر وأذرع ميلشياتها، وما يوحي باستمرارهم في هذا النهج توقيعهم لإعلان القدس للشراكة الاستراتيجية؛ حيث ركّز الإعلان على التزام واشنطن بأمن إسرائيل والحفاظ على التفوّق العسكري النوعي لتل أبيب لردع أعدائها وتعزيزها أمنها عبر تزويدها بمعدّات عسكرية ذات قدرات استراتيجية، إلى جانب عدم السماح لإيران بامتلاك سلاح نووي ومواجهة أنشطتها وأنشطة الميليشيات التابعة لها في المنطقة؛ يبدو أنّ تورّط الجيش الإيراني في حرب مع أذربيجان ستفيد هذه الاستراتيجية.

بلا شكّ ستكون لهذه الأزمة المحتملة تأثيرات وتداعيات على مناطق شمال وشرق سوريا وقيادتها السياسية والعسكرية، والتي قد تجلب معها تغييرات جيوسياسية في حال لجوء الطرفين للخيار العسكري، فقد تلجأ قسد والإدارة الذاتية إلى اتّخاذ موقف محايد من العملية العسكرية الإيرانية ضد أذربيجان، الأمر الذي قد يشجّع إيران لتقليص حدّة عمليات ميلشياتها في المنطقة وعقد صفقة تكتيكية مع قسد لزيادة وتيرة العمليات ضد قوات الاحتلال التركي، لأنّ الأخيرة ترتبط مع أذربيجان وباكستان بتحالف في المجال السياسي والعسكري والاقتصادي، لذا من المتوقّع أن

تساند حليفتها في حال تعرّضها لاجتياح عسكري إيراني؛ هذا وقد تقوم قسد بإطلاق حملة عسكرية لتحرير المناطق المحتلة من قبل دولة الاحتلال التركي ومرتزقته في حال تراجع نفوذها وقيامها بإرسال المرتزقة للمحاربة إلى جانب القوات الأذرية.

أمّا في حال اتّخاذ الإدارة الذاتية وقواتها العسكرية لموقف معارض للوجود الإيراني في سوريا، الأمر الذي قد يجلب معه تداعيات سلبية على المنطقة لعلّ أبرزها؛ ازدياد وتيرة الحرب الهجينة من قبل الحرس الثوري الإيراني والميلشيات الموالية لها، بما فيها ما يسمى تنظيم (الجبهة الشعبية لتحرير المنطقة الشرقية) وميليشيات الدفاع الوطني عبر استهداف الشخصيات العشائرية والقيادات السياسية والعسكرية، لإحداث حالة من الفوضى في المنطقة، أو قد تلجأ لعقد تفاهم مع خلايا داعش في منطقة دير الزور وحتى مخيم الهول لزيادة استهدافها لمكوّنات المنطقة، حتى فتح جبهة داخل المخيّم نفسه وخاصة في القطاع الذي يضم عوائل داعش من الجنسية العراقية والسورية، عبر إمدادهم لوجستياً بالمعلومات الاستخباراتية والمعدّات العسكرية لمحاربة القوات العسكرية العاملة هناك، ومحاولة خلق حالة من الفوضى في المخيّم وحتى إخراجه من تحت سيطرة قوات سوريا الديمقراطية والتحالف الدولي لمحاربة الإرهاب، هذا وفي نفس السياق قد تقوم تركيا كما فعلت في خضمّ الأزمة السورية باستقبال اللاجئين الأذريين على أراضيها لبناء مستوطنات لهم في المناطق المحتلة كعفرين وسري كانييه وكري سبي، كما تفعل في الوقت الحالي لإحداث تغيير ديمغرافي في المنطقة، وقد تستغل انشغال المجتمع الدولي بالأزمة المحتملة لشنّ هجمات احتلالية على مناطق شمال وشرق سوريا، بالإضافة إلى ذلك قد تتعرّض المنطقة لمقايضة من قبل الدول الفاعلة في الأزمة السورية؛ فقد تتّفق روسيا وإسرائيل وأمريكا وبعد فرض أجنداتها ومعهم النظام السوري وتركيا على إخراج الميلشيات الإيرانية مقابل تسهيل سيطرة النظام السوري على الأراضي التي تديرها الإدارة الذاتية وقوّاتها العسكرية، ضمن ما تُسمّى "المقايضات الجيوسياسية". لذا فأيّ تغيير جيوسياسي في منطقة ما بالطبع ستكون له تأثيرات سلبية وإيجابية أحياناً على المناطق الأخرى وكذلك سوريا وشمال وشرقها التي تديرها الإدارة الذاتية وقوّاتها العسكرية.

الخاتمة.

يبدو أنّ الأزمات والحروب الهجينة والخاطفة التي تدور في المنطقة والعالم ما هي إلّا نتيجة لتراكمات أزمات تاريخية وسياسات بعض القوى لتعزيز هيمنتها على العالم أو تغيير مسار السياسة الدولية، لتظهر نفسها قوية مؤثّرة على مجريات أحداثها، بزعم حماية أمنها القومي التي بالكاد تصبح الشماعة لأيّة دولة لغزو دولة أخرى بحجّة ذلك، لذا من غير المستغرب أن تحشد الصين ذات يوم مدرّعاتها وجيوشها لاجتياح جزيرة تايوان التي تعتبرها جزءًا من أراضيها، والتي تشهد توتّرات دراماتيكية بين الطرفين في الآونة الأخيرة؛ هذا ويمكن إسقاط ذلك الأمر على العلاقات الإيرانية- الأذرية التي تشهد حالات توتّرات بين الفينة والأخرى بين الطرفين، بحكم تداخل القوى والأجندة في تلك المنطقة الاستراتيجية والغنية بالثروات الطبيعية، لذا فسيناريو الاجتياح العسكري أو تنفيذ عمليات تآمرية ضدّ أذربيجان سيكون من ضمن أولويات القيادة الإيرانية على المدى البعيد في حال تحوّل أذربيجان إلى مقرّ لكلّ من الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية لتنفيذ عمليات عسكرية وأمنية ضدّ إيران.

هذا وينسحب الأمر كذلك على مناطق شمال وشرق سوريا التي قد تتعرّض لهجمات من قبل دولة الاحتلال التركي ومرتزقتها، استنادًا إلى مبدأ "الحملة بين الحروب" التي تتّبعه بعض الدول في المنطقة كإسرائيل، كون منطقة الشرق الأوسط وحتى العالم على أعتاب تغييرات جيوسياسية واقتصادية وعسكرية، وقد تصل معدّلات الصراع بينهم إلى مستويات خطيرة، خاصة مع تصاعد حدّة التوترات وتهديد بعضهم البعض بالأسلحة النووية والبيولوجية، الأمر الذي يوحي بإطالة أمد الصراعات والنزاعات والأزمات في المنطقة لمدّة أطول، والتي تشهد بالأساس حالة تدهور كبيرة في مجالات الأمن الغذائي والصحّي والاقتصادي...الخ.

بلا شكّ لن تكون مناطق شمال وشرق سوريا بمنأى عن آثار تلك الصراعات، وهذا ما يفرض على قيادتها السياسية والعسكرية قراءة وتحليل ما يجري من أزمة في حوض قزوين بشكل دقيق واتّخاذ التدابير اللازمة لأيّة مستجدّات أمنية وعسكرية وسياسة ذات صلة بتلك الأزمة، بشكل يضمن مكاسب الإدارة الذاتية ويحافظ على ما بنته من علاقات في المستويات المحلية والإقليمية والدولية، ويدعم الحرب المستمرّة على تنظيم داعش الإرهابي وأخواته، وإعاقة استغلال النظامين التركي والسوري لهذه الأزمة في ضرب الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا وقسد، مع ضرورة امتلاك الخطط المسبقة لتحرير المناطق المحتلّة، وكسر الحصار المفروض على شمال وشرق سوريا.

نهوض مدينة الرحبة[1] واندثارها

د. آزاد أحمد علي

تلخّص قصة نشوء واندثار مدينة الرحبة على الضفة اليمنى لنهر الفرات بين الرقة وبغداد المشهد العمراني وربما السياسي لمنطقة الفرات الأوسط خلال فترة مهمة من العهد العباسي، كما تفصح قصة تأسيسها عن جوانب من حياة الخلفاء العباسيين وطبيعة علاقتهم بالمجتمع العربي المحلي من جهة، والشعوب غير العربية وخاصة الآسيوية منها من جهة أخرى. فضلًا عن أنّ ما يهدف إليه هذا البحث بشكل جوهري، هو توضيح جوانب من الحياة العمرانية وآلية تشكّل الحواضر مطلع العهد العباسي.

- **تغيير ديمغرافي وتوطين**

من الأهمية التذكير في سياق التأريخ للهندسة الديمغرافية وعمليات نقل وتوطين السكان بأنّ أغلب السلطات عبر التاريخ كانت تُجري عمليات توطين جديدة للسكان، وتقوم بهندسة اجتماعية وسكانية هادفة، بمعنى أنّ السلطات الحاكمة كانت تقوم غالباً بترتيبات ديمغرافية، والاختلاف فقط كانت في درجاتها وشدّتها، إذ أنّ حكم ونظام السلطة الفردية اعتمد عبر التاريخ على الموالين تماماً لضبط المعارضين. وما هو مثير للانتباه أنّ السلطة العباسية قامت بعمليات توطين مبكّرة لصالح ترسيخ حكم سلالة العائلة العبّاسية دون غيرها، ولعلّ من أوائل هذه علميات التوطين تجسّدت في نقل جنود من خراسان وتوطينهم في الرقة، حدث ذلك حوالي سنة 155 هجرية الموافق (780) ميلادية... حيث قام الخليفة المنصور بتوطين جنود آسيويين من خراسان في الرقة، ولعلّهم كانوا

[1] معنى كلمة الرحبة: قال النضر بن شميل: الرحاب في الأودية، الوحدة رحبة، وهي مواضع متواطئة ليستنقع الماء فيها وما حولها مشرف عليها، وهي أسرع الأرض نباتا. عن البلاذري. فتوح البلدان - ص184

(أكراداً أو أتراكاً بحسب المكان الذي استُقدِموا منه). ويبدو أنّه لم يعتمد على العرب لتقوية سلطته: "ولم يكن للرافقة أثر قديم إنّما بناها أمير المؤمنين المنصور رحمه الله سنة خمس وخمسين ومائة على بناء مدينة بغداد، ورتّب فيها جندًا من أهل خراسان وجرت على يدي المهدي وهو ولي عهد، ثم إنّ الرشيد بنى قصورها فكان بين الرقة والرافقة فضاء مزارع، فلمّا قدم علي بن سليمان بن علي واليًا على الجزيرة نقل أسواق الرقّة الى تلك الأرض، فكان سوق الرقّة الأعظم فيما مضى يُعرف بسوق هشام العتيق، ثم لما قدم الرشيد الرقة استزاد في تلك الأسواق فلم تزل تجتبي مع الصوافى [2]..." (البلاذري، 1932، ص184)

وقبل هذه الحادثة الحضرية المعبّرة، أمر الخلفاء العرب الأوائل الذين هاجروا الى الجزيرة الفراتية، سواء بغرض القتال أو مساندة الجيوش بعدم سكن المدن والقرى، وإنّما الاستقرار في الأراضي الخالية: "لمّا ولّى معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان رضي الله عنه أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الأرضين التي لا حقّ فيها لأحد، فأنزل بني تميم الرابية وأنزل المازحين والمديبر أخلاطًا من قيس وأسد وغيرهم، وعلى ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك، وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله." (البلاذري، 1932، ص182)

كان هذا الإجراء، ربّما سياسة احترازية حتى تتمكّن القبائل والأسر المهاجرة من ترسيخ أقدامها على أراض غريبة، وألّا تدخل تلك المدن القائمة والعائدة لعهود وثقافات وأديان محلية مغايرة، ويبدو أنّه كان من الصعب على العربي البدوي عهدئذ الاستقرار في تلك المدن والقرى والاندماج فيها. وهذه السياسية دفعت عند الحاجة الولاة إلى اتّخاذ قرارات لبناء مدن جديدة، وإن كانت تعدّ حالات نادرة، خاصة في سوريا والجزيرة الفراتية.

يتضح من قراءة المشهد العمراني لعهود تاريخية متعاقبة ومديدة أنّ العلاقة كانت وثيقة بين التوطين السلطوي للسكان الجدد ونشأة المدن التاريخية، لأنّ أغلب المدن التي استحدثت في ظلّ الحكم العربي الإسلامي كانت مدنًا سلطوية إن جاز التعبير، بمعنى أنّها ولدت نتيجة لقرارات الحاكم وبناء على مخرجات سلطته، ولم تنشأ تلك الحواضر عبر سيرورة عمرانية، لأنّها لم تبرز من بين عشرات القرى، خاصة في البلدان التي تمّ فتحها وغزوها خارج شبه الجزيرة العربية.

- **قصة بناء مدينة الرحبة**

بصرف النظر عن الحاجة العملية لمدينة تتوسّط بين بغداد العاصمة السياسية والرقة العاصمة الترفيهية للخلفاء العباسيين، فإنّ قصّة ولادة مدينة الرحبة تطابق من حيث التصنيف ما وصفناه بالمدن (السلطوية)، على الرغم من درامية قصّة نشوئها. حيث أنّ مصادفةً وحدثًا مؤثّرًا قد ساهم في قرار تأسيس مدينة الرحبة، خاصة إذا سلّمنا بالرواية التي لخّصها البلداني ياقوت الحموي، بشكل متأخّر، فقد دوّن قصة نشوئها في سردية طويلة، نوردها بشكل كامل نظراً لدلالتها وأهميتها التاريخية والمعرفية: " وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل قرقيسيا، قال البلاذري: لم يكن لها أثر قديم إنّما أحدثها مالك بن طوق بن عتاب التغلبي في خلافة المأمون. ... سُمّيت هذه

[2] صَوافي: (اسم). الصَّوافِي: الأملاك، والأرضُ مات أهلها ولا وَارثَ لها. وكذلك الصَّوافِي: الضّياع كان يستخلصها السلطان لخاصته – معجم المعاني. وفي المعجم الوسيط: الصوافي: الْأَمْلَاك وَالْأَرْض مَاتَ أَهلهَا وَلَا وَارِث لَهَا والضياع كَانَ يستخلصها السُّلْطَان لخاصته واحدتها صَافِيَة

المدينة رحبة مالك بن طوق ومن كان هذا الرجل، فقال: يا بني اعلم أنّ هارون الرشيد كان قد اجتاز في الفرات في حراقة[3] حتى بلغ الشذا ومعه ندماء له، أحدهم يُقال له مالك بن طوق، فلمّا قرب من الدواليب[4] قال مالك بن طوق، يا أمير المؤمنين لو خرجت إلى الشطّ أن تجوز هذه البقعة، فقال له هارون الرشيد: أحسبك تخاف هذه الدواليب، فقال مالك: يكفي الله أمير المؤمنين كل محذور ولكن إن رأى أمير المؤمنين ذلك رأيا وإلّا فالأمر له، قال الرشيد: قد تطيّرت بقولك، وقدم السفينة وصعد الشطّ، فلمّا بلغت الحراقة موضع الدواليب دارت دورة ثم انقلبت بكل ما فيها، فعجب من ذلك هارون الرشيد وسجد لله شكرًا وأمر بإخراج مال عظيم يفرق على الفقراء في جميع المواضع وقال لمالك: وجبت لك عليّ حاجة فسلْ، فقال: يقطعني أمير المؤمنين في هذا الموضع أرضاً أبنيها مدينة تُنسَب إليّ، فقال الرشيد: قد فعلت، وأمر أن يعان في بنائها بالمال والرجال، فلمّا عمّرها واستوفقت له أموره فيها وتحوّل الناس إليها أنفذ إليه الرشيد يطلب منه مالًا، فتعلّل عليه علّة بعلّة ودافعه عن حمل المال ثم ثنى الرسول إليه وكذلك راسله ثالثاً وبلغ هارون الرشيد أنّه قد عصى عليه وتحصّن، فأنفذ إليه الجيوش إلى أن طالت بينهما المحاربة والوقائع، ثم ظفر به صاحب الرشيد فحمله مكبّلًا بالحديد، فمكث في حبس الرشيد عشرة أيام لم تُسمَع منه كلمة واحدة، وكان إذا أراد شيئًا أومأ برأسه ويده، فلمّا مضت له عشرة أيام جلس الرشيد للناس وأمر بإخراجه، فأُخرج من الحبس إلى مجلس أمير المؤمنين والوزراء والحجّاب والأمراء بين يدي الرشيد، فلمّا مثل بين يديه قبّل الأرض ثم قام قائمًا لا يتكلّم ولا يقول شيئًا ساعة تامّة، قال: فدعا الرشيد النطع والسيف وأمر بضرب عنقه، فقال له يحيى: ويلك يا مالك لم لا تتكلّم؟ فالتفت إلى الرشيد فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! الحمد لله الذي خلق الإنسان من سلالة من طين. يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ولمّ بك شعث المسلمين وأخمد بك شهاب الباطل وأوضح بك سبل الحق...الخ". ثم طلب العفّة وأنشد شعرًا يتأسّف على صبيته الصغار، كما تبيّن من سياق الشعر يتّضح أنّ مالك من (أوس بن تغلب). (الحموي، 1979، ص3/34)

تأثّر الرشيد بحسب رواية الحموي بشعره وأشفق على عائلته: "فبكى الرشيد بكاءَ تبسّم ثم قال: لقد سكت على همّة وتكلّمت على علم وحكمة، وقد وهبناك للصبية فارجع الى مالك ولا تعاود أفعالك، فقال سمعا لأمير المؤمنين وطاعة!" (الحموي، 1979، ص3/35)

تبيّن هذه السردية في أحد جوانبها، وتعدّ في الوقت نفسه نموذجاً لقصة بناء حاضرة عربية إسلامية على الضفة اليمنى لنهر الفرات هي مدينة الرحبة، وتؤكّد على جانب من إشكالية جذر الظاهرة الحضرية العربية والإسلامية في كثير من العهود والمواقع المختلفة، وبالتالي يُعدّ نشوء الرحبة حالة تلخّص بنمطيتها واستثنائيتها أزمة التكوين والتأسيس لمجمل العمران في ظلّ الخلافة العربية الاسلامية، إن جاز هذ التوصيف والتشخيص.

كما تفصح قصة (مدينة الرحبة) عن حقيقة ضعف حكم هارون الرشيد لدرجة أنّه طلب المال من مالك الذي منحه هو أرض الرحبة وساهم في تمويل بنائها. ثم أرسل لاحقًا مسلّحين للقبض على مالك الذي تمرّد عليه بهذه السهولة. وهذا يرجّح الرأي القائل بأنّ هارون الرشيد وربّما كلّ السلالة العباسية لم يكن محبوباً من قبل القبائل العربية، بل أنّ العرب الأقحاح كانوا ضدّ حكمها في الغالب.

[3] حَرَّاقة: نوعٌ من السُّفن فيها مرامي نيران يرمي بها العدوّ في البحر – معجم اللغة العربية المعاصر- عن موقع (عربي ديكت)

[4] القصود بالدواليب: دوامات مياه نهر الفرات

كما سنجد لاحقًا في تمرّد بني مرداس الذين استولوا على الرحبة وحاربوا الحكم العباسي مستعينين بالإمبراطورية البيزنطية.

إذا تجاوزنا قليلًا السرديات التاريخية العربية وانتقلنا الى دراسات معاصرة تخصّصية جرت للكشف عن تاريخ ودور مدينة الرحبة السياسي والاقتصادي، يمكن الاستفادة من بحث فرنسي جديد نسبيًّا يكشف النقاب عن معلومات غزيرة بهذا الصدد، تسند وتدعم الروايات التاريخية العربية التي سبق ذكرها.

لقد ساهم بحث أثري تخصّصي في الكشف عن تفاصيل نشوء وتطوّر مدينة الرحبة، إذ أعدّ ماري أوديل روسيه بحثًا لنيل درجة دكتوراه حول نوعية وانتشار فخّار الرحبة، وناقشها عام 1997 بجامعة ليون، وقد ساهم هذا البحث التخصّصي في توفير معلومات جديدة وقيّمة حول نشوء وتاريخ الرحبة. حيث إنّ بقايا مساكن الرحبة التاريخية تقع تحت مدينة مباني مدينة الميادين الحالية بمحافظة دير الزور، وقد احتفظت المدينة القديمة والقلعة الكائنة على هضبتها الجنوبية باتّجاه البادية باسمها القديم والأصلي حتى تاريخه. ويبيّن روسيه أنّ الرحبة: "تأسّست على أرض بكر في ظلّ خلافة المأمون (813 -833) م، وتبيّن النصوص أهمية المدينة الواقعة على تقاطع لطرق القوافل، والتي تنتمي لمنطقة طريق الفرات وهي مقاطعة إدارية أنشئت لحماية طريق بغداد الرقة. كانت تملك جسرًا على الفرات، يتكوّن على الأغلب من القوارب، ويقع عند مستوى الرحبة." (دافيد والدبيات، 2008، ص343)

ويبدو أن الزمن الذي اعتمده روسيه وأكّد على أنّه تمّت فيه عملية التأسيس، يتوافق مع ما أورده البلاذري الذي بيّن أيضًا أنّ الذي شيّدها هو المأمون[5] ولم تشيّد بأمر من هارون الرشيد الذي كانت فترة خلافته قبل (787م - 809م).

- **حكم المرداسيين للرحبة:**

ينسب المرداسيون إلى قبائل كلاب البدوية المنحدرة من عامر بن صعصعة من عرب شمال الجزيرة العربية، كانت مساكنهم في الجاهلية حمى الربذة في جهات المدينة المنورة وفدك والعوالي، ثم هاجر قسم منهم، واستقر على شواطئ الفرات الشامية، وفي بدايات القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وصلت دفعة جديدة من قبائل عامر بن صعصعة فيها بنو عقيل الذين سكنوا منطقة الموصل، وقشير التي توطّنت حول قلعة جعبر شمال الرقة، ونمير التي وصلت إلى منطقة حرّان والرها.

وكان نصيب الكلابيين الاستقرار في شمالي الشام، وقد تسبّبت هذه الهجرة البدوية الجديدة في كثير من الفوضى والدمار، ولكن سيف الدولة الحمداني أمير حلب (333 - 356هـ) (ميلادي؟) استطاع أن يضبط قبائل كلاب ضبطًا شديدًا إلّا أنّه كان يداريهم في الوقت نفسه؛ لكي يستفيد من طاقاتهم الحربية في حروبه مع البيزنطيين.

[5] بين خلافة الرشيد (786 – 809) م وولده المأمون (813 -833) أربع سنوات كانت فترة حكم ولده الأمين (809 - 813)، ونفترض ان الصراع والحرب بين الأخوين الأمين والمأمون لم تساعد على بناء مدينة الرحبة، فربما طورها المأمون ومع ذلك نرجح أن الرشيد أمر بتشييدها، لأنه كان محبا للعمران وكان مالك أحد ولاته ومن المقربين له، فضلا عن قصة معاقبته لمالك بن طوق المؤسس والباني المؤكد للمدينة والذي لا يعرف بالضبط سنة ولادته لكنه توفي سنة (873) م

هذا وقد وصل المرداسيون إلى السلطة نتيجة للأوضاع التي كان سادة في العالم الإسلامي، فالتنافس بين الخلافة العباسية والدولة الفاطمية كان شديدًا للسيطرة على بلاد الشام وسعي كلّ طرف منهما إلى كسب القبائل العربية البدوية؛ ويبدو أنّ الصراع على السلطة داخل المجتمعات العربية المهاجرة الى شمالي الجزيرة العربية هيّأت المناخ لصالح بن مرداس بن إدريس الكلابي ليؤسّس ما يشبه الدولة في حلب بين أعوام (415 - 474هـ). لكن لم يرد ذكر له ولم يشتهر صالح إلّا بعد أن استولى على مدينة الرحبة سنة 399هـ الموافق لسنة (1008) م لأهميتها في التحكّم في طريق بغداد نحو الرقة وحلب. وعلى ما يبدو ظلّت قبائل بني كلب ومنها بني مرداس بدوية ولم ترضَ بالتحوّل نحو الاستقرار والتحضّر، وإنّما سعَت لفرض حكمها وسلطانها على الحواضر القائمة في شمالي سوريا وضفاف نهر الفرات. وعلى اعتبار أنّهم كانوا على المذهب الشيعي فقد اعترفوا بالتبعية للفاطميين، ونافسوا العباسيين السُنّة وكانوا يسعون لإرضاء البيزنطيين سياسيًا، لدرجة كانوا يدفعون الجزية السنوية للبيزنطينيين.

كما انحازوا إلى السلاجقة، واستنجدوا بهم عندما ظهرت قوّتهم على مسرح الأحداث.[6] ولم تخلّف الإمارة المرداسية حواضر وآثارًا مادية أو عمرانية لأنّها كانت ذات بنية بدوية، ولذلك من المفترض أنّ تأثيرهم على تطوّر مدينة الرحبة كان محدودًا.

- **صعود دور الرحبة السياسي**

تأثّرت الرحبة في ظلّ مناخ الانقسام والصراع ضمن حدود الخلافة العباسية بهذه الأوضاع السائدة: "كان حكام الرحبة في القرن العاشر يتبعون بالتناوب الحمدانيين في الموصل، والفاطميين في الفسطاط أو البويهيين في بغداد. لقد سهّل تجزّؤ السلطة السياسية في نهاية العصر العباسي هيمنة حكم المرداسيين على المنطقة (1005 – 1080) م. وهكذا أصبحت الرحبة مستقلّة وسيطرت على منطقة تشتمل على الوادي الأوسط لنهر الفرات، وسورية الوسطى، وحلب، وقد فرض النظام مؤسّسها صالح، وعلى الأخصّ بفضل اتّفاق سلام ضمني مع البيزنطينيين. وقد تمكّن السلجوقيون الذين كانوا يعيثون فسادًا في المنطقة منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي من دحر المرداسيين وحكم المدينة لصالح الخلفاء العباسيين في بغداد حتى عام 1127 م." (دافيد والدبيات، 2008، ص346)

سواء استنجد المرداسيون بالسلاجقة أم خضعوا لهم بالقوة، فقد انتهى الحكم المرداسي العربي البدوي للرحبة، وكان ذلك الحدث متوافقًا مع هيمنة القبائل ذات الأصول الآسيوية التركية واستلامها السلطات عملياً، عن طريق إزاحة الطبقة الحاكمة العربية عاماً بعد آخر ومدينة بعد أخرى.

- **السمات العمرانية لمدينة الرحبة**

تطوّرت الرحبة حتى اكتسبت خصائص عمرانية ومعمارية محلية، فتحوّلت الى مركز مديني متكامل، يحيط بها سور حصين من المواد الترابية لتحميها من الغزوات البدوية والقوات الأخرى الغازية: "أهمية الرحبة مؤكّدة تمامًا كمركز عمراني في وسط إقليم ما بين النهرين في القرن الحادي عشر. كان لا بدّ للمدينة أن تكون محصّنة، وهناك ذكر للأسوار التي كانت ربما من الطوب

[6] لمزيد من المعلومات انظر مادة: المرداسيون في الموسوعة العربية العالمية، المجلد الثامن عشر، ص354.

النيء، في النصوص، أثناء إعادة بنائها في عام 970م. والعديد من الإشارات تتحدّث عن أبراج بالإضافة إلى حصن." (دافيد والدبيات، 2008، ص346)

هذا وقد سيطر عليها المرداسيون بعد إعادة بناء المدينة سنة 970 م، وباتت حاضرة للبادية تغذّيها بالسلع والأدوات بعد استقرار نفوذ المرادسيين: "من خلال حركة تنقّل الفخّار. وتتطابق هذه الحركة مع الأقاليم التي سيطر عليها المرادسيون في زمن استقلال الرحبة ويبيّن أنّ هذه السلالة الحاكمة، ذات الأصل البدوي، كانت تحكم مع بقائها مرتبطة بالبادية، التي كانت تأوي القوات المسلّحة لبني مرداس." (دافيد والدبيات، 2008، ص350). وبدأت معالم العمارة والمساكن ذات الطابع الشرقي الإيراني وربما الكردي تظهر فيها لاحقًا في العهد الأيوبي، خاصة عنصر الأيوان المنفتح على الصحن الداخلي. (دافيد والدبيات، 2008، ص352)

- **الرحبة الأيوبية الجديدة**

انتقلت السلطة الفعلية من السلاجقة الى الأمراء الأيّوبيين تدريجياً، ونجح الأيوبيون أكثر في ضبط الأوضاع الداخلية في الجزيرة الفراتية، وكذلك بلاد الشام ومصر. كما قادوا الحرب ضدّ الفرنجة، وذلك ربّما لوجود احتياطي ديمغرافي محلي يسندهم، تمثّلت بالقائل الكوردية الكبيرة والمتعدّدة المنتشرة في الجزيرة الفراتية وشمالي سوريا. وكانت العائلة الأيّوبية عماد السلطتين السلجوقية والمملوكية، فقد ورثوا السلطة عن الأولى ومهّدوا استلام الثانية للسلطات في بلاد الشام ومصر، وكانوا أكثر فعالية في حقلي إدارة المجتمع والعمران. انتقلت الرحبة الى سلطة أسد الدين شيركوه (توفي سنة 1169م)، وهو عم صلاح الدين الأيوبي، فقد كان شيركوه قائداً رئيسياً في المرحلة السلجوقية، وربّما كان لذلك حلقة الوصل لنقل السلطات إلى آل أيّوب.

ونظرا لانشغال القائد شيركوه بالحملات العسكرية، وحيث أنّه لم يكن متفرّغاً لشؤون الإدارة، لذلك وكّل يوسف بن ملاح ليحكم الرحبة. ولم يكن يوسف عادلاً في حكمه، فاشتكى منه الأهالي. نورد ما دوّنه الحموي بهذا الخصوص: "وكان أسد الدين شيركوه قد ولي الرحبة يوسف ابن الملاح الحلبي وآخر معه من بعض القرى فكتب إليه يحيى بن النقّاش الرحبي:

كم لك في الرحبة من لائم ..... يا أسد الدين، ومن لاح

دمّرتها من حيث دبّرتها ..... برأي فلاح وملاح

يا أسد الدين اغتنم أجرنا ..... وخلّص الرحبة من يوسف

تغزو إلى الكفر وتغزو به ..... الإسلام، ما ذاك بهذا يفي" (الحموي، 1979، ص3/36)

والمعنى أنّه هنالك تناقض في ممارسات شيركوه، فقد كان يقوم بغزواته ضدّ الروم والفرنجة وكان قد ولّى شخصًا يسيء إلى الأهالي المسلمين في مدينة الرحبة.

- **الرحبة تحت حكم شيركو الثاني**

وبصرف النظر عن حقيقة استقرار أو ابتعاد شيركوه عن مدينة الرحبة، وهل ادارها عن قرب، أو حتى زارها؟ لكن من المؤكّد أنّ حفيده شيركوه[7] حكمها من بعهده، وعلى الأرجح ظلّت الرحبة

[7] للتدقيق تم تسميته ب شيركو الثاني، حيث أنه ليس بشهرة جده شيركو بن شادي

بيد الأمراء الأيّوبيون وذرّيتهم حتى أواخر العهد المملوكي، وقد بيّن ابن فضل الله أنّ أسد الدين شيركوه الحفيد والذي عاش في الفترة بين (569 – 637) هـ الموافق (1173 - 1239) م كانت له :"الرحبة، وتدمر، وماكسين من بلد الخابور، وكانت له جماعة من الأولاد.." (العمري، 2002، 285/ج6)

وقد فصّل أبو الفداء بصيغة أوسع في تفاصيل التاريخ العمراني لمدينة الرحبة، فبيّن أنّ الرحبة الأولى التي أسّسها مالك بن طوق قد تخرّبت إثر زلزال على الأرجح وظلّت قرية الى أن أعاد بناءها أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص، على مسافة فرسخ (حوالي 5 كم) جنوب الرحبة القديمة: "رحبة مالك بن طوق التغلبي مدينة على الفرات بين الرقة وبين عانه ومالك بن طوق المذكور كان من قُوّاد الرشيد قيل إنّه أول من عمّرها فنسبت إليه. أقول والرحبة المذكورة خربت وبقيت قرية وبها آثار المدينة القديمة من المآذن الشاهقة وغيرها، واستحدث شيركو بن أحمد بن شيركو بن شادي صاحب حمص في جنوبها ناقلاً عن الفرات الرحبة الجديدة على نحو فرسخ من الفرات، وهي بلدة صغيرة ولها قلعة على تل تراب، وشرب أهلها من قناة من نهر سعيد الخارج من الفرات، وهي اليوم[8] محط القوافل من العراق والشام وهي أحد الثغور الإسلامية في زماننا هذا." (أبو الفداء، 1815، ص281)

وكما نجد أنّ المعلومات التاريخية حول نشوء الرحبة وتطوّرها متقاربة، إلّا من حيث الخلط بين شيركو الأول والحفيد الثاني الذي هو مَن بنى القلعة على الأرجح، ممّا اقتضى التذكير والتفصيل. هذا وقد أعاد صياغة الخطوط العامة لتاريخ الرحبة وقلعتها الباحث الفرنسي روسيه دون أن يتنبّه الى أنّ مَن بنى القلعة هو الحفيد شيركوه وليس الجد المحارب: "أصبحت المدينة تحت سيطرة الزنكيين في الموصل بحدود أواسط القرن الثاني عشر. وقد منحها نورالدين زنكي في عام 1164م الى شيركوه، شقيق[9] مؤسس العائلة الأيوبية الذي بدأ ببناء القلعة الواقعة على حافة الهضبة، على مسافة بضعة كيلومترات من النهر، وربّما أيضًا قلعة المدينة الجديدة، في مستوى أدنى من الأولى. لقد انتقل المركز العمراني الى هذا المكان الأكثر أمنًا. تحت حماية الحصن في الوقت الذي تتعرّض فيه المنطقة إلى الغزوات المغولية. لقد تكثّفت عمليات البناء أثناء العصر الزنكي (1127 -1174) م والعصر الأيوبي (1174 – 1258) م، واستعمل جزء من الأبنية السابقة في حين أنّ التغييرات قد ظهرت في تنظيم السكن، الذي تميّز بتقليص المساحة وبإشغال المساحات الحرة وبظهور الطوابق المتعدّدة، وذلك لجعل المساكن تتلاءم مع تمركز السكان وزيادة عددهم." (دافيد والدبيات، 2008، ص352)

- **سرّ الكثافة السكانية**

المؤشّرات الأركيلوجية تبيّن أنّ مدينة الرحبة ومحيطها الريفي كانت ذات كثافة سكانية عالية، لا يمكن تفسيرها إلّا بوضع احتمال لوجود ريفي زراعي على طول مسار نهري السعيد والفرات، فضلا عن توطين حاشية أيّوبية واسعة مؤلّفة من جنود وحرفيين، حتى تطلّب بناء مساكن متعدّدة الطوابق داخل سور المدينة: "لقد بيّنت عمليات المسح الأثري أنّ الضفة اليمنى للفرات كانت كثيفة

[8] عاش أبو الفداء بين أعوام (1273 – 1331) ميلادية ومعنى ذلك وبحسب ما هو متوقع فقد كتب كتابه تقويم البلدان أوائل القرن الرابع عشر، لذلك ما قصده (باليوم) فهي على الأرجح أوائل القرن الرابع عشر الميلادي.
[9] عمه وليس شقيقه بحسب أغلب المصادر والمراجع.

السكن في العصر الأيّوبي. ويلتصق بالقناة خمسة عشرة موقعًا أثريًّا يعود تاريخيًّا إلى ذلك العصر. وهي دليل على أنّ نمو مدينة الرحبة في ذلك العصر قد دعا إلى ضرورة استثمار أراضٍ زراعية جديدة، وبالتالي إلى بناء أو اصلاح نظام الري. وقد كشفت التنقيبات الأثرية فوق القناة عن بناء قناة فرعية ثانية في القرن الثالث عشر. وبحسب الجغرافي أبي الفداء، كانت الرحبة الأيوبية والقلعة تغذّيان بالماء بواسطة تحويلة لنهر السعيد، ومع ذلك لم نعثر على أثر لهذه التحويلة على الأرض." ص360

- **الرحبة كقاعدة في الجبهة الشرقية لدولة المماليك**

إنّ وصف أبي الفداء (1273 - 1331) م للرحبة بأنّها (ثغر) في مرحلة كتابته لكتاب تقويم البلدان، التي قد تكون مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، يظلّ لغزًا، فمن المعروف أنّ مصطلح "الثغر" خاص بالمدن التي تكون على حدود الروم أو أرمينيا بوصفهما كانتا دولتين متحالفتين ومعاديتين للخلافة الإسلامية عهدئذ، إلّا إذا كان المقصود ثغر في مواجهة المغول، وهذا هو المقصود به على الأرجح، وما أكّد روسيه: "غدت قلعة الرحبة، منذ منتصف القرن الثالث عشر، قاعدة للدفاع في الجبهة الشرقية لدولة المماليك في وجه المغول، الذين لم يتمكّنوا قطّ من الاستيلاء عليها بالرغم من محاولاتهم العديدة. ولا تذكر النصوص في تلك الفترة سوى القلعة ووظيفتها الدفاعية. كما أنّ تطوّر مدينة الرحبة الثانية الواقعة على حافّة الهضبة شديد الارتباط بنشاط القلعة." (دافيد والدبيات، 2008، ص360)

بات واضحًا أنّ وظيفة المدينة التجارية والإدارية تحوّلت إلى عسكرية، وانكمشت تقريبًا داخل القلعة في مواجهة غزوات المغول، وذلك منذ أواخر المرحلة الأيوبية، ونظراً لمواجهتها مخاطر الغزو يمكن الافتراض أنّه تمّ ترجيح وظيفتها الدفاعية على المدنية والتجارية، لذلك ظلّت أيّوبية الطابع من حيث الإدارة المحلية والجنود المدافعين وربّما من حيث البنية السكانية أو الاجتماعية.

- **الرحبة وجيرانهم الكورد**

بيّن البلداني والمؤرّخ، مفتي دمشق ابن فضل الله العمري في سياق تعريف الكورد وبلادهم، أنّهم ينقسمون على مملكتين، الأولى جبلية عاصمتها جولميرك (هكاري الحالية في أقصى جنوب شرق تركيا)، والمملكة الثانية تضمّ أهالي السهول في الجزيرة الفراتية، وهم من أتباع المبارز كك، حيث كانت الرحبة تقع على حدود بلادهم: "أمّا الثاني فهو صاحب عقرشوش، وملوكها الآن من أولاد المبارزكك، وكان مبارزالدين كك رجلاً شجاعاً تغلب عليه غرائب من الهوس فيدّعي أنّه ولي من أولياء يقبل النذر، وكانت تنذر له النذر تقرّباً إليه بما تنفق عليه لا اعتقادًا فيه فيسرّ بذلك، فإذا أتاه النذر أضاف إليه مثله من ماله وتصدّق بها جميعاً. وأهل هذا البيت يدّعون عراقة الأصل في الإمرة، وقدم السؤدد في الحشمة، ويقولون أنّهم عقدت لهم ألوية الإمارة وتسلّموا أزمة هذه البلاد، وتسنّموا صهوات هذه الصياصي بمناشير الخلفاء، وأنّهم كانوا لهم أهل وفاء، ولهم في هذا حكايات كثيرة وأخبار مأثورة، وهم أهل تنعّم ورفاهية ونعمة ظاهرة، وبزة فاخرة، وأدر[10] مزخرفة، ورياض مفوفة[11]، وخيول مسومة، وجوارح معلمة، وخدم وغلمان، وجوار حسان، ومعازف وقيان، وسماط ممدودة وخوان، وأهل عشرة وإخوان، وموقع بلادهم من أطراف بلادنا قريب،

[10] جمع دار
[11] مخططة

والمدعو منهم من الرحبة وما جاورها يكاد يجيب. وملوكنا تشكر لهم إخلاص نصيحة، وصفاء سريرة صحيحة. والقائم فيهم الآن شجاع الدين ابن الأمير نجم الدين خضر ابن المبارزكك، ولم يبلغ الآن مبلغ أبيه، ولا أظنّه يقاربه ولا يدانيه، على أنّه قد ملك ملكه، ونظم سلكه... وممّا ينبّه عليه أنّ في طرق المارين ومسالك المسافرين من بلادنا الى خراسان، ومنها إلينا، ينجم في بعض الأحيان أهل فساد يعمدون إلى عميد يقدمون عليهم فيقطعون السبل ويخيفون الطرق، وتطير سمعة عميدهم، وتطير سمعة عميدهم، وتنتشر في قريبهم وبعيدهم، فيكاتب ذلك العميد من أبواب الملوك، ويضطرّ إليه لفتح الطريق للسلوك." (ابن فضل الله، 1988، ص59)

يظهر من النص أنّ المملكة الكوردية التي كانت تحكمها سلالة المبارزكك قد كانت في الجانب الشرقي من نهر الفرات، وكانت إضافة الى علاقات حسن الجوار مع السلطنة المملوكية[12] تحمي الطريق الواصل من دمشق الى بغداد ومن ثم خراسان. على اعتبار أنّ هذه الطريق التجارية الرئيسية عهدئذ كانت تمرّ من الرحبة، ومهمّة الحفاظ على سلامتها من غرب الفرات حتى دمشق تقع على كاهل السلطة المملوكية: "فأمّا طريق الرحبة: فكان ينور بمدينة عانا قوم من النصّاح بحجة أمر سوى التنوير، ويستر عليهم أهل البلد حبّاً لملوكنا فترى ناره أو دخانه بخربة الروم، وبالجرف أيضاً، ويرفع فيهما أو في احداهما فيرى بكلّ منهما في وادي الهيكل، ويرفع فيه فيرى بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى في الرحبة – وقاها الله،[13]، ويرفع فيها فيرى في كواثل، ويرفع فيها فيرى في منظرة قباقب، ويرفع فيها فيرى في حفير أسد الدين، ويرفع فيها فيرى بالسخنة..." (ابن فضل الله، 1988، ص260). وهكذا يتمّ تأمين الطريق بإشارة اشعال النار حتى الوصول الى دمشق بإشعال إشارة في مئذنة العروس بالمسجد الأموي.

ممّا سبق يتأكّد لنا بأنّ الرحبة كانت عقدة مواصلات بين مشرق ومغرب العالم الإسلامي في المملوكية، وخاصة في القرنيين الثالث عشر والرابع عشر.

- **انكماش الرحبة**

وعلى الرغم وقوعها على ضفة الفرات داخل سهل خصيب ووقوعها على طريق التجارة، فلماذا فقدت الرحبة أهميتها الاقتصادية وانتهت وظيفتها الادارية؟ وهذا سؤال مفتاحي للكشف عن آلية اندثارها، لأنّ السبب سياسي وعسكري بدون شكّ، فهي لم تندثر بسبب الخراب البيئي أو كارثة طبيعية، ولم يهجرها سكانها بعد غزوة أو حرب مدمّرة، وإنّما انحدرت نتيجة للمتغيرات السياسية والإدارية: "فقدت الرحبة أهميتها مع انسحاب آخر جندي مغولي بحدود عام 1400م وغياب تهديدهم. إذ أصبحت صيانة القلعة مكلفة، وتخلّت عنها السلطات المملوكية شيئًا فشيئًا. ويعود تدهور بلدة الرحبة في جزء منه إلى نهاية دور القلعة والى اختفاء الخدمات المرتبطة بوظيفتها. ومع ذلك ظلّت القرية التي خلّفت المدينة مسكونة أثناء العصر العثماني، دون أن نتمكّن من تحديد طبيعة ذلك السكن... وهكذا تقوقعت المدينة على ذاتها داخل القلعة. وتدفعنا طبقات الزبل السميكة على السطح الى التفكير بأنّ السكان كانوا من الرعاة بشكل خاص." (دافيد والدبيات، 2008، ص364)

[12] كان ابن فضل الله مفتياً لدمشق وعمل في ديوان الانشاء للسلطان المملوكي الناصر محمد قلاوون (1285-1341) م

[13] وهذا دليل أهمية الرحبة

ومن الممكن أنّ سيادة البداوة ساهمت في تحفيز الهجرة منها، خاصة هجرة النخب الحضرية، الذين من المتوقّع أن انزاحوا منها إلى مكان آخر، وعلى الأرجح بنوا قلعة الدير التي عرفت أوّلا بدير الرحبة[14]... ومن ثم دير الزور في مرحلة متأخّرة.

- **خاتمة ونتائج:**

يفترض الباحث دافيد أنّه عدّة عوامل قد لعبت في رسم خطّ تطوّر المدينة وعلاقتها مع إقليمها أثناء فترة القرون الوسطى. ويبدو أنّ أهمّ ما يمكن أن نلاحظه هو تطوّر الاستثمار الزراعي بفضل قناة نهر سعيد الكبيرة واستمرار الاستفادة منها حتى العصر المملوكي. حيث كان يأتي الدخل الأساسي للمدينة من الزراعة. ويبدو أنّ زوال المدينة التدريجي ناتج عن تدهور هذا النشاط. (دافيد والدبيات، 2008، ص365)

من المؤكّد أنّه كانت لمدينة الرحبة محيط ريفي زراعي ومجتمعات من الفلاحين على ضفاف قناة سعيد وعلى نهر الفرات أيضًا... وهذا المجتمع الفلّاحي لم يكونوا من المرداسيين البدو الذين تمّت إزاحتهم منذ أمد بعيد... يبقى السؤال هل السلجوقيون والأيّوبيون استوطنوا في هذا المحيط الريفي كرديف للسلطة وسند اجتماعي لها؟ وهل هم من عملوا في الزراعة وشكّلوا طبقة الفلاحين أو المزارعين حول نهر السعيد؟ أم ظلّوا سلالات حاكمة وفرسانًا حاملين للسلاح فقط؟ نفترض وعلى ضوء الغنى العمراني وعمق الجذور التاريخية بأنّه لم تخلُ المنطقة من سكان الريف، وكان هنالك مجتمع فلاحي أقدم من جميع أفواج المستوطنين في المدينة، سواء من مجتمع مؤسّسها من بني تغلب مالك بن طوق، أو المرداسيين لاحقاً، وصولًا إلى الأيّوبيين ومرورًا بالسلجوقيين؟ وهذا أيضًا احتمال لا يمكن نفيه، بمعنى كانت المجتمعات الفلاحية تعمل في الزراعة، وقسم من سكان المدينة كانوا مزارعين إن لم يكن جلّهم.

بيقى أن نتساءل: هل ميزة مدن الفرات التاريخية أنّها كانت مدنًا زراعية نهرية؟! بناءً على اطّلاعنا السابق، يمكن ترجيح هذا الاعتقاد، فكانت أولى مدن الفرات نهرية زراعية، وبوجود هذا النهر العظيم، تظلّ قصّة انكماش أحد مدنها محفّزة لمزيد من البحث والسجال. لكنّنا نرجّح فرضية الانزياح والتنقّل لأكثر من سبب. إذ تظلّ فكرة انتقال تقليد المدينة الزراعية من الرحبة الى دير الزور لاحقًا مرجّحًاً، وهذا ما سنستمرّ في البحث فيه. على الرغم من ترجيحه المسبق لعدّة أسباب، أبرزها قدرتهم على العمل في الزراعة، وكذلك الرغبة في التحصّن ضمن أدغال نهر الفرات في مرحلة انتقالية عاصفة تداخلت فيها سلطة الأيوبيين مع سلطة المماليك فالعثمانيين. ففكرة التحصّن والانزواء كانت وراء قصّة ولادة و تأسيس قلعة الدير الأولى داخل النهر.

فعلى الأرجح إنّ نخب المدينة المهاجرة من الرحبة نحو الشمال الغربي القريب، هي أول من بنت قلعة الدير. وقد بيّنت الوثائق العثمانية أنّ كلًّا من الدير والرحبة كانت سنجقًا واحدًا سنة 1554م وكان حاكمها عزالدين شير. (القيسي، 2019، ص28)

وبناءً عليه فمدينة الرحبة لم تندثر، وإنّما استمرّت بصيغة ما داخل دير الزور المعاصرة، فضلًا عن مدينة الميادين نفسها.

[14] القيسي. لواء الزور في الوثائق العثمانية. ص22

1- معظم المدن التي شيّدت في العهود الإسلامية، وخاصة في الجزيرة الفراتية وسوريا كانت مدناً سلطوية، أي كانت تشييدها بقرارات من السلطة الحاكمة.

2- ترجّح لنا قصّة بناء الرحبة وكذلك الرافقة أنّ العلاقات بين القبائل والشعوب من جهة والخلفاء العرب المسلمين من جهة أخرى كانت محكومة بالمصالح الاقتصادية والتحالفات السياسية التي تؤمّن وتغطّي هذه المصالح، أمّا الانتماء القومي والقبلي أو حتى الديني فيبدو أنّه كان يأتي في المرتبة الثانية.

3- ستظلّ العلاقة قائمة، وثيقة وقابلة للنقاش بين اندثار الرحبة وولادة دير الزور.

المراجع: ترتيبها بحسب (طريقة هارفرد)

1- معجم البلدان – شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي

بيروت – 1979

2- فتوح البلدان – للأمام أبي الحسن البلاذري. عني بمقابلته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان – المطبعة المصرية بالأزهر – القاهرة – 1932

3- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحى، مسالك الأبصار في ممالك المصار. حققه: كامل سلمان الجبوري. أبو ظبي الطبعة: الأولى، 1423 /2002

4- ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين. بيروت - 1988

*5- القيسي، أحمد السلامة. **لواء الزور في الوثائق العثمانية** – دراسة واعداد.*

الجزء الأول – مركز اللواء "دير الزور" - 2019 الطبعة الأولى – دمشق

6- مجموعة من المؤلفين بإشراف: د. جان كلود دافيد – د. محمد الدبيات

ترجمة: د. محمد الدبيات. المدينة في سورية وأقاليمها الموروثات والمتحولات دمشق – 2008

المحتوى

التطرف بين الثورة والتسلط 5

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

التطرف وتصدع المجتمعات 45

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

الحركة الأصولية الشيعية 55

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

دمشق وإشكالية القرار الاستراتيجي 81

حسان القطب

النزوح وتأثيراته 94

علي جمعة

بحر قزوين إلى أين ؟ 101

مركز روج آفا للدراسات الاستراتيجية

نهوض مدينة الرحبة واندثارها 115

د. آزاد أحمد علي